الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ _ تاريخ العرب والإسلام



الصراع المملوكي الإيلخاني على بلاد الشام

654– 735هـ / 1255 – 1335م

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد: كاظم أمير زادة قاسمي

إشراف: أ.د. عمار محمد النهار

العام الدراسي 1438 / 2017م

فهرس المحتويات

8_ مصحف أولجايتو.

9_ وقف إيلخاني.

10_ وثائق إيلخانية.

_ ملخص الأطروحة باللغة الإنكليزية. ص335

ملخص الأطروحة

تحدثت هذه الأطروحة عن أصول قيام المغول واعتقاداتهم الدينية ومختلف قبائلهم، وذلك منذ ظهور جنكيز خان حتى توزيعه الإرث بين أولاده الأربعة، مروراً بتسلم مونكوقا آن بين 649-658هـ/1251-1259م، وقيامه بإرسال أخيه الصغير هولاكو باتجاه أراضي الإسماعيلية الحشاشين والعراق وبلاد الشام، ومتابعة هولاكو مسيره باتجاه بلاد الشام وسيطرة مغول فارس عليها، ثم مغادرة هولاكو لها تاركاً وراءه كتبغا قائداً عاماً لقوات المغول فيها، فبدأت تحركات دولة المماليك التي استطاعت أن تحقق نصراً تاريخياً بإيقاف زحف المغول في معركة عين جالوت. ثم كان الحديث عن استرداد دولة المماليك لبلاد الشام، وتثبيت حكمهم فيها وخاصة من خلال نظام النيابات.

ثم تناولت الأطروحة بالشرح العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهد الظاهر بيبرس (658 – 676هـ / 1260 – 1277م)، فبيَّنت تطورات الأحداث الداخلية والخارجية للدولتين المملوكية والإيلخانية وانعكاس ذلك على الصراع بينهما، ومحاولات أباقا خان التحالف مع الغرب ضد دولة المماليك، ومشاريع الظاهر بيبرس _ مقابل ذلك _ لحماية بلاد الشام والمحافظة عليها، وتدابيره لمواجهة مغول فارس الذين تحالفوا مع الأرمن أيضاً، إلى أن تطورت الأمور إلى المواجهات المباشرة، فكانت معارك البيرة وحمص، وكان فشل التحالف المغولي مع الغرب فتحولوا نحو محاولة الصلح مع دولة المماليك.

وكذلك العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهدي المنصور قلاوون والأشرف خليل (678 – 693هـ / 1279 – 1293م)، واستغلال المغول اضطراب أحوال دولة المماليك، فهاجموا عدة مناطق أبرزها حلب، ثم كانت معركة حمص، وكان انتصار المماليك فيها السبب الرئيسي في جعلها المحاولة المغولية الأخيرة لغزو الدولة المملوكية. ثم بيَّن هذا الفصل كيف قلَّت الأحداث بين دولة المماليك ودولة إيلخانات فارس في عهد الأشرف خليل.

وتكلمت الأطروحة عن العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهد الناصر محمد بن قلاوون وعهد غازان (693 – 703هـ / 1293 –1303م)، وكيف حاول غازان السيطرة على بلاد الشام مرات متكررة. ثم أتت الأطروحات على هذه العلاقات في عهد الناصر محمد بن قلاوون ما بعد عهد غازان (703هـ – 741هـ / 1303م – 1340م)، إذ تسلم الحكم أخوه أولجايتو خدابندا، وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات المملوكية الإيلخانية اتصفت بالعلاقات السلمية، تخللها بعض التوترات بين الطرفين.

ثم كان عهد الإيلخان أبي سعيد، واتصف بالتقارب المملوكي الإيلخاني، وعقد الطرفان اتفاقيات سلام وصداقة، وتبادلوا الهدايا، واستمر هذا التقارب في عهد خلفاء الناصر محمد.

_ المقدمة:

بعد أن أقر قوبيلاي خان هولاكو على القسم الغربي من إمبراطورية المغول، بدأ تاريخ جديد للمغول وللمشرق العربي الإسلامي في آن واحد، وبدأ هولاكو يقترب من بلاد الشام، فاستطاع القضاء على الإسماعيليين الحشاشين، وعلى العباسيين في العراق، مؤسساً دولة في تركستان وإيران والعراق وشرق الأناضول والجزيرة الفراتية، ومقترباً من حدود بلاد الشام التي استطاع دخول أهم مدنها كحلب ودمشق.

هذه التطورات آذنت بولادة دولة جديدة للمغول هي دولة الإيلخانات أو مغول فارس، وآذنت بقيام دولة جديدة أيضاً في بلاد الشام ومصر هي دولة المماليك، التي استطاعت وقف زحف مغول فارس في معركة عين جالوت، ثم استردت مدن بلاد الشام منهم، مما فتح صفحة من الصراع على بلاد الشام بين الطرفين طوال عصر الدولة الإيلخانية.

لقد أدى الصراع على بلاد الشام بين المماليك ومغول فارس إلى تداخلات معقدة بين القوى الموجودة على الساحة العالمية في ذلك الوقت؛ من سلاجقة وغربيين وصليبيين وأرمن ومغول القفجاق، وحدثت معارك طاحنة تخللها تحالفات واتفاقيات بين مختلف هذه الأطراف، مشكلة صراعاً كان محوره الأساسي بلاد الشام، وهو صراع كان له آثاره الزمانية والمكانية، وكانت له آثاره على المنطقة آنذاك.

لقد دل هذا الصراع على أهمية الموقع الجغرافي لبلاد الشام وقربها من البحر المتوسط، وغناها بكل ما يجعلها هدفاً عسكرياً وتجارياً وحضارياً، وصار من يسيطر عليها يسيطر على العالم الشرقي تقريباً.

نتيجة لذلك فهي مليئة بالكنوز التاريخية، فرأى الطالب تسليط الضوء على تفاصيل مرحلة لم تأخذ حقها كفاية، وهي الصراع المملوكي الإيلخاني على بلاد الشام في المدة الواقعة مابين: 654–735هـ / 1255 – 1335م.

فمن الأهمية دراسة المغول الإيلخانيين للتعرف عليهم وعلى دورهم في المسرح السياسي في المشرق العربي الإسلامي في ذلك الوقت، وماهية علاقتهم بالقوى الأخرى من مماليك وصليبيين وأرمن بالإضافة إلى إخوانهم في الجنس وأعداءهم في الدين مغول القفجاق، والتعرف على سياستهم الداخلية والخارجية، هكذا حتى تفكك دولتهم وانحلالها في فارس.

وقد اعترض هذا البحث عدة إشكاليات، بسبب تعدد توجهات المصادر سياسياً، لكن أبرز هذه الإشكاليات كانت قضية تبيين الأحوال بين الإيلخانيين والمماليك قبل دخول الإيلخانيين الإسلام ثم بعد اعتناقهم له.

وهناك إشكاليات أخرى تعلقت بطبيعة العلاقة المتغيرة والمتبدلة بين الطرفين. وتشابك المصالح بين الأطراف المتصارعة على بلاد الشام. والغايات المبتغاة التي تدعو للسيطرة على بلاد الشام. والمراحل الدقيقة التي مرت بها البلاد خلال مدة البحث. وتفاصيل الصراع ونتائج ذلك. واستقراء أهمية ما سبق في تأثيره على العالم من خلال مصير بلاد الشام.

لذلك تعامل الطالب مع هذا الموضوع بمحاولة الإحاطة وجمع المادة العلمية من المصادر والمراجع المتخصصة، وتوظيفها حسب حاجة البحث، ومن ثم تحليلها واستقرائها ونقد الآراء واستنباط دلالات ورؤى جديدة.

وحاول الطالب إخضاع كل ذلك لقواعد البحث التاريخي، فاتبع في ذلك المنهج التحليلي حسب طبيعة النصوص، ومنهج النقد حسب الحاجة له، والمنهج الوصفي وذلك حسب طبيعة بعض الأحداث.

وحاول الطالب أن يقارن بين المصادر العربية والمصادر الأخرى وخاصة الفارسية، مما يعطي إضافات جديدة ربما تغني البحث من جميع مناحيه.

وبناء على كل ذلك؛ تضمنت هذه الأطروحة ثمانية فصول ارتبطت ببعضها البعض وتسلسلت زمانياً.

فتحدث الفصل الأول عن أصول قيام المغول واعتقاداتهم الدينية ومختلف قبائلهم، وذلك منذ ظهور جنكيز خان حتى توزيعه الإرث بين أولاده الأربعة، مروراً بتسلم مونكوقا آن بين 649-658هـ/1251-1259م، وقيامه بإرسال أخيه الصغير هولاكو باتجاه أراضي الإسماعيلية الحشاشين والعراق وبلاد الشام، وأوكل إليه قيادة الحملات العسكرية إلى آسيا الغربية، فانحدر هولاكو من منغوليا مجتازاً البلاد والأنهار باتجاه فارس (إيران) وهدفه إقامة أسرة مغولية حاكمة وإنشاء حكومة مركزية فيها، فخاض حروباً طويلة ومريرة أدت إلى إسقاطه للخلافة العباسية في بغداد وإقامته لدولة مغول فارس الإيلخانية، وجعل عاصمتها مدينة مراغة في أذربيجان.

وتحدث الفصل الثاني عن متابعة هولاكو مسيره باتجاه بلاد الشام وسيطرة مغول فارس عليها، ثم مغادرة هولاكو لها تاركاً وراءه كتبغا قائداً عاماً لقوات المغول فيها، فبدأت تحركات دولة المماليك

التي استطاعت أن تحقق نصراً تاريخياً بإيقاف زحف المغول في معركة عين جالوت، هذه المعركة ذات العلاقة المباشرة في الصراع المملوكي الإيلخاني على بلاد الشام؛ إذ أشار كثير من الباحثين أن كل الأعمال العسكرية المغولية بعد معركة عين جالوت كانت ردة فعل على هذه الهزيمة ومحاولة عكسها.

بل إن هذه المعركة أحدثت خلافات عميقة على وحدة الإمبراطورية المغولية التي تكونت على يد جنكيز خان وأبنائه، ومن ثم توزعت هذه الإمبراطورية إلى أربعة أجزاء: مغول إيران (الإيلخانيون)، ومغول القبيلة الذهبية في الشمال والتي تركزت في حوض الفولجا جنوب روسيا، ومغول آسيا الصغرى (مملكة جغطاي)، ثم مغول الصين في أقصى الشرق.

فمارس كل جزء من هؤلاء المغول (باستثناء مغول الصين) دوره في العلاقات المملوكية ــ المغولية، أو المملوكية ــ الصليبية، أو المملوكية ــ الغربية.

وكان الحديث في الفصلين الثالث والرابع عن استرداد دولة المماليك لبلاد الشام وتفاصيل ذلك، وتثبيت حكمهم فيها وخاصة من خلال نظام النيابات، فبين البحث إجراءاتهم في ذلك ومظاهر اهتمامهم بها الذي أدى إلى نمو المدن الشامية وازدهارها وتحولها إلى مصدر أساسي لدولة المماليك في تمويل حملاتهم العسكرية ضد أعدائهم وخاصة مغول فارس.

ثم تناول الفصل الخامس بالشرح العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهد الظاهر بيبرس (658 – 676هــ / 1260 – 1277م)، فبيَّن تطورات الأحداث الداخلية والخارجية للدولتين المملوكية والإيلخانية وانعكاس ذلك على الصراع بينهما، ومحاولات أباقا خان التحالف مع الغرب ضد دولة المماليك، ومشاريع الظاهر بيبرس _ مقابل ذلك _ لحماية بلاد الشام والمحافظة عليها، وتدابيره لمواجهة مغول فارس الذين تحالفوا مع الأرمن أيضاً، إلى أن تطورت الأمور إلى المواجهات المباشرة، فكانت معارك البيرة وحمص، وكان فشل التحالف المغولي مع الغرب فتحولوا نحو محاولة الصلح مع دولة المماليك، هذا الصلح الذي لم ينجح، فنتج عن ذلك مواجهات جديدة بل وكبيرة تمثلت في معركة البستان ذات الآثار الكبيرة على الصراع المملوكي الإيلخاني.

وأتى الفصل السادس على العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهدي المنصور قلاوون والأشرف خليل (678 – 693هــ / 1279 – 1293م)، والتي استُهلت بخروج الأمير سنقر الأشقر في الشام ومحاولته الانفصال بها عن مصر، واستنجاده بمغول فارس، فاستغل المغول ذلك واستغلوا اضطراب أحوال دولة المماليك، فهاجموا عدة مناطق أبرزها حلب، ثم كانت معركة حمص التي شكلت كبرى

المواجهات العسكرية المملوكية الإيلخانية، وكان انتصار المماليك فيها السبب الرئيسي في جعلها المحاولة المغولية الأخيرة لغزو الدولة المملوكية، إذ انتهى الأمر بين الطرفين إلى هدنة لسبعة عشر عاماً، وتمخض عن هذه المعركة تولى تكودار خان عرش المغول في فارس، فاعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد تكودار، واتبع سياسة المهادنة مع دولة المماليك.

وتناول هذا الفصل كيف استغل المنصور قلاوون هذه التطورات لإنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، كما استغل انشغال المغول خارجياً بقضية التحالف الأوربي، وداخلياً بالثورات.

ثم بيَّن هذا الفصل كيف قلَّت الأحداث بين دولة المماليك ودولة إيلخانات فارس في عهد الأشرف خليل، بعد المحاولات الكثيرة غير الناجحة للإيلخان الجديد أرغون للتحالف مع الغرب ضد دولة المماليك، وبعد انشغال أخيه كيخاتو أباقا _ الذي تسلم بعده _ بالضائقة المالية وبالثورات الداخلية، فاستغل الأشرف خليل ذلك أفضل استغلال، تجلى ذلك بتحريره لعكا من الصليبيين، وقيامه بتصفية الساحل الشامي منهم.

وتكلم الفصل السابع عن العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهد الناصر محمد بن قلاوون وعهد غازان (693 – 703هـ / 1293 –1303م)، وكيف حاول غازان السيطرة على بلاد الشام مرات متكررة، تجلت المحاولة الأولى بمعركة مجمع المروج، ونجح فيها لكن سرعان ما انسحب، وفي المحاولة الثانية عسكر غازان في حلب للإغارة منها على بلاد الشام، لكن الأحوال الجوية القاسية أجبرته على الانسحاب، وتجلت المحاولة الثالثة بمعركة شقحب، وفيها انتصر المماليك انتصاراً ساحقاً.

وناقش هذا الفصل قضية محورية تتعلق بحقيقة إسلام غازان، لما لهذا الأمر من منعكسات على الصراع المملوكي الإيلخاني.

وأتى الفصل الثامن على العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهد الناصر محمد بن قلاوون ما بعد عهد غازان (703هـ – 741هـ / 1303م – 1340م)، إذ تسلم الحكم أخوه أولجايتو خدابندا، وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات المملوكية الإيلخانية اتصفت بالعلاقات السلمية، تخللها بعض التوترات بين الطرفين، فحاول أولجايتو استغلال ذلك بغزو بلاد الشام، لكن هذه المحاولة لم تنجح.

ثم كان عهد الإيلخان أبي سعيد، واتصف بالتقارب المملوكي الإيلخاني، وعقد الطرفان اتفاقيات سلام وصداقة، وتبادلوا الهدايا، وناقش الفصل مكاسب كل طرف من هذا التقارب، واستمر هذا التقارب في عهد خلفاء الناصر محمد.

وقد حاول الطالب جاداً أن يغطي كل تفاصيل هذه الأطروحة، متنقلاً بين مدن عديدة، إذ كُتبت هذه الأطروحة بين دمشق وبيروت والقاهرة وطهران ويزد. وهنا لا بد من توجيه الشكر إلى القائمين على المكتبات الوطنية في هذه المدن لما قدموه من مساعدات كبيرة أسهمت في إنجاز هذا البحث.

ولا بد أن أقدم كل شكري وامتناني لأستاذي المشرف الدكتور عمار النهار، الذي فرض أن تكون العلاقة بيننا علاقة إخوة، والذي تعب كثيراً بقراءة هذه الأطروحة، ولم يشكو أو يتذمر من تواضع لغتي العربية، فكرر قراءة الفصول مرات ومرات.

وأشكر أيضاً الدكتور أحمد عبد الفتاح أستاذ اللغة العربية في بيروت الذي أقدم على مساعدتي في تدقيق هذه الأطروحة لغوياً وصياغياً، وكان جهده في ذلك أساسياً وكبيراً.

وأتوجه بشكري الكبير لأستاذي الدكتور سهيل زكار، الذي كان حريصاً على متابعة أخباري العلمية، ومدى تقدمي بالبحث، ولم يبخل علي بالتحفيز والتشجيع.

وأخيراً، فإن الطالب بذل كل ما يملك من جهد لإنجاز هذا البحث، غايته من ذلك إرضاء المولى، وتقديم بحث يخدم تاريخ المسلمين، ولابد في كل بحث من سهو وأخطاء وهفوات، وهذا ما ستتفضل لجنة الحكم بتبيينه لي، فكل الشكر لجهودهم الكبيرة في قراءة هذه الأطروحة، وستكون ملاحظاتهم محل اهتمام كبير، وستقوِّم عوج عملي.

وما العلم إلا من عند الله

_ التعريف بأهم مصادر الأطروحة ومراجعها:

اعتمدت هذه الأطروحة على مصادر ومراجع كثيرة، وسيتم التعريف هنا بأهمها وبأكثرها تأثيراً.

– **(تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) لابن حبيب الحسن بن عمر** (ت 779هـ / 1377م).

عاصر ابن حبيب أولاد الناصر محمد وأحفاده، وساق الأخبار بطريقة اليوميات، فحاول ذكر كل شيء إنما من غير تفاصيل كثيرة، وعابه الصبغة الأدبية التي فيها تصنع.

– **(تاريخ ابن سباط، صدق الأخبار) لابن سباط، حمزة بن أحمد الغزي (ت 930هـ / 1523م).**

أرَّخ هذا الكتاب للمدة بين العامين 526هـ – 926هـ / 1131 – 1519م، وفيه نقص كبير، إنما فيه اعتماد على مصادر سبقته هامة أفادت مدة بحث الأطروحة.

– **(تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور) لمحي الدين ابن عبد الظاهر (ت 692هـ / 1293م).**

من أهم المصادر التي تتحدث عن عهدي المنصور قلاوون والأشرف خليل، وكان ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء لدى السلطان المنصور قلاوون، وكان ينقل الأحداث بدقة، مع أخذ الحيطة من مجاملاته لسيده السلطان.

– **(تاريخ ابن العبري، أو تاريخ الزمان) لابن العبري غريغوريوس بن هارون الملطي (ت 685 هـ / 1286م)** .

مؤرخ سرياني، شهادته على الأحداث _ رغم أنها كانت مختصرة _ أعطت البحث رأياً آخر يقابل ما روته المصادر العربية.

– **(تاريخ الدول والملوك، أو تاريخ ابن الفرات) لابن الفرات محمد بن عبد الرحيم (ت 807 هـ / 1405م).**

حوى كتابه هذا مادة علمية مفصلة عن تاريخ السلطانين المنصور قلاوون والأشرف خليل، وتضمن مادة علمية قيمة عن الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد الشام، خاصة عن الغزو المغولي وتصفية الوجود الصليبي، ومن ذلك أنه ضم نصوص المعاهدات التي أمضاها المماليك مع خصومهم، وهذا أعطاه أهمية استثنائية.

– **(تاريخ أبي الفداء، أو المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء إسماعيل بن علي الملك المؤيد (ت 732هـ / 1331م).**

عاصر أبو الفداء الأحداث المتعلقة بهذه الأطروحة، بل شارك في عدد من المعارك ضد مغول فارس أيام المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد، فشاهد وكتب، فروى أموراً ربما لا توجد في كتب أخرى، وهو من حكام حماه، إذ لما قام المماليك بتصفية الممالك الأيوبية استثنوا مملكة حماه التي عاشت مدة طويلة.

– **(الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور)، لابن علي شافع الكاتب.**

أهمية هذا الكتاب من أهمية مؤلفه الذي عمل كاتباً للمنصور قلاوون، كما اشترك في المعارك وخاصة معركة حمص مع المغول سنة 680هـ / 1281م، فذكر لنا مشاهداته عن ذلك.

– **(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي أحمد بن علي (ت 821هـ /1418م).**

كتاب موسوعي شهير، ضمَّ معلومات أهميتها من أهمية مؤلفه الذي كان رئيساً لديوان الإنشاء، وخاصة المعلومات الإدارية المتعلقة بالنيابات وحدود الدولة ومناطق الثغور، والاتفاقيات والهدن المبرمة، والتعريفات الدقيقة لمصطلحات عصر المماليك.

يعد هذا الكتاب من المصادر الرئيسية التي لا يمكن لأي باحث في الحضارة العربية الإسلامية الاستغناء عنه لكثرة ما فيه من المادة العلمية والجغرافية والإدارية والتاريخية.

– **(السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي أحمد بن علي (ت 845 هـ / 1441م).**

وهو كتاب تفصيلي يروي الأحداث بتشعباتها الكثيرة، فكان المقريزي يتتبع الأخبار هنا وهناك، فروى لنا كل شاردة وواردة عن أحداث المعارك، وتميز بالنقد للأخبار والتعليق عليها .

وقد خصص المقريزي هذا الكتاب للتأريخ للعصر المملوكي مع مقدمة عن أخبار الأيوبيين، فصار مصدراً رائداً عن عصر دولة المماليك.

– **(مختار الأخبار) و(التحفة الملوكية في الدولة التركية) للمنصوري، الأمير بيبرس المنصور الدوادار (ت 725 هـ / 1324م) .**

تحدث الكتابان عن الأحداث في عهود السلطان المنصور قلاوون وولديه الأشرف خليل والناصر محمد (مختار الأخبار حتى سنة 702هـ / 1303م، والتحفة الملوكية حتى سنة 711هـ / 1311م)، وتكمن أهميتهما في تسلم المؤرخ المنصوري وظائف مهمة في عهد السلاطين الثلاثة المتقدم ذكرهم، بل شارك مع المنصور قلاوون والأشرف خليل في عدد من المعارك، فتمكن من الاطلاع على كثير من الوثائق السياسية المتبادلة بين الدولتين المملوكية والإيلخانية. عاب الكتابين الاختصار في ذكر الأحداث.

وللمنصوري كتاب مهم آخر هو: **(زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)** وجاء في أحد عشر جزء، لم يصل منها سوى الرابع والخامس والسادس والتاسع، وكان المعتمد على الجزء التاسع الذي يغطي المدة

من سنة 650هـ / 1252م حتى سنة 709هـ / 1309م، ويؤرخ فيه أيضاً لعهود السلاطين: قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد، فضم معلومات موثقة عن معارك دولة المماليك من مؤرخ معاصر ويمتهن العمل العسكري.

– (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1332م) .

كتاب موسوعي وثائقي ضم تفاصيل مهمة عن سلاطين عاصرهم، إذ عاصر النويري عهود قلاوون وولديه الأشرف خليل والناصر محمد، وذكر لنا نصوص معاهدات كما وردت في دواوين الإنشاء، وجلها له أهمية خاصة بموضوع الأطروحة.

وقد تحدث النويري عن الإيلخانيين منذ عهد غازان إلى نهاية عهد أبي سعيد، وكان شاهد عيان على كثير من الأحداث ضمن هذه المدة.

– (ذيل مرآة الزمان) لليونيني قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت 726 هـ / 1325م).

هو ذيل على كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لسبط ابن الجوزي، وهذا الكتاب هو من أهم المصادر التي تغطي مدة قيام دولة المماليك حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون ولاسيما حول أحوال بلاد الشام بشكل عام، لذلك وجد الطالب فيه معلومات لا غنى عنها أفادت موضوع البحث في كثير من المواضع إفادة دقيقة، وذلك من أخبار الحوليات وتراجم الوفيات.

_ (تاريخ الملك الظاهر) لابن شداد محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت 684هـ / 1285م).

المعاصر لقيام دولة المماليك، عاش في مدينة حلب حتى كان الغزو المغولي، فهرب منها وتوجه إلى مصر والتحق بخدمة السلطان الظاهر بيبرس، وصار مؤرخاً لحياة الظاهر بيبرس وعصره، لذلك أرَّخ لأعمال بيبرس العظيمة وانتصاراته الكبيرة على الصليبيين والمغول.

_ (تاريخ ابن سمباط) لابن سمباط حمزة بن أحمد بن عمر (ت 674هـ/ 1276م).

أهمية هذا الكتاب الكبيرة تتمثل في وجهة النظر الرسمية لمملكة أرمينية الصغرى، إذ إن ابن سمباط كان سفيراً للأرمن وقائداً لجيوشهم، وهو أخ الملك هيثوم الأول، عمل في خدمته وخدمة ابنه الملك ليون الثاني. توقف في تاريخه هذا عند أحداث سنة 672هـ/1274م.

_ (أعمال القبارصة) للفارس الداوي الصوري جيرارد أوف مونتريل.

شهد معركة تحرير المماليك لعكا سنة 690هـ/1291م، ومصداقيته تتجلى بتوافقه مع كثير من روايات المصادر العربية. كما أجاد اللغة العربية، إذ ترجم رسالة الأشرف خليل إلى وليم بيجو الصليبي سنة 688هـ / 1289م.

ـ (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) و(تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) للقاضي محيي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (ت 692هـ/1292م).

ابن عبد الظاهر هو من أهم رجال الإدارة في عصر المماليك، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء لثلاثة سلاطين، هم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل.

الكتابان بناء على ذلك كتبهما شاهد عيان، وتضمنا تفاصيل غاية بالأهمية والدقة عن الحروب المملوكية الصليبية المغولية، والمعاهدات بين هذه الأطراف، ووثائق غاية بالأهمية، وكل ذلك بقلم مؤرخ عُرف بمهارته بالتأريخ والأدب.

ـ (جامع التواريخ) للهمذاني رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت 718هـ/ 1318م).

يعد من خلال كتابه جامع التواريخ أهم مؤرخي الفرس للدولة الإيلخانية.

فهو المؤرخ الطبيب، إذ عمل كطبيب في بلاط أبغا خان وترقى في المناصب حتى أصبح وزيراً في عهد السلطان غازان، واستمر في مهنته هذه في عهد أولجايتو وأبي سعيد، وفي عهد هذا الأخير كثرت الدسائس ضده فقتله أبو سعيد.

هذه المكانة مكنته من الاطلاع على تفاصيل حياة إيلخانات فارس ومعاركهم، وخاصة مع دولة المماليك، فشكل ذلك مادة علمية غاية بالأهمية، أفاد البحث منها كثيراً.

– (تاريخ الحروب الصليبية) لستيفن رنسيمان.

قدَّم هذا الكتاب وجهة نظر المؤرخين الغربيين، وأظهر موقف الصليبيين من المسلمين، ونقد بإنصاف كثيراً من تصرفات الصليبيين، وفيما يخص البحث كانت رؤيته ممتازة عن التحالف المغولي الصليبي ضد دولة المماليك.

– (الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية) لسهيل زكار.

عمل رائد لتأصيل مصادر التأريخ للحروب الصليبية ومن خلالها الحروب المغولية، سواء وجهة النظر العربية الإسلامية أو الغربية.

– (دولة بني قلاوون في مصر) **لمحمد جمال الدين سرور .**

من أهم المراجع التي تحدثت عن العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية بين دولة المماليك وأوروبة والصليبيين والمغول.

الفصل الأول
قيام دولة مغول فارس
(الإيلخانات)

عوامل كثيرة مهَّدت لقيام دولة مغول فارس، وهي عوامل زمنية طويلة وتفصيلية، بدأت منذ توجه المغول لغزو المناطق التي تقع في الغرب بالنسبة لهم، بالإضافة لظهور شخصية جنكيز خان، وكيف تقاسم أولاده النفوذ بعده، انتهاء بظهور هولاكو وغزوه للعالمين الإسلامي والعربي، وإسقاطه للخلافة الإسلامية في بغداد، وهذا ما سيفصِّل به هذا الفصل.

أولاً_ صفة المغول وغزوهم للعالمين الإسلامي والعربي:

حدث الغزو المغولي للعالمين الإسلامي والعربي على مرحلتين:

المرحلة الأولى: في عهد جنكيزخان مؤسس إمبراطورية المغول، والطامح للسيطرة على العالم، فسيطر على معظم أراضي الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر، وخوارزم، وأجزاء من خراسان وشرق إيران.

المرحلة الثانية: على يد هولاكو حفيد جنكيز خان، الذي استطاع السيطرة على إيران ثم العراق ثم بلاد الشام.

إذ كانت القبائل المغولية في ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتدة من سور الصين العظيم جنوباً إلى بحيرة بايكال شمالاً وفي الجنوب الشرقي لهضبة منغوليا حيث تقع صحراء جوبى التي ليست سوى سهل متسع مسطح أو مموج.

فتعد منغوليا الموطن الأصلي للمغول، وهي تمتد بين سيبيريا شمالاً والتيبت جنوباً ومنشوريا شرقاً وتركستان غرباً، يتكون القسم الشمالي الغربي منها من مرتفعات وجبال بينها هضاب ووديان، ويتكون القسم الجنوبي الشرقي (صحراء غوبي – شامو) من سهل متسع تغطيه الحصباء والصخور مع وجود بعض الأنهار والبحيرات، وتكاد تكون الجبال المحيطة بها والتي أشهرها جبال خنجان حاجزاً منيعاً بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضي الباردة في سيبيريا.

وأهم منطقتين قطنهما المغول آنذاك هما حوض بحيرة بالخاش ويوجد في وسطه جبال تيان شان وكوين لن، وهضبة التيبت وبحيرة آرال ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأتراك. وتعد هذه البلاد من الناحية الجغرافية من أقسى النواحي معيشة في كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية.

إذ تؤلف هضبة منغولية إقليم صحراوي واسع قليل المياه والزراعة، وهذا المناخ القاسي والطبيعة الصعبة والظروف القاسية أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر سعياً وراء الكلأ، لذلك عاش المغول حياة بداوة وتنقل واعتمدوا على الصيد والرعي[1].

إذن يتصف مناخ تلك المناطق بالسلبية صيفاً وشتاءً؛ ففي فصل الصيف قد تصل الحرارة إلى 60 درجة، وفي فصل الشتاء الذي يمتد على معظم أيام السنة قد تصل فيه الحرارة إلى 58 درجة تحت الصفر، كما تعد تلك المنطقة فقيرة بالنباتات، وغالباً ما كانت النباتات التي تنمو في صحراء غوبي تشكل مراعي للخيول والأغنام[2].

هذا المناخ جعلهم شجعاناً، وولَّد لديهم قدرة عالية على تحمل الجوع والبرد والحر، وفي ذلك يقول ابن الأثير: ((إن قيل إن التتر يُقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم ينهزمون فلا تصدقوا))[3].

وتقول رواية فارسية: ((عدم الثقافة والحضارة بكل ما للكلمة من معنى، وجهالة إلى حد عدم الرؤية بالعين، وعدم السماع بالأذن، وبداوة إلى حد التنفر من الأعمال التي تستلزم مجهوداً بدنياً،

---

[1]- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ط1، 2018م، ص17 وما بعد. الرمزي، محمد مراد: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار ومغول التتار، أورنبورغ، مطابع الكريمية والحسينية، ط2، ج1، 334 وما بعد. فهمي، عبد السلام عبد العزيز،: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص11-12. الخطيب، إبراهيم ياسين: تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، 1993، ص28.

[2]، Howorth .H.H:AHistory of the Mongols,From The 9th Century London 1880-1888.part 1. P.10-13، 16-17.

غروسيه، رينيه: جنكيز خان قاهر العالم، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار حسان، دمشق، 1982م، ص1-5. بدر، مصطفى: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1999م، ص73-75. العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص28. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص11.

[3] ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ج9، ص342. غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، ص3-4.

فحتى أنهم ما كانوا يقصون أصواف الأغنام بل يكتفون بجمع الصوف المتساقط على الأرض، وكانوا يقدرون قبل كل شيء، ويعتبرونها كل شيء.

الحصان السريع والقطيع المتزايد في عدد أفراده، والمرأة جميلة الوجه (ذات الوجنات الحمراء) وعدم الاهتمام بجمع الأموال الشخصية بل الأموال العامة، والتجرد التام من الإحساس الديني، أو التفكر بما بعد الموت، وعدم الفهم لكل ما يدعى بالجنة والنار، وعلى الرغم من كل تلك، فهؤلاء سكان التلال والسهول يتصفون بالشجاعة وعزة النفس، ويحاربون حتى الموت، موته أو موت خصمه وعدم الاستسلام)) [1].

وفرض عليهم هذا المناخ حياة البداوة، وإن اشتغل قليل منهم بالصيد والزراعة، وساد بينهم النظام القبلي، فكانت طاعتهم لسيدهم مطلقة، يقول القلقشندي: ((إنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم)) [2].

وأمَّا عن ديانتهم فكانوا يدينون بالبوذية والمسيحية، وفي أزمان متأخرة من تاريخهم دخلت بعض قبائلهم في الإسلام كالقبيلة الذهبية التي نرى زعيمها بركة خان يقف في وجه أخيه هولاكو مدافعاً عن الإسلام والخلافة الإسلامية التي قضى عليها ودمَّرها في بغداد .

لكن ديانتهم الأساسية كانت الشامانية Shamanisun، إذ يعبدون كل شيء عظيم يعجزون عن إدراكه مثل الشمس والقمر والبرق، والشامانية اصطلاح أطلق على مجموعة من الديانات البدائية التي استقطبت حول شخصية كاهن عُرف في سيبيريا[3].

يقول ابن الأثير: ((وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرِّمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه)) [1].

---

[1] زبردست. خونخوار: جنكيزخان، ص43.

[2] القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص316.

[3] Mirce Eliade: Shamanism, Archaic Techniques of Ecstasy, Translated. R. Trask, Londom, 1951.p30 ... .

شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: سهيل زكار، خالد عيسى، دارحسان، دمشق، ط1، 1982، ض21.

ويقول بعض العلماء أن الصوفية أدَّت دوراً حاسماً في تحويل مغول فارس إلى الإسلام، وذلك في المقام الأول على يد بعض المعتدلين الصوفية الذين كانوا مقربين من الدوائر الحاكمة المغولية.

ويشير آخرون أن هناك تشابهاً في بعض التقاليد بين الصوفية والشامانية، وأن ذلك هو الذي أسهم في تحول المغول إلى الإسلام[2].

وهنالك بحث يتحدث عن تحول مغول فارس (بشكل خاص الإيلخان أولجايتو) إلى الإسلام الشيعي، ويناقش ذلك بالتفصيل، ويناقش اعتقادات المغول المسيحية، وعلاقتهم كذلك الأمر بالتصوف[3].

ويشير بحث آخر أنه في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي _ قرن الانفتاح والتسامح الديني في الإمبراطورية المغولية _ تكونت ظروف فريدة شجعت المبشرين الفرنسيسكان والدومنيكان الأوروبيين للدخول في آسيا لتنصير تلك الأقاليم هناك.

ويركز هذا البحث على دور نساء المغول المسيحيات سواء الزوجات أو الأمهات في حكم خانات فارس، ويُظهر دورهن المؤثر في الأدوار السياسية ودورهن في تحويل أزواجهن أو أبنائهن إلى المسيحية[4].

---

[1]ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص329، 330.

[2]Reuven Amitai-Preiss; S;ufis and Shamans: Some Remarks on the Islamization of the Mongols in the Ilkhanate, BRILL, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 42, No. 1 (1999), pp. 27-46.

[3]Judith Pfeiffer; Conversion Versions: Sultan Öljeytü's Conversion to Shi'ism (709/1309) in Muslim Narrative, Mongolia Society, Mongolian Studies, Vol. 22 (1999), pp. 35-67.

[4]James D. Ryan; Christian Wives of Mongol Khans: Tartar Queens and Missionary Expectations in Asia, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great

Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 8, No. 3 (Nov., 1998), pp. 411-421.

ويبين بحث آخر يتحدث عن إيلخانات المغول انتشار كنائس المغول ومساجدهم في الأناضول، والخط الزمني لظهور ذلك، مع مقارنات مطولة عن الاعتقاد الديني عند المغول سواء المسيحي أو الإسلامي[1].

إذن؛ اشتُهر المغول عبر التاريخ بقسوتهم ووحشيتهم، وهذا المؤرخ ابن الأثير يصفهم بقوله: ((لو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتل بمثلها، لكان صادقاً ... ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ... وإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحد إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه ... وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج ... ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم))[2].

ويصف المستشرق توماس آرنولد همجية المغول قائلاً: ((لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغــول، فقد انسابت جيوش جنكيزخان[3] انسياب الثلوج على قمم الجبال واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية)) [4].

---

[1] Howard Crane; THE ILKHANID SUNGUR BEY OF NIĞDE: A NOTE ON THE MONGOLS IN ANATOLIA, Mongolia Society, The Mongolia Society Bulletin, Vol. 6, No. 2 (12) (Fall, 1967), pp. 64-70.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص329، 330.

[3] كان الصينيون يقولون: إن جنكيز كان يقود الجيش مثل الله. انظر لمب: جنكيزخان، ص204 .

[4] Arnold, sir, t. w; the preaching of Islam. 3 rd ed. Tra. By. Regnold Nicholson. (London, 1935) pp. 218- 219.

وتصف رواية فارسية المغول بالقول: ((من دون جدال كان التوحش سلوكاً، التوحش الذي يكون سبباً للهزة الوجدانية، مثل قلع العيون من محاجرها، وقطع الأعضاء التناسلية لأسرى الحرب، وجعلهم معلولين لأقصى درجة، وتشغيلهم كالعبيد والحيوانات، وعلى الرغم من كل هذا القيام بإعدامهم وسلخ جلودهم ليصنعوا منها جعب للسهام، وأغطية للسروج، وكان كل فارس يفتخر بعدد فراء الرؤوس التي يضعها في مربط الفرس أسرع وأكثر من رفيقه.

وأبسط شكل من أشكال التعذيب كان يتمثل بطبخ زعيم أسير على نار هادئة في قدر بالماء المغلي، وفي مجالس الطعام والضيافة كان الأمراء يشربون المخمر في أوعية من الجماجم البشرية)) [(1)].

وكانت جيوش المغول تسير وفق استراتيجيات تعتمد على تحريك الجيوش العظيمة لمسافات طويلة بدون مشاكل ظاهرة وإدارتها كلها في وقت واحد، وتقديم الخطة الحربية في بلاد غير معروفة وتنفيذها بذكاء ويقظة وعدم تردد وشك وعدم اهتزاز الخيال والتصور وأخذ كامل الحيطة والحذر، وكذلك فتح القلاع القوية والمحصنة.

وإرسال الجواسيس إلى كل الجهات، ويصطحبون معهم الأفراد الذين كان بإمكانهم تقديم المعلومات.

وكانوا يذهبون إلى بلد العدو من عدة جهات، فالمجموعات الحربية متفرقة عن بعضها، ولكن لكل مجموعة قائدها الذي يقودها إلى جهة معينة، وإذا أرادت أي مجموعة الهجوم على العدو فبالتنسيق مع الجيش المركزي للخان.

وكانت المجموعات العسكرية المنفصلة عن بعضها تتموضع أمام القلاع والمدن المحصنة بقوة، وتقوم باقي المجموعات بالهجوم والتخريب والنهب، وكانوا يجمعون ما استطاعوا الأعلاف والمواد التموينية، وإذا اعتقدوا بأن الحرب يمكن أن تطول مدتها كانوا يبنون معسكراً مناسباً للجيش.

لقد كان من النادر جداً أن يترك المغول مدينة محصنة من دون فتح وتجاوزها هكذا، وأغلب الأحيان كانوا يحاصرون القلعة بمجموعة أو مجموعتين عسكريتين، ويقومون بتشغيل الأسرى والمحبوسين، ويستعملون الآلات الخاصة بفتح القلاع، وأما باقي الجيش فيأخذ طريقه إلى الأمام للتقدم، وفي أثناء المواجهة مع العدو في ميدان المعركة كانوا يتبعون طريقين محددين، وإذا أمكن في يوم وليلة

[(1)] زبردست. خونخوار: جنكيزخان، ص18.

وبسرعة خاطفة يتقدمون ويفاجئون العدو، وتصطف مجموعة أو مجموعتان في ساعة محددة وفي نقطة محددة من الميدان.

وكانوا يعرفون خدعاً أخرى أيضاً مثل التظاهر بالفرار والهرب والهزيمة وبعد عدة أيام من الاستراحة وتفرق قوى العدو أو اعتقاد العدو بانتهاء الحرب وركونه إلى ذلك، كانوا يعودون وقد غيروا الأحصنة، فهذه المناورة الحربية كانت سبب هزيمة وانكسار الجيش الروسي على ساحل نهر دنيير، وفي معظم الأحيان في هذا التظاهر بالفرار والهرب كان جناحا الجيش ينتشر ويتوسع من دون أن يدرك العدو المطارد له بأنه أصبح محاصراً، وبعد الحصار للعدو إذا وجدوه يقاتل حتى الموت وبشراسة عالية يصدرون أمراً إلى قسم من الجيش للسماح للعدو بالهرب وكان يملؤون مكان الهاربين بسرعة خاطفة، فقد استخدموا هذا الأسلوب في معركة بخارى.

فقد كان الأتراك القدماء يعرفون هذه الخدع الحربية ويستعملونها ولا سيما قومية (هيونك نو) التي ترتبط عرقياً بالمغول، وكذلك سكان منطقة (خطا) اعتادوا على الاستفادة من نظام مجموعات الفرسان للهجوم، والصينيون الأصليون كذلك كانوا يعرفون قواعد وقوانين قيادة الجيوش وبالنسبة لجنكيز خان فقد تعلم كل هذه التجارب والخبرات والشيء الذي اختص به هو التصميم غير القابل للتراجع، والذكاء النادر في انتهاز الفرص، وتقديم التمارين القاسية والانضباط الحربي الحديدي لجنوده[1].

أما أهم قبائل وطوائف المغول فهي:

قبيلة قيات: وهي قبيلة جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية التي وُلد ونشأ فيها، هي من أكبر وأشهر قبائل المغول وأكثرها أصالة، ومقدمة على غيرها من القبائل، وإليها ترجع جذور جنكيز خان أي آباؤه وأجداده الذين كانوا زعمائها[2].

قبيلة النايمان: وهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي، واستأثروا بكل غرب منغوليا.

---

[1] لمب: جنكيزخان، ص204 وما بعد.

[2] الجويني، علاء الدين عطا ملك: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، تعليق وتصحيح: حبيب الله عباس، ايرج مهركي، تهران، 1385، ص26.

قبيلة أويرات: وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر أنون وبحيرة بايكال ويسكنون منطقة منابع الأنهار الثمانية، كانوا كثيري العدد ويتكلمون بلغة تختلف قليلاً عن لغة القبائل والطوائف المغولية الأخرى.

قبيلة المركيت: سكنوا المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بايكال، امتلكوا جيشاً قوياً، وعرف ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن ولهذا شن عليهم جنكيزخان حرباً شعواء استعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة، فلم يسلم من سيوف قواته منهم إلا القليل.

قبيلة الكرايت: شعب شبه بدوي ينتمي إلى أصول تركية، استوطنوا الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبى وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكانوا يدينون بالمسيحية.

التتار: وهم طائفة كبيرة من قبائل كثيرة، نالوا شهرة كبيرة مما جعل كثيراً من المؤرخين يطلقون اسم تتار على كافة المغول[1].

والتتار ثلاثة أقسام:

التتار البيض: وهم من المنطقة الجنوبية شمالي الحدود الصينية مباشرة.

والتتار السود: وأقاموا شمالي صحراء جوبى، ويمارسون حياة البداوة والتنقل.

والتتار المتوحشون أو ساكنوا الغابات: وأقاموا على الروافد العليا لنهري أونون وكيرولين، ومارسوا حياة الصيد، وكانوا شامانيين[2].

ومن هنا يتضح أن التتار قبيلة مستقلة عن المغول بينما صار اسم المغول يطلق على الشعوب التي خضعت لجنكيزخان بعد قهرها، ولم تلبث لفظة تتار أن تغلبت عليها لا سيما في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، ومن هنا كان لفظا المغول والتتار أسمين لقبيلتين تعيشان في الشطر الشرقي من

---

[1] الجويني، عطا ملك: تاريخ فاتح العالم في تاريخ جنكيز خان وأعقابه حتى كيوك خان، تر: محمد ألتونجي، دار الملاح ، ط1، 1985، م1، ص60. الرمزي: تلفيق الأخبار، ج1، ص345. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص12-16.

[2] شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص21. بارتولد، فاسيلي: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سليمان، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1980م، ص17 وما بعد.

آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين على أنهار أولدزا وكيرولين وأونون وسائر روافد نهر عامور [1].

وكان المغول يتغذون على اللبن المخمر، ويشاركون بالرياضات العنيفة والصعبة، كالتحارب بالعصا وقبضة اليد والتضارب والتمسك العنيف بأعضاء الآخر، ومن ثم يظهرون وكأن جلودهم تعرضت للدباغة.

وكانوا يقفزون على الأحصنة القصيرة الغزيرة الشعر ابتداءً من عمر الخمس سنوات، ويقفون عليها لساعات يسوقونها في كل الاتجاهات، وفي هذه الشروط ما كانوا يكتسبون طولاً كافياً، وسيقانهم كانت تأخذ شكلاً مقوساً والذي كان يدل على احتراف الفروسية، ومن هذا الزمان وإلى ما بعد كان الولد يلتحق بجماعة الرجال، ويتمرس على الحياة، ويتملك قوساً وسهماً من قياسه متوجهاً إلى اصطياد الحيوانات الوحشية السريعة، ومعتبراً الصيد عملاً مناسباً لعمره، وكانوا يحددون حصص الأولاد بالتقسيم، وإذا ما حصل ذلك، فيرمون الحصص ويتراكض الأولاد كالكلاب الجائعة، ويتقافزون ويتقاتلون، وكان الطعام اليومي يتكون من حبوب الأرزن (تشبه السمسم) المغلي والمسلوق وجذور النباتات والفواكه الصغيرة الحجم وبعض النباتات البرية التي كانوا يجمعونها، وبهذا الطعام كان يمضي عدة أيام، فكل جندي علاوة على الأسلحة كان يحمل إبريقاً مصنوعاً من الحديد، ووسادة مضادة للرطوبة، وبيجامة لعبور المستنقعات والجداول، وفي أوقات التفتيش كانوا يدققون بشدة على العدة الخاصة بالجنود، وكل جندي لا يحافظ على عدته العسكرية جيدا كان يتعرض للعقاب الشديد[2].

وكان الاصطفاف الحربي المغولي على الشكل الآتي: صفان من الخيالة، وكان الصف الأول يرتدي دروعاً ثقيلة، وثلاثة صفوف من رماة السهام الخيالة من دون دروع في الخلف، فقد كان رماة السهام يتقدمون من الوراء إلى الأمام من خلال الفواصل الموجودة بين كل خيالة وآخر، ويقومون بإمطار العدو

---

[1] العريني: المغول، ص33، 34 –شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص20، 21. الصلابي، علي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، 2009م، ص25.

[2] زبردست. خونخوار: جنكيزخان، ص47. ساندرز، ج.ج: تاريخ فتوحات مغول، ترجمة: أبو القاسم حالت، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1390، ص67.

بوابل من السهام، ثم يعودون إلى أماكنهم في الخلف، وأثناء ذلك يكون العدو قد فقد معنوياته، فيقوم الصف الأول بالهجوم على العدو وإخراجه من المعركة[1].

ثانياً _ جنكيزخان وإنهاء الخوارزميين:

((يتشكل محل ومكان سكن وولادة جنكيز خان من أراضي غير قابلة للزراعة، ومساحتها الجغرافية حوالي سبعة إلى ثمانية أشهر سيراً من الطريق، فمن الشرق لها حدود مع ولاية ختاي، ومن الغرب ولاية ايغور ومن الشمال قيرغيزيا وسلنكاي، ومن الجنوب تنكت والتيبت، كانوا قبل ظهور جنكيز يعيشون من دون قائد أو حاكم على شكل قبائل متفرقة من دون اتفاق أو اتحاد فيما بينها، بل متعادية ومتحاقدة، وينهبون أموال بعضهم، وكانوا يعدون الكلام القوي والقاسي والفسق والفجور من صفات الرجولة والاستقلالية)) [2].

لقد مهدت بعض الظروف لظهور جنكيز خان، إذ انقسمت الدولة العباسية قبيل الغزو المغولي إلى دويلات متنازعة متنافرة كان من بينها الدولة الخوارزمية في إيران، التي أسسها نوشتكين الذي كان عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة.

وقد بلغت هذه الدولة أقصى اتساع لها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، معاصر جنكيز خان، وإلى جانب دولة خوارزمشاه كانت تقوم في بغداد الدولة العباسية وكان الخليفة آنذاك هو الناصر لدين الله (575–622 هـ / 1179 – 1225م) .

أدرك الخليفة العباسي الناصر أن الخلافة العباسية أصبحت ضعيفة من الناحية السياسية إذ أصبحت منحصرة في العراق وخوزستان، وصارت عاجزة عن بسط سيطرتها على الأقاليم المجاورة، فلم يبقَ للخليفة إلا السلطة الدينية[3].

---

[1] ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص67، 68.

[2] زبردست. خونخوار: جنكيزخان، ص29.

[3] حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط14، 1996م، ج4، ص95. عودات، أحمد. بيضون، جميل. الناطور، شحادة: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، إربد، دار الكندي، 1990، ص13.

هذا المشهد السياسي كان دافعاً لظهور قوة ثالثة هي المغول، فشكل جنكيز خان أربعة جيوش، قاد ثلاثاً منها أبناؤه، وقاد هو الرابع، وقد بيَّن بعض المؤرخين تركيبة عسكر جنكيز خان في الحرب ضد خوارزم شاه، إذ كتب بأن جيش جنكيز يتألف من (700) وحدة، وكل وحدة تحتوي على ألف فارس، وفي مكان آخر تحدث عن (600) وحدة أو (800) وحدة.

فسيطرت الجيوش الثلاثة الأولى على مدينة أترار، وقتلوا كل من وجدوه بطريقهم وأسروا بقية السكان، ثم احتلوا جند وفعلوا بها الأفاعيل، وسيطروا على مدينة بناكت والوادي الأعلى على نهر جيحون، وتوجه الجيش الرابع الذي كان بقيادة جنكيزخان إلى بخارى حيث حاصرها فطلب أهلها التسليم فوافق، إلا أنه غدر بهم وقتل ونهب وأسر من بقي من الأطفال والنساء[1].

وقد سُئل أحد الفارين والهاربين من بخارى بسبب الحرب إلى خراسان عن حال بخارى فأجاب: ((جاؤوا واقتلعوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا وذهبوا)) [2].

وكانوا خلال ذلك طوائف لا تخضع لملك، وكانوا متنازعين متصارعين متحاربين، وبالرغم من أنه كان لكل قبيلة ملك أو أمير فإن أفراد هذه القبيلة كانوا لا يخضعون له ولا يأتمرون بأمره.

أمام هذه الحالة من الفوضى الاجتماعية والسياسية للقبائل المغولية ظهرت شخصية قوية وحَّدت شتاتهم وأخضعتهم، وهي شخصية جنكيز خان الذي وحَّد تحت إمرته قبائل المغول والتتار، وابتدأ سيطرته على شمال الصين فأخضع معظمها، ثم اتجه غرباً فدمَّر السلطنة الخوارزمية واحتلَّ ممالكها في بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس.

إذن جنكيز خان هو موحد القبائل المغولية المبعثرة ومؤسس الإمبراطورية المغولية، واسمه الحقيقي تيموجين، وُلد سنة 549هـ/1155م في منغوليا، في إقليم دولون بولدق الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون[1].

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4، 2003م، ج9، ص232. آزند، يعقوب: إيلخانان، تهران، انتشارات مولى است، 1392، ص25، 26.

[2] آزند: إيلخانان، ص6.

كان أبوه يسوكاي بهادر بن برتان بهادر رئيساً لقبيلة قيات من القبائل المغولية[2]، وكان جميع أعمامه وأبناء أعمامه مطيعين خاضعين له وهم الذين اختاروه رئيساً عليهم، عُرف بالشجاعة وكثيراً ما حارب أقوام التتار والخطا، وكان أجداد جنكيزخان والطوائف الخاضعين لهم يدفعون الخراج لأباطرة الصين الشمالية منذ زمن بعيد، أما أبوه يسوكاي بهادر فقد استطاع أن يُخضع القبائل المغولية التي كانت تجاوره، مما أقلق ألتان خان إمبراطور الصين، فسعى لإثارة العداء بين المغول والتتار في صراع حول السيادة، فاشترك يسوكاي بهادر في الحروب التي نشبت بين الطرفين بوصفه رئيساً لعشيرة بوريجين وأسرة قيات وقَتَل في إحدى المعارك سنة 549هـ/1155م أحد زعماء التتار ويدعى تيموجين، وعندما عاد إلى مضارب قبيلته وجد زوجته ألون فوجين وهي من قوم أولقونت قد ولدت له ولداً فسماه تيموجين تخليداً لهذا الانتصار وهو الذي عرف بجنكيز خان، وكان له ثلاثة أولاد من زوجته ألون غير تيموجين وهم: جوجي قسار وقاجيون وتمواتجكن. وتوفي يسوكاي مسموماً إثر مؤامرة دبَّرها له التتار سنة 563هـ/ 1167م[3].

وكان ولده البكر تيموجين في الثانية عشرة من عمره، فترك له أعباء كثيرة وثقيلة لا يقوى على حملها طفل وبخاصة أنه الوريث الشرعي لرئيس القبيلة، علاوة على رئاسة حلف مغولي كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين.

وعقب وفاة والده حل حلفاء والده الحلف الذي كان يرأسه واستغلت قبيلته صغر سنه ورفضت طاعته وأعلنت التمرد والعصيان، والتفت حول زعيم آخر، وظهرت أحقاد خصوم والده بسبب ما أحرزه

---

(1) الرمزي: تلفيق الأخبار، ج1، ص343 وما بعد. ستوف، فلاديمير: حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكررية، ترجمة سعد الغامدي، الرياض، جامعة الملك سعود، ط1، 1983م، ص26 وما بعد. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص29. الصلابي: دولة المغول والتتار، ص27.

(2) كانت طائفة يسوكاي المغولية في شمال صحراء غوبي حاكمة على سائر قبائل المغول، وذلك في عهد جد تيموجين قبل الخان وأبيه، فقد كانت أفضل المراعي حول بحيرة بايكال والسلسلة الجبلية المعروفة حالياً بخينكان على حدود منشورية الحالية تحت تصرف هذه الطائفة. انظر لمب، هارلد: جنكيزخان، مؤسست انتشارات أمير كبير، تهران، 1377، ص16.

(3) طقوش، محمد سهيل: تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، بيروت، ط1، 2007م، ص25 . الصياد، فؤاد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ج1، ص39-40-41. العريني: المغول، ص43-44.

من انتصارات، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجوت التي أنكرت على تيموجين الزعامة، وتعرض تيموجين وأمه وإخوته لهجوم من هذه القبيلة فاضطر وأسرته إلى أن ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبل كنتاي المقدس عندهم.

ارتفع شأن تيموجين بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي الذي تنشده سائر القبائل، ودخل بين الزعماء البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا، وواصل خطة والده في الزعامة والتوسع على حساب المناطق المجاورة متحالفاً مع زعيم قبيلة الكرايت الذي ساعده والده يسوكاي في توطيد مركزه، وانحاز إليه أربعة من أمراء المغول الذين كانوا يمثلون أقدم الأسرات الملكية، واستقر رأيهم على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول[1].

في سنة 602هـ/1206م، جمع تيموجين مجلس القوريلتاي[2] لتدارس وضع بلادهم الحربي، فمنحوه لقب جنكيزخان وملَّكوه عليهم وأطاعوه، وقرروا أن يكون حكمه خلفاً لأبيه وإرثاً لأولاده من بعده.

وباشر بالحروب الواسعة وانتصر على الأيغور سنة 605هـ/1209م، وكان يطمح لفتح الصين ويهدم سورها العظيم، وكانت الصين محط أنظار خوارزم شاه أيضاً الذي كتب لجنكيز خان بما يأتي:

_ أنا ملك الغرب وأنت ملك الشرق.

_ لنفتح باب السلم ولنقم علاقات تجارية ترضي الشعبين.

وبالفعل صيغت المعاهدة بين الطرفين.

لكن حدث ما عكَّر ذلك مباشرة؛ إذ أرسل المغول مجموعة تجارية تتألف من 450 رجلاً كلهم من المسلمين دخلت بلاد الخوارزميين، فما كان من ينال خان حاكم مدينة أترار (التي كانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها) ابن خال علاء الدين خوارزم شاه إلا أن قتلهم جميعاً بحجة أنه ظن أن غرضهم

---

[1] غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، ص71 وما بعد. الشنتناوي، أحمد. خورشيد، إبراهيم، زكي، يونس. عبد الحميد: دائرة المعارف الإسلامية، 1933م، م4، ص127. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص30. العريني: المغول، ص43، 44.

[2] مجلس كبار أمراء المغول ورجال الدولة. البقلي، محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1983م، ص278.

التجسس تمهيداً لهجوم مغولي على بلادهم، عندها ثار جنكيزخان، وأرسل سنة 615هـ/1218م ثلاثة رسل يطلب إعادة الأموال المصادرة وتسليم حاكم أترار، إلا أن الشاه قتل حاملي الرسالة، مما استوجب حدوث قتال بين الطرفين[1].

وضع جنكيزخان خطة محكمة للاستيلاء على هذا الإقليم وذلك بغزوه من أربع جهات، فقسم قواته إلى أربعة جيوش، قاد ثلاثاً منها أبناؤه وقاد هو الرابع، واستطاع الجيش الأول بقيادة جغتاي أن يسيطر على مدينة أترار، واحتل الجيش الثاني بقيادة جوجي مدينة جند، أما الجيش الثالث فسيطر على بناكت وخجند وكانتا من أهم المنافذ على نهر جيحون، ووصل الجيش الرابع الذي كان بقيادة جنكيزخان إلى بخارى وحاصروها وسيطروا عليها وعلى قلعتها سنة 617هـ/1220م، ثم سيطر على سمرقند أكبر مدن الدولة الخوارزمية في السنة نفسها، مما سهَّل السيطرة على بقية المناطق[2].

وبعد أخذ سمرقند عهد جنكيزخان إلى جيش تعداده 30000 جندي _ عُرفوا بالمغربة لأنهم ساروا نحو غرب خراسان _ بتتبع خوارزم شاه والقضاء عليه، فتنقل خوارزم شاه من مكان لآخر، ثم سار من مازندران إلى مرسى من بحيرة طبرستان يُعرف بالسكون وله هناك قلعة في البحر، فعبر هو وأصحابه إليها فوقف المغول على ساحل البحر، ويأسوا من اللحاق بخوارزم شاه، ولما استقر خوارزم شاه بهذه القلعة توفي فيها، فملك المغول المغربة مازندران، ثم الري وهمذان وأردبيل ومراغة وتبريز وأذربيجان وبلاد الكرج والطالقان ومرو ونيسابور وهراة[3]، ثم ساروا إلى حران واستولوا عليها، ونازلوا خوارزم ودافع عنها أهلها أشد دفاع ثم ملكوها، وكان لها سد في نهر جيحون فحطمه المغول وغرقت خوارزم

-[1] الخطيب: تاريخ المغول والمماليك، ص29. حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، دار الفكر العربي، مصر، 1949، ص71-72- 73.

-[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص339. الجويني: تاريخ فاتح العالم، م1، ص115. عودات وآخرون: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص24. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص112.

[3]كتب أحد الذين هربوا سنة 618هـ من مدينة همدان عن طريق أربيل إلى آسيا الصغرى بأنه قُتل وأُسر في مسقط رأسه مدينة ري ونواحيها (700000) شخص، ووصل عدد القتلى في هرات إلى (2400000) شخص. انظر آزند: إيلخانان، ص7.

بالماء، وعملوا في البلاد القتل والخراب والتدمير، ثم كان الاستيلاء على إقليم خوارزم وعاصمته جرجانة وكان ذلك سنة 618هـ/1221م[1].

وسار جلال الدين منكبرتي بعد موت أبيه إلى خوارزم _ وهو أكبر أبناء علاء الدين خوارزم شاه وكان قد فر إلى بلاد الهند _ ولكنه على أثر هجوم المغول على خوارزم تركها قاصداً مدينة نسا ثم غادرها إلى نيسابور ومنها إلى غزنة [2].

ولما فرغ المغول من خراسان جهزوا جيشاً كثيفاً إلى غزنة التي كان بها جلال الدين منكبرتي وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه وكانوا ستين ألف مقاتل، وانهزم المغول، فأرسل جنكيزخان عسكراً كثيراً مع بعض أولاده ووصلوا إلى كابل فانهزموا ثانية، فبعث هذا النصر روحاً جديدة في نفس جلال الدين فصمم على الصمود في وجه المغول، ولكن لسوء حظه حدث خلاف بين قائدين من كبار قواده على توزيع الغنائم، فرحل أحدهما بجيشه من الغوريين تاركاً جلال الدين في أحرج موقف، فضعف جلال الدين بما نقص من جيشه وترك البلاد وسار إلى الهند، فتبعه جنكيزخان حتى أدركه على نهر السند، فاضطر جلال الدين للقتال، ثم عبر النهر إلى جهة الهند، وعاد جنكيز واستولى على غزنة، وهرب جلال الدين إلى قرية كردية فقتله أحد الأكراد سنة 628هـ/1231م. وبذلك يكون المغول قد قضوا على الدولة الخوارزمية[3].

ثالثاً _ المغول في إيران:

[1]– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص341 وما بعد. أبو الفداء، إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، م2، ج6، ص24. الجويني: تاريخ فاتح العالم، م1، ص148–149. – ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1 ، 1981م ، ط2، 1982م، ج5، ص132–133. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص123 – عودات: تاريخ المغول والمماليك تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص25.

[2]حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، ص168. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص133.

[3]ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص362–363. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، م2، ج6، ص25. الخطيب: تاريخ المغول والمماليك، ص30.

ظلت إيران تخضع للحكم العسكري المؤقت منذ سيطرة المغول عليها بالقضاء على مملكة جلال الدين خوارزمشاه سنة 628هـ/1231م، وكانت سلطات الحكام العسكريين مطلقة وفردية، وقد اشتهر من هؤلاء تشورماجان وتلاه بيجو.

في عهد تشورماجان ذي الميول المسيحية جاء إليه سمعان السرياني فعهد إليه بالنظر بأمور المسيحية، فحماهم هذا من القتل الذي أصاب أكثر المسلمين .

وقد أقدم المغول في خراسان كعادتهم على تفريغ البلاد من سكانها. وهكذا دانت فارس نهائياً للمغول بعد أن أتم القائد المغولي تشنيمتور سنة 629هـ / 1231م تدمير ما تبقى من القوات الإسلامية في خراسان.

بعد فتح خوارزم أناب جوجي فاتح هذا البلد في حكم بلاد الخوارزمشاهيين الأصلية أحد قادة المغول، وتآمر هو حينما تملك أوكتاي ملك المغول على خراسان ومازندان، ومن هذا الوقت حتى خمسة وثلاثين عاماً كان وضع حكم إيران وإدارته تحت الاستيلاء المغولي[1].

وكان من جملة الإداريين الإيرانيين تحت الحكم المغولي: بهاء الدين محمد الجويني الذي أمره حاكم خراسان المغولي في حدود عام 630هـ / 1232م بإدارة أمورها المالية وجمع عائداتها، أو جعله باصطلاح ذلك العصر صاحب ديوان جميع البلاد المغولية، فتعهد هذا المنصب الجليل حتى سنة وفاته 651هـ / 1253م خاصة في أيام حكومة الأمير أرغون لإيران من عام 641هـ / 1243م حتى 654هـ / 1256م حين كان بهاء الدين يعيش في أوج القوة وحينما كان يعود أرغون الى قراقورم حيث بلاط خان المغول كان ينيب الجويني في الحكم ويكفله فيه.

وبذلك يكون جنكيزخان قد مهَّد طريق من جاء بعده من خانات المغول في هذه الأقاليم والنواحي.

وبعد وفاة جنكيز خان تعاقب على العرش المغولي خانات كان جل اهتمامهم التوسع في السلطان المغولي وإدخال ما أمكن إدخاله من الأقاليم والمناطق في ممتلكات هذه الإمبراطورية[1].

---

[1] انظر ابن تغرى بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 2010م، ج 6، ص277. عبد الحليم، رجب: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ص62.

رابعاً – خلفاء جنكيزخان:

كان لجنكيز خان أبناء كثيرون ذكور وإناث من زوجاته وسراريه، وكانت زوجته الكبرى يسون جين بيكي، وفي عادة المغول ينسبون الأبناء من أب واحد إلى أمهاتهم، فكانت المزايا لأبنائها لأنها الكبرى، وكان لها أربع أولاد أقوياء مروا على الكثير من عظائم الأمور والأخطار، وكانوا يشكلون كالقوائم الأربعة للعرش، وكان جنكيز خان قد عين كل واحد منهم لأمر خاص، فالابن الأكبر (توشي) لأعمال الصيد وكان يعده عملاً دقيقاً وعميقاً وجميلاً ومقبولاً بالنسبة له، والابن الأصغر (جفتاي) للسياسة، والابن الثالث (أوكتاي) للعقل والرأي وإدارة المملكة، والابن الرابع (تولي) لتنظيم وقيادة الجيوش وتجهيز الجنود[2].

ولكن الذي حدث بعد وفاة جنكيز خان هو أن قُسمت الإمبراطورية المغولية إلى أربعة أقسام بين أحفاده، اثنتان من هذه الدول جاورت الدولة الإسلامية أو ما تبقى من الدولة الإسلامية من ولايات ودويلات، وكان الجزء الغربي من إمبراطورية المغول من نصيب باتو بن جوجي الذي اعتنق الإسلام وحالفه المسلمون وسميت قبيلته بالقبيلة الذهبية أو خانات القفجاق ولم يعاد جوجي الدول الإسلامية المحاذية.

والدولة المجاورة الأخرى كانت من نصيب تولوي وعرف هذا الفرع باسم دولة الإيلخانات أو مغول فارس، والتي قادت حركات التوسع المغولية ضد الشرق مدمرين مخربين كل ما وقع تحت يدهم[3].

ويظهر أن ثلاثة أمور دفعت جنكيز خان إلى توزيع الإرث بين أولاده:

---

[1] إقبال، عباس: تاريخ المغول، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، ط1، 2000م، ص425. حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، ص44.

[2] الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص29، 30.

[3] بدر، مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على أيدي المغول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، القاهرة، ط2، 1999م، ص 92 – 94. بياني، شيرين: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، سازمان، مركز تحقيق، 1379، ص276.

_ السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية.

_ عودته إلى منغوليا لما أخبروه بثورة قامت ضده في شمال الصين والتبت.

_ شعوره بدنو أجله.

ففي سنة 621هـ/1224م طلب جنكيز خان اجتماعاً للقوريلتاي العائلي، والذي يتمثل بأولاده الأربعة، وتم توزيع الإرث بين أولاده على ما يأتي:

_ تولوي: كان الابن الأصغر وأباً لهولاكو، وتسلم أملاك أبيه الأساسية (القسم الشرقي من منغوليا).

_ أوكتاي: تسلم الحكم بعد أخيه تولوي .

_ جغتاي: حكم ما وراء النهر من منغوليا إلى نهر جيحون .

_ جوجي: كان خان القبائل الذهبية بسراي وبلاد الترك، وابنه بركة خان الذي ستأتي أخبار كثيرة عنه[(1)].

وكان جنكيزخان يخطط للقيام بهجوم جديد على الأقاليم الشرقية، ولكن وافاه الأجل في إقليم كان سو الصيني.

وبعد وفاة أوكتاي تولت أرملته توراكين الوصاية على العرش إذ لم يكن له ابن كبير يتولى العرش، إلى أن تسلم كيوك سنة 644هـ/1246م، لكنه لم يعش طويلاً، فانتقل العرش إلى كبير أبناء تولوي واسمه (مونكو قاآن) وامتد حكمه بين 649-658هـ/1251-1259م، وقد أرسل أخاه الصغير هولاكو حاكماً على الإسماعيلية الحشاشين والعراق وسورية، وأوكل إليه قيادة الحملات العسكرية إلى آسيا الغربية[(2)].

[(1)]الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قاآن إلى تيمورقاآن، تر: فؤاد عبد المعطي الصياد، تح: يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1983م، م1 ، ج2، ص16. ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص400. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص136.

[(2)] علي: تاريخ بلاد الشام العصر المملوكي، م6، ص69.

في السنة التالية لحكم منكو قآن 649هـ / 1251م، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجه عنايته نحو الغزو والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية المغولية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل، وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين نصب أخاه الأصغر هولاكو على رأس أحدهما وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإدارة إقليم فارس وإخضاع الخليفة العباسي، ونصب أخاه الأوسط قوبيلاي على رأس الحملة الأخرى المكلفة بفتح إقليم الصين الجنوبية وكوريا[1].

إذن صمم منكوقا أن يجمع جيشاً كبيراً ليرسله إلى إيران، فمن جهة يقضي على الإسماعيليين ومن جهة أخرى يقوم بإزاحة الخليفة في بغداد ويفتح الطريق لإخضاع بلاد الشام ومصر، ورشح منكوقا أخاه الأصغر هولاكو الذي لم يبلغ أكثر من 36 سنة بعد إجراء المشاورات مع كبار المغول لهذه المهمة، وأصدر أمراً بانطلاق (120000) رجل من نخبة الجنود المغول وجمعا من أبناء الملوك والأمراء الكبار من التتار إلى إيران، وأن يخضع المناطق من ضفاف نهر جيحون إلى أقصى مناطق مصر تحت سلطة المغول[2].

حرص منكوقان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً، فأرسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، فشيدوا الجسور على الأنهار العميقة وعلى مجاري المياه السريعة، ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها[3]. وهذا ما سيتم التفصيل به في الفقرة الآتية.

خامساً _ هولاكو وتوجهاته العسكرية وإسقاط الخلافة العباسية:

لم يكن البناء السياسي لإيران وكل أراضي الشرق الإسلامي واحداً ومتناسقاً أثناء حملات المغول، فقد كان السلطان محمد خوارزمشاه مستولياً على القسم الأعظم من الأراضي الإيرانية ومنشغلاً بتجديد الإمبراطورية العظيمة للسلاجقة على شاكلة الإمبراطورية الخوارزمشاهية.

---

[1] الغامدي، عبد الله: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، ص47.

[2] آشتياني، عباس: تاريخ إيران در عصر مغول، طهران، انتشار محور، 1387. ص107.

[3] العريني: المغول، ص92. الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص47.

وأما الخلافة العباسية فقد عاشت بما فيه الكفاية لتظهر عليها علامات الضعف والفتور، وأما الاسماعيليون النزاريون فكانوا متأخرين عن قافلة السلطة فقد كانوا متحصنين في قلاعهم، وكانوا أحياناً يوجهون الضربات إلى القادة الكبار للخوارزمشاهيين، وكان قد ظهر الفساد والفتور بينهم[1].

1_ التمهيدات الأولى:

بعد قضاء المغول على السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه صارت تحت سيطرتهم أهم أقاليم إيران، وكان السلطان علاء الدين محمد قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعاً، وهذا كان في صالح المغول بعد أن قضوا عليه إذ لم يجدوا مقاومة أو قوة تستطيع أن تقف أمامهم.

وضع منكوقاآن نصب عينيه إتمام تنفيذ وصية جنكيزخان التي نفذ أوكتاي جزءاً منها، ولذلك بدأ بإعداد الحملات إلى الصين وآسيا الغربية، فأعد حملتين:

الأولى بقيادة أخيه قوبيلاي ووجهتها إلى الصين أي الطرف الشرقي من بلاد الخطا.

والثانية بقيادة أخيه هولاكو، ووجهتها قلاع الإسماعيلية الحشاشين وما بعدها لضبط الجانب الغربي من البلاد، فيكون قد وجهه إلى البلاد الإسلامية والعربية التي لم يبلغها جده جنكيزخان[2].

وكان منكوقا آن يرى في أخيه هولاكو قدوة لإدارة العالم، وكان يستمد منه العزم، ويكتسب منه صفات القائد العالمي، وفي منطقة قوريلتاي الكبير، وبعد أن جلس على عرش السلطنة، وتمكن من التفرغ من المغرضين والحساد، بدأ يعمل على الاستيلاء على أقاصي الشرق والغرب، أرسل ابتداءً قوبلاي إلى شرق منطقة (ختاي)، وبعد شهور وفي سنة 650هـ/ 1252م رشح الأخ الآخر لهولاكو للسيطرة على الجانب الغربي[3].

وقد رسم منكوقآان الطريق الذي أراد من أخيه هولاكو أن يتبعه والأسس التي يجب عليه اتباعها قائلاً له: « إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران،

---

[1] آزند: إيلخانان، ص5.

[2] –شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص44.

[3] الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص50.

فلتقم ما كان لجنكيز خان من تقاليد وعادات وقوانين في كل الجهات الممتدة من نهر أموداريا (جيحون) حتى أطراف مصر، وكل من يعلن الخضوع والطاعة لأوامرك فليلق منك المعاملة الطيبة، ولتغمره بكل مظاهر العطف، وكل من يعصي أوامرك فلتشتد في إذلاله، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك يجب أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن ... وأما الولاية الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة ...»[1].

ومنذ تلك اللحظة شغل هولاكو مدة قيادته للمغول بالحروب الطويلة؛ إذ عُرف بحروبه المتعددة، فاستولى على عدد من الممالك، مثل بلاد خراسان وفارس وأذربيجان والعراق والشام والجزيرة وديار بكر وغيرها. واشتهر في قيادته لهذه الحروب بقتل الملوك وإذلالهم، إذ قتل مثلاً الخليفة المستعصم العباسي وأمراء العراق وصاحب الشام وصاحب ميافارقين.

وقد حرص مونكو على أن يوفر لهولاكو كل المستلزمات الضرورية في حملاته العسكرية؛ إذ أصلح له الطرق التي تجتاز تركستان وفارس، وأقام الجسور، ووفر العربات المناسبة لنقل أدوات الحصار من الصين، وجرى توفير المراعي لخيول العساكر، وتولى إحدى قيادات الجيش أخلص قادة هولاكو وأقربهم إلى نفسه وهو كتبغا النسطوري.

وبدأت سلسلة حروب هولاكو عندما انحدر من منغوليا مجتازاً البلاد والأنهار باتجاه فارس (إيران) وهدفه إقامة أسرة مغولية حاكمة وإنشاء حكومة مركزية فيها، وقد أدرك أن ذلك لن يتحقق ما لم يتخلص من الإسماعيلية والخلافة العباسية، أما طائفة الإسماعيلية فلأنها كانت تحول بين تحقيق أطماعه في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي[2].

---

[1] الهمذاني: جامع التواريخ، مج2، ج1، ص236، 237. إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م،ص421.

[2]موركان، ديويد: مغولها، ترجمة: عباس مخبر، تهران، نشر مركز، جاب أول، 1371، ص129. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة، سوريا، بحث: هولاكو.

خرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم في سنة 651 هــ / 1253 م، بعد أن قدم أمراء الأطراف كافة التسهيلات لتموين الجيش، فوصل سمرقند في شعبان سنة 653 هــ/ شباط 1255 م، ثم توجه إلى مراعي كان كَلِ، ثم رحل منها إلى مدينة كِش فأسرع أعيان خراسان لتقديم فروض الخضوع والطاعة، وكان على رأسهم الأمير أراغون حاكم إيران من قبل المغول[1] .

2_ القضاء على الإسماعيلية الحشاشين:

عندما كان الجيش المغولي يتوجه إلى بلد من البلاد كان يتبع خطة معينة، فهذه الطريقة الحربية رافقته في تقدمه حتى سنة 669هــ / 1270م عندما أوقفته جيوش المماليك في سهول بلاد الشام عندما كان قاصداً الهجوم على مصر[2].

وبعد القضاء على الدولة الخوارزمية لم يبق فاصل بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس أي غرب إيران، وكان عظيم الأهمية إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية، وكانوا أهل حرب وقتال ولهم حصون وقلاع، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية التي كانوا يتحصنون بها، وكانوا يتعاونون مرة مع التتار ومرة مع الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض.

وفي ذي الحجة سنة 653هــ/1256م أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق وإقامة جسر على نهر جيحون، حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى الشتاء هناك[3].

---

[1] الصاوي، محمد الصاوي: هولاكو الأمير السفاح، مكتبة النافذة، دار الكتب المصرية، الجيزة، ص156. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص116. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص 235.

[2] لمب: جنكيزخان، ص202.

[3] السرجاني، راغب: قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، بيروت، ص92. الصلابي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ص189.

عندما كان المغول يفكرون في إزالة الدولة العباسية أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم وقد تحول دون تحقيق أطماعهم في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي، لهذا أوصى منكوقاآن أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الجماعة قبل توجهه إلى بغداد.

يعد الحسن الصباح مؤسس هذه الفرقة وأكبر أمير بتاريخ الحشاشين، ولم يخلفه أحد من ولديه فعين أحد ولاته ويدعى كيا بزرك وانتقل الحكم منه إلى آخر، واستمر حكم هذه السلالة من أبناء كيا مدة 177 سنة بدءاً من سنة 477هـ/1084م أو 483 هـ/1090م وانتهى في غرة ذي القعدة سنة 654 هـ/1256م على يد هولاكو[1].

قام هولاكو بتوجيه رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران، ومما جاء فيها: « جئنا بناء على أمر الخان الأعظم، وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء على تلك الطائفة، فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم، أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإننا حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الإسماعيلية فسوف لن نقبل عذركم»[2].

كانت مراكز الإسماعيلية في إيران في منطقتين رئيسيتين هما الطالقان وقلعة ألموت، بالإضافة إلى عشرات القلاع، أقواها: ميمون دز ولبنة سر، بالإضافة إلى القلعة الأساسية وهي قلعة ألموت التي كانوا يتخذونها عاصمة وقاعدة لملكهم، يضاف إلى ذلك قلاع أخرى محكمة في قومس وقهستان.

سار كتبغا في طليعة جيش هولاكو إلى طهستان الجبال الواقعة بين هرات ونيسابور، واستطاع أن يستولي على كثير من القلاع الموجودة هناك، تبعه هولاكو سنة 654هـ/ 1256م وقضى على قلاعهم باستثناء قلعتي ميمون دز وألموت، فبعد محاصرة قلعة ميمون دز استسلم قائدها ركن الدين خورشاه[3]، إذ خرج خورشاه من حصنه في قلعة ميمون دز وقدم خضوعه لهولاكو الذي استغل خضوع ملك الإسماعيلية أبرع استغلال، فعامله معاملة كريمة حتى أطاعه وأوصى إليه هولاكو أن يدعو قلاع الإسماعيلية إلى

---

(1) الصياد : المغول في التاريخ ، ج1، ص235 . موركان: مغولها، ص129.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ط1، م1، ج2 ، ص240.

-(3) عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري ، ص31 . الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص237 –238 .

الاستسلام للمغول[1]، وسلمت له نتيجة دعوته تلك أكثر من خمسين قلعة، أما القلاع التي أبت الاستماع إلى نصيحة ملك الإسماعيلية مثل قلعتي كردكوه وألموت فقد دخلهما المغول عنوة بعد قتال مرير. وفي النهاية استسلمت كردكوه بعد عشرين يوماً، وثبتت لبنه سر عاماً بأكمله.

توجه هولاكو إلى قلعة ألموت معقل الإسماعيلية، في وضرب الحصار حول القلعة وشن هجوماً عاماً استمر ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع استجاب قائد القلعة لنداء هولاكو فاستسلم له، وعندئذ صعد المغول إليها فحطموا ما وجدوه وعملوا فيها الخراب والتدمير بعد أن استولوا على الكنوز والأموال، وأمر هولاكو بقتل جميع أفراد الطائفة بعد جمعهم مدعياً أنه يريد إحصائهم، فلم يفلت منه حتى الأطفال والنساء والشيوخ[2].

ودخل المغول المركز الأساسي للحسن بن الصباح فحطموا أسلحته ومنجنيقاته ونهبوا أمواله وخزائنه وخاصة المكتبة النفيسة جداً التي أسسها الإسماعيلية وطوى صوت شهرتها وأهميتها الأطراف، وأمر هولاكو بإحراقها، إذ كتب الجويني أنه بعد فتح قلعة ألموت سنة 654هـ / 1256م، حطم المغول ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال التي كانت لدى الإسماعيلية واستولوا على الكنوز والأموال المخفية التي كانت في مخازن خاصة ولا يعلم مكانها سوى قلة من المسؤولين الإسماعيلية،

---

(1) تذكر بعض المصادر الفارسية عكس ذلك، فعندما وصل ركن الدين إلى قراقورم قال منكوقا آن ((لقد كان المجيء به من مسافة بعيدة جداً ...))، ولم يسمح لركن الدين بالدخول إليه وأوصل إليه الخبر الآتي: ((فلأنك تدعي الزعامة فكيف لم تقم بفتح بعض القلاع والقرى؟ إذا فعليك العودة إلى أطراف الجبل ... لأجل فتح قلاعها ومن ثم إمكان شرف الدخول إلي)). فعلى هذا الأساس أعادوه، وعندما وصلوا به إلى الغرب من (تيعاب) استوقفوه وأذاقوه وبال ظلم آبائه وأجداده الذي ارتكبوه بحق العباد، وركلوه ومن تعلق به من أقربائه ركلاً شديداً، وأعملوا السيف فيهم حتى لا يبقى لهم نسل ولا أثر. انظر الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص138، 139.

(2) الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله: جامع التواريخ في غزو المغول تاريخ الإيلخانيون أبناء هولاكو، تر: محمد صادق نشأت، فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، 1960م، ج2، ص236–237. الذهبي، محمد بن أحمد: العبر في خبر من غبر، تح: صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، سلسلة التراث العربي، الكويت، 1966م، ج5، ص96. عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص31. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص242 –243 .

كما وقعت بأيديهم المكتبة النفيسة التي كانت تعد أقيم مكتبة في عصرها، بل كانت تعد التراث الإسماعيلي الوحيد المتبقي منهم، وجمعها الإسماعيليون طوال قرنين من الزمان، حتى اقترنت شهرتهم وبعد صيتهم بمكتبتهم تلك المحتوية على عقائدهم ونظمهم.

واستأذن المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني هولاكو خان في الاطلاع على المكتبة والنفائس الإسماعيلية الأخرى ليبقي منها الصالح ويحرق الباقي الذي يتعلق بعقيدتهم، وبذلك استطاع الجويني أن يُخرج كثيراً من المصاحف والكتب النفيسة وآلات رصد النجوم[1].

لم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في تلك المناطق بل طلب من ركن الدين خوارزمشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فاستجاب له وأرسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك للتسليم عندما تصل إليهم الرايات المغولية[2].

حقق هولاكو هدفه الأول في القضاء على الإسماعيلية وجعلها عبرة لغيرهم ممن يفكرون في المقاومة، ثم سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية.

3_ سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية 656هـ/1258م :

بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول وهو القضاء على الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية، وفي رمضان سنة 655هـ/1257م وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله (640 – 656هـ/1242–1258م) [1].

إذ لما فرغ الإيلخان هولاكو من محاربة الإسماعيلية قصد همذان وأرسل رسولاً يحمل رسالة إلى الخليفة العباسي مصاغة في قالب من الوعيد لامتناعه عن إرسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج في

-[1] الجويني: تاريخ فاتح العالم، ج2، ص262 وما بعد. منصور، محمد علاء الدين: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، دار الثقافة والنشر، القاهرة، 1925م، ص431. الغامدي: جهاد المماليك، ص54.

-[2] الجويني: تاريخ فاتح العالم، ج2، ص213 وما بعد. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص588، 589. الغامدي: جهاد المماليك، ص55.

الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد لأمراء البويهيين ثم سلاطين السلاجقة.

وكانت أول محاولة مغولية لدخول بغداد سنة 643هـ / 1245م في عهد الخليفة المستعصم، لكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها حتى عام 656هـ / 1258م إذ أمر الخليفة أن يتأهب عساكر بغداد للحرب خارج دار الخلافة على سبيل الحيطة، وأن يمنعوا العدو إذا ظهر، وأخذ المغول يهاجمون متعجلين بغداد ظناً منهن قلة عساكر الخليفة، فأنفذ الخليفة لمقابلتهم شرف الدين إقبال الشرابي أحد قادته، وفي السابع عشر من ربيع الآخر عام 643هـ / 1245م بلغ المغول أطراف بغداد فتصدى لهم جيش الخليفة بقيادة الشرابي والوزير مؤيد الدين العلقمي، فهرب المغول تحت جنح الظلام.

ولكن وبعد انتصار جيش هولاكو على الإسماعيلية، صارت الفرصة للانتصار على جيش الخليفة أكبر من ذي قبل إذ منيت جيوشه بانتصارات رفعت من عزيمتهم وهممهم.

كان الجيش المغولي الذي اتجه إلى بغداد بقيادة هولاكو خان ومعه نائبه القائد الصيني جوخان، وكان معه بالإضافة إلى الجيش الرئيسي من غير المسلمين من ضمن الجيش قوات مسلمة شاركت معه هجومه على بغداد وربما يعود ذلك لتمزق في الجبهة الإسلامية كما علله بعض الكتَّاب[1].

كانت الخلافة العباسية خلال حملة هولاكو قد ضعفت، وسيطر الفرس عليها ثم الأتراك، ووصلت إلى الخليفة المعتصم بالله آخر الخلفاء العباسيين الأخبار تباعاً باقتراب جيوش المغول ومع ذلك لم يتخذ الإجراءات اللازمة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم وكان يظن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام الخطر المغولي، ولم تكن زمام الأمور في بغداد في ذلك الوقت بيد واحدة بل كانت هناك سلطات مختلفة ومتعارضة كل منها يجور على السلطة، وكان سكان بغداد في خلاف دائم حول المسائل الدينية، وزاد الطين بلة أنه في آخر صيف سنة 654 هـ/1256م حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد وأصبحت نصف أراضي العراق خراباً [2].

وعندما عزم المغول على احتلال بغداد كان يُسمع من السلطان هولاكو كل ما يدل على الذكاء والاستعداد، وعلى الجانب الآخر كان العكس تماماً، فقد ظهر كل مظاهر الإهمال والضعف عند الخليفة،

-[1] الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص588، 589. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص255. موركان: مغولها، ص129.

[2]الصياد : المغول في التاريخ، ج1، ص249 – 255 . الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص588، 589.

ولم يكن يدرك الحقائق، ولعله كان يظن بأن الأبواب المحكمة والقوية والأسوار العالية لقصره يمكن أن تحفظه من هجوم المغول[1].

عندما صمم هولاكو على مهاجمة الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يمده بجيش يعاونه في القضاء على تلك الطائفة، فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش، فامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى تحقق للمسلمين أن هولاكو لم يأت إلى بلادهم كصديق فبعد أن احتل قلعة ألموت وأخضع الأمراء الصغار في الشمال الغربي من بلاد العجم وأمراء اللور والأكراد المستقلين في جبال زاغروس بدأ بالزحف رأساً إلى بغداد لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، فبعد القضاء على الطائفة الإسماعيلية أرسل هولاكو رسالة سنة 655هـ 1257 م إلى الخليفة العباسي لامتناعه عن إرسال المدد له لمحاربة الإسماعيلية وهي الذريعة التي اتخذها المغول لمهاجمة بغداد، وكان من ضمن طلبات هولاكو أن تكون له الهيمنة على بغداد، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد لأمراء البويهيين ثم لسلاطين السلاجقة، فرد الخليفة بالرفض على هذا التحذير الرسمي من المغول وعارض إمبراطوريتهم بالسيادة الروحية للخلافة الإسلامية[2].

وهذا مضمون رسالة هولاكو للخليفة العباسي: ((لابد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان، وقد نصحناك قبل هذا، والآن نقول لك تجنب الحقد والخصام والضغينة ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً، ومع هذا فقد مضى ما مضى فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقاتلتنا، وإذا كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير سليمان شاه والدوادار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة أو نقصان، فإذا أطعت أمرنا لا حقد ولا ضغينة ونبق لك ولايتك وجيشك ورعيتك، وإذا لم تنتصح وسلكت طريق

---

[1] بياني، شيرين: دين ودولة در إيران عهد مغول، مركز نشر دانشكاهي، جاب سوم 1389، ص323.

[2] شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص46. عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص 31. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص 254 – 256.

الخلاف والجدال فأعد جيشك وعيِّن جبهة للقتال فإننا مستعدون لمحاربتك، وإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله))[1].

رد الخليفة العباسي بالرفض على هذا التحذير الرسمي من المغول، وقال: ((أيها الشاب الحدث، الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي أغرته الأيام وساعدته الظروف فتخيل نفسه مسيطراً على العالم وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي ... إني لا أود الحقد أو الخصام ولا أن اشتري ضرر الناس وإيذائهم، فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، اسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر فإن لي ألوفاً مؤلَّفة من الفرسان والرجالة على أهبة الاستعداد)).

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو فاطلع على رسالة الخليفة، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، فغضب غضباً شديداً، وأعاد رسل الخليفة وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، قال فيه: ((لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وان في إذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، إذاً فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم))[2].

وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، ومنهم الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم منكو قأان فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ويحرص على أن يمنع هولاكو من الإقدام على غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث إخلالاً في نظام الكون فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، ومما قاله:

- لن ينبت النبات في الأرض.

- تموت الخيول كلها ويمرض الجنود.

---

[1] الهمذاني: جامع التواريخ، مج2، ج1، ص240. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص255 – 257.

[2] الهمذاني جامع التواريخ، ج2، ص256. حمادة ، محمد ماهر: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرساله، بيروت، ط2، ص347. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص259.

- تهب رياح شديدة ويعاني العالم من الزلازل.

- لن تطلع الشمس.

- لن تنزل المطر.

- يموت الخان الأعظم في هذا العام نفسه.

ولكن الأمراء أكدوا لهولاكو أن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، فاستدعى هولاكو خان نصير الدين الطوسي لاستشارته، وكان يكره الخليفة ويعمل على إسقاطه، فنقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، وأيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تُكذب نبوءة حسام الدين، وأخذ نصير الدين الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[1].

ومن جهته استشار الخليفة العباسي رجال دولته، فاستقر الرأي على تقديم الهدايا لهولاكو ليتقوا شره، إلا أن هولاكو طالب بحقوق السيادة على الخلافة ذاتها، فلم يُقبل طلبه فأصدر أوامره بمهاجمة بغداد، وتحركت جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق أربيل والموصل متجهة نحو بغداد لمحاصرتها من الجهة الغربية، وهولاكو وجيشه من الناحية الشرقية، واتجه كتبغا إلى الجناح الأيسر لبغداد عن طريق لورستان وخوزستان، كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كردستان الحالية، ولما انتهى حشد القوات المغولية أقام هولاكو معسكره في ظاهر بغداد من الشرق[2].

وقد أحكم الجيش المغولي حصار بغداد وسد جميع منافذها. وكانت بغداد تضم أربعة أبواب رئيسية في ذلك الوقت؛ هي باب السلطان ويسمى حالياً الباب المعظم، ثم باب خراسان الذي أطلق عليه مؤخراً بالباب الوسطاني، وباب الحلبة أو باب كلواذى، وهو الباب الشرقي للمدينة.

---

[1] الصياد:المغول في التاريخ، ج1، ص260. باراني، محمد رضا: باراني: نامه تاريخ بزوهان، شماركان، 2000، ص117.

[2]ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: البداية والنهاية ،تح: عبد الله التركي، دار عالم الكتاب، الرياض، ط1، 1997، و ط2، 2003 ، ج17، ص357. عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص 32 .

واتخذ هولاكو معسكره في الجهة الشرقية الممتدة بين باب السلطان وباب كلواذى بعد أن استسلمت له الكرخ والكاظمية، ورغم محاولات الجيش العباسي الذي جهزه الخليفة وأنفق عليه الأموال أن يحول دون استقرار المغول في أماكنهم وعدم تمكينهم من اتخاذ مواقع ثابتة إلا أنه هُزم من أول جولة وقُتل عدد كبير من جنوده نتيجة عدم انضباطهم العسكري وعدم خبرتهم في القتال، ولم يجد قائدهم مجاهد الدين إلا الهرب مع من نجا بنفسه ولاذ إلى بغداد حيث اختبأ خلف أسوارها، وكان الجيش المغولي ضخماً يقرب من مئتي ألف مقاتل من الفرسان وبين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين، وكانت خطة هولاكو العسكرية حصار بغداد بجيوشه من جميع النواحي وسد جميع المنافذ المؤدية إليها حتى تسقط بسهولة بيده دون جهد كبير لتصوره أن بها جيشاً كبيراً وقوى خفية لن تظهر حتى حصارها، وفي نفس الوقت كان يخشى أن يتعاطف الأمراء المسلمون مع خليفة المسلمين ويمدونه بقوات أو يشتركون في القتال[1].

قبل أن يبدأ هولاكو بالقتال أراد مراوغة الخليفة العباسي لكسب الوقت فأرسل إليه يقول: ((إذا كان الخليفة عازم على التسليم فليأت بنفسه إلينا، وإذا كان عازفاً على محاربتنا فليرسل الوزير سليمان شاه والدويدار الصغير قبل كل شيء ليصغوا لمطالبنا)).

ثم تبع ذلك إرسال هولاكو ثلاثة من قواده مع فرقهم على عجل وكلَّفهم بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب وبسرعة خاطفة، ونجح هولاكو في مناورته تلك، ذلك أن قوات الخليفة العباسي عندما علمت بالهجوم المغولي من الناحية الغربية تحركت من مواقعها وعبرت نهر دجلة لصدهم، فتركت هولاكو حراً طليقاً وسار حتى وصل شاطئ نهر حلوان، وبعد أن عسكر جيش هولاكو في خانقين بضعة أيام واصل سيره حتى أقام معسكره شرق بغداد في 18 يناير 1258م / 656هـ، وفي 3 يناير من السنة نفسها اشتد القصف المغولي وصارت منجنيقاتهم تقذف بصخور جيء بها من جبل حمرين القريب من بغداد، وتمكنت بعض الوحدات المغولية في اليوم الخامس من شهر فبراير من نفس السنة من اعتلاء الأسوار في جهة برج الفرس، وفي صباح اليوم السادس من فبراير (أي اليوم

---

[1] آزند: إيلخانان، ص12. بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص323. فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص119، 120. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص588، 589.

التالي) سيطرت القوات المغولية على السور الممتد من باب الحلبة إلى ما وراء البرج الفارسي، فأصبحت المدينة تحت رحمتهم[1].

ولما رأى الخليفة حرج موقفه قام بإرسال الهدايا لهولاكو لعله يثنيه عن عزمه على إتمام الفتح فلم يستجب هولاكو، لذلك وبناءً على إشارة من الوزير ابن العلقمي قام الخليفة بإرسال ابنه أبا بكر إلى المغول فلمس معاملة طيبة منهم فرجع إلى أبيه وأخبره بكل ما سمع ورأى، ففرح الخليفة بذلك ولم يشك في حسن نية هولاكو، فخرج من بغداد في يوم الأحد 4 صفر656هـ/ 10 شباط 1258م واصطحب معه 1200 شخص من عليَّة القوم، فلما وصلوا إلى معسكر الإيلخان أمر بوضعهم في مكان خاص وتقسيمهم جماعات، وقبض على الخليفة العباسي المستعصم، وطلب أن يكلف أتباعه والمقربين إليه بأن يخرجوا من بغداد حتى اكتمل عددهم في قبضة المغول، وقُتلوا على آخرهم، كما قتل الناس في بغداد وتمزقوا في الأقطار وخرَّب المغول الجوامع والمساجد والمشاهد وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوماً، وأمر هولاكو بإحصاء القتلى[2] فبلغت نحو الألفي قتيل [3].

ثم أصدر هولاكو أمراً ببناء جدار حول بغداد، وحفروا خندقاً كبيراً من داخل الجدار جانب المدينة، وثبَّتوا المجانيق[4].

وبعد أن احتل المغول دار الخلافة وأسروا الخليفة أجبروه أن يبيح لهم بمواضع الذخيرة والدفائن السرية، ومن ثم أعدموه وذلك بخنقه بين الزرابي لأن المغول كان لديهم خوف موروث مصدره خرافي من إراقة الدماء الملكية.

---

[1]. Glubb.j; the lost centuries ,1145-1453,London,p252 .

[2] في رواية فارسية بلغ عدد القتلى 80000 قتيل. انظر آزند: إيلخانان، ص12.

-[3] ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط2، 1890، ص271. المقريزي، أحمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ط2، 1957م، ج1 ، ق2 ، ص 422، 423. ابن خلدون: العبر، ج5، ص 613. الصياد: المغول في التاريخ، ج1، ص260 – 264 .

[4] – الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص142. فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص80.

وفي رواية فارسية: جاؤوا بالخليفة، ووضعوا طبقاً من الذهب أمامه، وقالوا له: كل، فأجاب الخليفة: لا يؤكل، فقالوا له: إذاً فلم احتفظت به ولم تصرفه على الجنود؟ وهذه البوابات الحديدية لماذا لم تصنع بدلاً منها السهام؟ ولماذا ما جئت إلى شط نهر جيحون حتى تمنعنا من الوصول إليك؟ فأجاب الخليفة: كان من قضاء الله وقدره، فقال هولاكو: وهل الذي يمكن أن يحصل بحقك من تقرير الله أيضاً؟[1].

وفي رواية أخرى، تحكي لنا أشهر القصص حول سقوط بغداد بأنه كيف تم سجن الخليفة في برج مملوء بالذهب والفضة حتى يموت من الجوع وسط ثروته الطائلة.

فهذه القصة وردت في كتب المؤرخين الأرمن، والمؤرخ الجورجي (أكنر)، وهايتون الراهب، وكذلك في كتابات الغربيين مثل (جوئن ويه) و(ماركوبولو) و(لونج فلو)، ولكن لا يمكن أن نجدها في آثار وكتابات قبل سنة 700هـ / 1300م، ومن دون شك فالمصدر جاء من شرح استنبطه الخواجة نصير الدين الطوسي من محاورات جرت بين هولاكو والمستعصم[2].

وبسقوط بغداد سقطت الخلافة، وباستئصال الخلافة العباسية أصبح زعامة المسلمين شاغرة يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين[3].

سادساً _ تأسيس دولة مغول فارس (الدولة الإيلخانية):

وقعت حملات المغول على مرحلتين، فكانت المرحلة الأولى من سنة 616 إلى 650هـ / 1219م – 1252م وكانت المرحلة الثانية من سنة 650 هـ / 1252م إلى ما بعد، وهذه المرحلة هي التي أدت إلى ظهور الدولة الإيلخانية[1].

---

(1) الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص144.

(2) زبردست، سياستمداري. خونخوار، لشكركشي: جنكيزخان، ترجمة: علي إقبالي، استاد دانشكاه تهران، جاب أول، 1369، ص305. وبشأن هذه القصة يمكن مراجعة مجلة (المطالعات الشامية)، وبحث تحت عنوان (موت آخر خليفة عباسي)، العدد 6، سنة 1961. وانظر بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص341 وما بعد.

(3) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص271. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص47 . رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1968م، ج3، ص523 . عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص33.

بإسقاط هولاكو لبغداد أسس دولة مغول فارس، وجعل عاصمتها مدينة مراغة في أذربيجان، وعُرفت بالدولة الإيلخانية، وتعني (إيل) بالمغولية: الخاضع أو المطيع، فمعناها المطيع أو الخاضع للخاقان[2] أو الخان الأعظم، لأن هولاكو كان يحكم من قبل أخيه الخان الأعظم الذي كان يقيم في قراقورم، وقد انتقل هذا اللقب إلى خلفائه، وأكسب دولتهم اسم دولة الإيلخانيين في إيران[3].

وقد حدث خلاف بتوقيت قيام هذه الدولة، إذ يرى البعض أنها تأسست بعد ترك هولاكو لبغداد وتوجهه لمراغة وإعلانها عاصمة لهذه الدولة سنة 656 هـ / 1258م، بينما يرى آخرون أن هذه الدولة تأسست بعد عبور هولاكو نهر جيحون سنة 654 هـ / 1256م، ويشير آخرون إلى موضوع سك النقود وعلاقته بقيام هذه الدولة، إذ وُجدت نقود في الموصل عليها اسم هولاكو ضُربت سنوات: 657 هـ / 1259م، 658هـ / 1260م، 659 هـ / 1261م، 660 هـ / 1262م[4].

وكانت مناطق دولة الإيلخانيين تشتمل على مناطق إيرانية وحتى مناطق بين النهرين، وكانت تشبه إلى حد كبير الإمبراطورية الساسانية[5].

ووجدت هذه الدولة الناشئة نفسها محاطة من الشمال بمغول القبيلة الذهبية، ومن الجنوب الخلافة العباسية، ومن الشرق دولة جغتاي المغولية، ومن الغرب سلاجقة الروم، وعندما سيقترب هولاكو من بلاد الشام سيواجه قوة كبرى هي دولة المماليك.

---

[1] آزند: إيلخانان، ص6.

[2] هو لقب ملك المغول الأعظم، ومعناه رئيس الرؤساء. البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص267.

[3] انظر ولبر، دونالد: إيران ماضيها وحاضرها، تر: عبد المنعم حسنين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1985م، ص66. فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص80. شبارو، عصام: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة، ص50.

[4] انظر آزند: إيلخانان، ص17. براون، إدوارد: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، تر: إبراهيم الشواربي، القاهرة، 1954م، ص99 وما بعد. القزاز، محمد صالح: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، النجف، مطبعة القضاء، ص125، 161.

[5] انظر آزند: إيلخانان، ص17.

ويظهر أن هذا ما دفع هولاكو لأن يتصل بالغرب الأوربي _ كما أشار إلى ذلك المؤرخ الغربي جون أندرو _ عارضاً عليهم التعاون المشترك، ثم بادر البابا أوربان الرابع بإرسال رسالة إلى هولاكو يدعوه فيها لاعتناق المسيحية، وأن يساعدهم في الوصول إلى القدس.

ثم تتالت رسل البابوات مجيئاً إلى بلاطه عارضين عليه العروض المتقدمة نفسها، فوصلته رسل البابوات: ألكسندر الرابع، وأوربان الرابع مرة ثانية، وبونيفاس[1].

ثم أرسل هولاكو سنة 661 هـ / 1262م رسالة إلى ملك فرنسا لويس الثاني تتحدث عن القضايا نفسها[2].

وتذكر رواية فارسية رسالة كتبها المغول، ومما جاء فيها: ((نحن نعلم بتمام القدرة وكمال الإرادة بأنه يجب على كل المسيحيين في البلاد الإسلامية التحرر من الأسر والتخلص من دفع الضرائب الباهظة، وأن يعاملوا باحترام وتعظيم، وأن تعمر كنائسهم المهدومة وتدق أجراسهم)).

فكتب أحد المسلمين متألماً: ((لقد أجاز هولاكو خان لكل الفرق الدينية في كل بلاد الشام بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، ونصح المسلمين بعدم مخالفة ومعارضة تلك الفرق، وفي ذلك اليوم لم يلبس أحد لباس العيد، لأن النجباء وأوساط الناس لم يكونوا من المسيحيين))[3].

وتتساير رواية أخرى مع ذلك؛ إذ كانت دوقوز خاتون زوجة هولاكو مسيحية متعصبة جداً وكانت تعمل على تقوية المسيحية وتعظيم دورها، وكان هولاكو خان مسايراً لها، ومن أجل الاعتناء والارتقاء بهذه الطائفة بنى كنائس جديدة، وحتى أنه قام ببناء كنيسة وجرس بالقرب من باب المقر العسكري المتعلق

---

[1] Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, London, variorum reprints, p.p 554 – 556..

[2] Morgan, David; Medieval Persia 1040 – 1797, New York, long man group uk limited, first published, p60 ..

[3] لمب: جنكيزخان، ص217. باراني: نامه تاريخ بزوهان، ص117، 118.

بـــ (دوقوز خاتون) وكان عدد من رجالات المسيحية يعيشون بالقرب من هولاكو ويشاركون في رسم السياسات[1].

وتقول رواية أخرى: ((كان العمود الفقري لجيش المغول يتكون من المسيحيين في زمن حملات هولاكو على إيران والعراق، وكان قائد القوات وعدد كبير من الجنود المغول يعملون على جعل إيران مسيحية، ومن أجل تحقيق التقدم في الحروب انضم جنود مسيحيون آخرون إلى هولاكو من الجورجيين والقفقازيين والأرمنيين، فبنظر المسيحيين أرسل الله المغول من جانبه لأخذ الانتقام للمسيحيين من المسلمين)) [2].

وهذا كله يدل أن هولاكو أراد استغلال الدين في تحقيق أهدافه، على الرغم من مخالفة اعتقاده للدين المسيحي.

إذن؛ خلال مدة قصيرة حقق هولاكو إنجازات كبيرة، فقضى على الحشاشين، ودمر بغداد وأسقط الخلافة العباسية فيها، ووصل إلى بلاد الشام فسيطر على مدنها الواحدة تلو الأخرى، ثم تلقَّى رسالة فيها خبر بوفاة شقيقه مونكو الخان العظيم. هنا عاد هولاكو بسرعة تاركاً القيادة لكتبغا الذي اكتسب سمعة ممتازة في معركة بغداد. لكن الهزيمة الساحقة ستكون من نصيب المغول على يد المماليك[3].

---

[1] الجويني: تاريخ فاتح العالم، م2، ص237 . آزند: إيلخانان، ص64. أشتياني، عباس: تاريخ مغول، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1392، ص202.

[2] بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص378.

[3] SCHÜTZ, EDMOND; THE DECISIVE MOTIVES OF TATAR FAILURE IN THE ILKHANID—MAMLUK FIGHTS IN THE HOLY LAN, Akadémiai Kiadó, Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Vol. 45, No. 1 (1991), pp. 3-22.

الفصل الثاني
سيطرة المغول على بلاد الشام
ومعركة عين جالوت
وأثر ذلك في الصراع المملوكي الإيلخاني
على بلاد الشام

_ تمهيد _ أسباب توجه المغول إلى بلاد الشام:

أسباب عديدة أدت إلى توجه المغول إلى بلاد الشام، فيما يأتي أبرزها، مع العلم أن عدداً منها سيظهر خلال تفاصيل البحث.

_ طموح هولاكو بتأسيس إمبراطورية مغولية في الغرب (غرب دولة المغول).

_ بوصول هولاكو إلى بغداد وإسقاطها، وتأسيسه للدولة الإيلخانية، جعل أملاك هذه الدولة مجاورة لأراضي دولة المماليك، مما حتم الصراع بين الطرفين على بلاد الشام.

_ لأن مناطق الشام ومصر أكثر خصوبة وأوفر ثروة من بلاد المغول، يُضاف إلى ذلك حالات القحط والأوبئة المتكررة التي حدثت في بلاد فارس.

_ تشجيع الغربيين والصليبيين للإيلخانيين على غزو بلاد الشام، ليستعيدوا من خلالهم النفوذ في بلاد الشام، ولينتقموا من دولة المماليك التي ألحقت بالصليبيين هزائم متكررة، وأنهت وجودهم في بلاد الشام.

_ وقد أشارت بعض المراجع نقلاً عن مصادر أرمنية أن خطة السيطرة على بلاد الشام قد وُضعت بعد لقاء بين هولاكو وملك أرمينية هيثوم وأمير أنطاكية الصليبي بوهيمند السادس[1].

_ كانت بلاد الشام بالنسبة للمغول الطريق المؤدي إلى مصر ومنها إلى المغرب ثم الأندلس التي تعد البوابة الكبرى إلى أوروبة[2].

_ الحجة التي أعلنها هولاكو تكمن في الرسالة التي أرسلها إلى الصليبيين في غرب آسيا، وقال لهم فيها: ((لدينا أعداد كبيرة من المسيحيين بين عشائرنا، وقد جئنا بقواتنا وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ومن الضرائب التي فرضها عليهم المسلمون ... ونحن نصرِّح بأننا سنعيد بناء جميع الكنائس)) [3].

---

[1] انظر إقبال: تاريخ إيران، ص144.

[2] انظر شبارو: السلاطين في المشرق العربي، ص58.

[3] انظر إقبال: تاريخ إيران، ص144.

_ وفي رواية فارسية تظهر الأهداف الدينية، إذ تقول أن أهم أهداف المغول في التوجه إلى بلاد الشام هو إيصال الدعم إلى المسيحيين في الشام ومصر الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين، وقلع الإسلام دفعة واحدة من آسيا وأفريقيا. فغزو المغول للشام ومصر كان لإنجاز هذا الهدف، وهذا كيتوبوقا يحول المساجد إلى كنائس في عهد سيطرته على دمشق، ولولا شجاعة المماليك في معركة عين جالوت لكان المغول قد قضوا على آخر ملاذات المسلمين في فلسطين وشمال أفريقيا[1].

_ وتبرز الأسباب الاقتصادية أيضاً، فغزو بيبرس لأرمينية من أجل تحقيق هذا الهدف والذي كان بعد موت هولاكو مباشرة يظهر لنا منطقية اهتمام هولاكو بالمصالح والمنافع التجارية لهذه المنطقة.

ويمكن أن نفسر سعي هولاكو في تثبيت مواقع المغول في بلاد الأناضول والجزيرة وغزو الشام على هذا النحو كذلك، فقد كان لموقع الجزيرة التجاري والصناعي والزراعي أهمية بالغة الحساسية، فهو بمنزلة جسر يربط بين العراق والشام، فقد كانت الأهمية التجارية لبلاد الشام وموانئها ومدنها تتداول على ألسنة الخواص والعوام، فمدن حلب ودمشق وحمص والموانئ المهمة مثل السويدية وأنطاكية واللاذقية وطرطوس وطرابلس وعكا كانت تتمتع بشهرة واسعة[2].

ولم يكن تصميم أرغون على خلق دين جديد وتخريب وهدم الكعبة كما تذكر بعض المصادر وذلك بالسعي من وزيره سعد الدولة اليهودي، من أجل هذا الهدف فقط، بل كان من أهدافه اهتمامه وسعيه إلى الاستفادة المثلى من الموارد الاقتصادية، وتحجيم وتقليل الموارد الاقتصادية للمماليك في بلاد الحجاز أيضاً.

وتظهر الأهداف والغايات الاقتصادية والتجارية بشكل واضح في أعمال غازان، فمراسلاته مع المماليك كانت تركز على الجانب التجاري والاقتصادي، ففي إحداها نجد سلطان المماليك يطالبه بقراءة

---

[1] انظر آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص18. حلواني، رقية يوسفى: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1381، ص145.

[2]رضوي، سيد أبو الفضل: شهر- سياست واقتصاد در عهد ايلخانان، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1388، ص230.

الخطب باسمه وسك العملات، كذلك نجد أيضاً ذكر العلاقات التجارية وأهميتها ومطالبة غازان بالمحافظة عليها وعدم تأثرها بالخلافات السياسية[1].

_ هزم المماليك المغول في معركة عين جالوت من قبل السلطان قطز، وقد قيل عن هذه المعركة أنها أسقطت الأسطورة التي تقول أن المغول لا يُقهرون، ولكن واقع الأحداث فيما بعد يدل على أن هذه المعركة كانت سبباً رئيساً في إصرار المغول على السيطرة على بلاد الشام، فاستمروا في غزوها من غير يأس.

وقد أشار كثير من الباحثين أن كل الأعمال العسكرية المغولية بعد معركة عين جالوت كانت ردة فعل على هذه الهزيمة ومحاولة عكسها[2].

أولاً_ سيطرة المغول على بلاد الشام:

توجَّه المغول بعد السيطرة على بغداد إلى بلاد الشام، فأسقطوا مدنها الواحدة تلو الأخرى، كما سيظهر في التفاصيل الآتية.

1 – أوضاع الشام قبيل الغزو المغولي:

ما إن أتم هولاكو السيطرة على بغداد وتحطيم الخلافة العباسية حتى ذهب بصره صوب الغرب حيث بلاد الشام ومصر، وكان أول شيء أقدم عليه أنه كلَّف أحد قواده ويدعى (أرقيو نويان) بالسير إلى إربل، وكان يعيش بها آنذاك خليط من الناس مابين عرب وإيرانيين وكان العنصر الكردي هو السائد، وتمكن أرقيو من السيطرة على مدينة إربل وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام، وكانت بلاد الشام في ذلك الوقت في يد ثلاث سلطات متنازعة، سلطة الصليبيين، وسلطة الأرمن، وسلطة الحكام المسلمين ممثلين بالبيت الأيوبي الذين كانوا يحكمون ميافارقين وماردين وحصن كيفا والكرك ودمشق

---

[1] رضوي: شهر– سياست واقتصاد در عهد ايلخانان، ص244، 258.

[2] Charles J. Halperin; The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamluks and Ayn Jalut, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 2 (2000), pp. 229-245.

وحماة وحمص، وكانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة، فلم يقدِّروا خطورة الموقف، وداهمهم هولاكو وهم على خلافاتهم فاصطادهم الواحد تلو الآخر وقضى عليهم جميعاً.

أما مصر فكانت تحت سيطرة المماليك البحرية، وظهر أنهم كانوا مدركين لخطر المغول، لذلك تحركوا تحركات جدية[1].

2 – الحرب بين الأيوبيين والمغول:

كان الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق (640-659هـ / 1242 – 1260م)، أكثر الأمراء الأيوبيين قدرة، لكنه أعلن خضوعه لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، وهرع لإرسال بعثة متجددة إلى هولاكو، ولما كان هو نفسه أجبن من ذلك على الأرجح، فقد أرسل ولده العزيز محمَّداً، وأوعز إليه في الاعتذار لدى هولاكو بالحجة الواهية، وهي أنه مضطر إلى الانتباه للصليبيين الذين يهدِّدونه، ولا يستطيع من أجل ذلك أن يغادر إمارته.

بل طلب من ابنه أن ينقل إلى الخان المغولي على لسانه إمداده بنجدة تساعده في الاستيلاء على مصر وتخليصها من المماليك الذين انتزعوها من بيته.

لكن هولاكو رأى أن الوفد الذي أرسله الملك الناصر يوسف الأيوبي إليه لا يناسب مقامه، فأرسل إليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجيء إليه وتقديم الخضوع والتبعية دون قيد أو شرط[2].

وقال له فيها: ((إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض تأمن شره وتنل خيره، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى مصر، فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها))[3].

---

[1] المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان ،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة، ط1، 1987م، ص40 وما بعد. الصاوي: هولاكو الأمير السفاح، ص155. فهمي: تاريخ المغول، ص126.

[2] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص278. توراو، بيتر: الظاهر بيبرس، ترجمة محمد جديد، سورية، قدمس للتوزيع والنشر، ط2، 2002م، ص74.

[3] القلقشندي، أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1922، ج8، ص60.

أقلق هذا الرد السلطان الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق، وأيقن أنه هالك لا محالة، فأرسل أسرته وأمواله إلى مصر، وحاول في غمرة يأسه الوقوف في وجه المغول.

في شهر رمضان سنة 675هـ/1259م، توجه هولاكو مع حلفائه من أمراء جورجيا وأرمينيا من عاصمة ملكه مراغة في أذربيجان قاصداً بلاد الشام ومعه جيش يزيد عدده على مائة وخمسين ألف جندي، واستولى جيش مغولي آخر على مدينة ميافارقين عاصمة ديار بكر، وكانت تحت سيطرة الملك الكامل محمد الأيوبي[1].

3 – حصار ميافارقين وسقوطها بيد المغول:

كانت ميافارقين في تلك الأثناء بيد الملك الكامل الأيوبي، وكان من الواجب أن يتبين المرء بصورة مسبقة أن هولاكو ما كان ليكتفي بالغزو النهائي الحاسم لإيران والاستيلاء على بغداد وما جاورها، ولما كان الهجوم المغولي على الشام يمكن أن يتم على أفضل وجه عن طريق مدينتي ميافارقين وآمد، فقد فكَّر الكامل محمد أمير الأخيرة في إجراءات دفاعية تكون في وقتها المناسب. وقد كان رفض، على كونه تابعاً لهولاكو بصورة رسمية، أن يأتي لمساعدة هذا في حصار بغداد، وقد وضع مدنه في وضعية الدفاع، وكان يجتهد فوق ذلك في إنشاء تحالف مع السلطان الناصر يوسف، ملك دمشق وحلب، واستجاب الناصر لعرض التحالف ووعد الكامل بتدعيم حاميات مدنه بفصائل مساعدة، غير أن جنود الناصر كانوا يتمردون إذا ما أُمِروا بمواجهة المغول، فَرَقاً منهم، ويرفضون ببساطة أن يسيروا إلى الشمال، وكان الناصر نفسه يفتقر إلى قوة التصميم اللازمة لإضفاء القوة وتوكيد أمره.

وفي سبتمر سنة 657هـ/1259م، غزا هولاكو بلاد الشام الشام بجيش قوي، ولكي يتمكن من بوابة الإغارة على الشام، أرسل منذ خريف عام (1258م) ولده يوشموت بجيش إزاء ميافارقين الحصينة وحاصر ميافارقين، ثم تحرك صوب سوريا، وقاد كتبغا طلائع المغول وقاد بايجو وسنقر الجناح الأيمن، أما الجناح الأيسر فكان يقوده سونجاق، والقلب تحت قيادة هولاكو، وبدأ الغزو المغولي بالإغارة على ميافارقين بديار بكر.

---

[1] العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص131. الشاعر، محمد فتحي: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، القاهرة، ص38.

وأرسل المغول وفداً سياسياً لحاكم ميافارقين لدعوته إلى الدخول في تبعية المغول، غير أن حاكم ميافارقين رفض طلب المغول وفضَّل مقاومتهم حتى الموت، وإزاء موقف هذا الحاكم الشجاع اضطر المغول ومن حالفهم من أرمينيا إلى محاصرة ميافارقين لمدة عامين أظهر خلالهما أهالي ميافارقين وحاكمها شجاعة منقطعة النظير، وعندما أدرك الناصر استحالة الوقوف وحده في وجه التتار، قرر أن يطلب من المماليك معونة حربية تسمح له بوقف سيل المغيرين، فتوجه الناصر يوسف في محنته إلى أولئك الذين كانوا أعداءه وما زالوا، وهم المماليك في مصر، ورجا منهم أن يأتوا لمعونته بأسرع ما يمكن. وحين وصل رسول الناصر كمال الدين ابن العديم إلى القاهرة أصبح شاهداً على انقلاب جديد، فبحجة أن مثل هذه الأيام العصيبة لا تحتمل على رأس السلطة غلاماً في السابعة عشرة خلع قطز السلطان الفتى الملك المنصور نور الدين علي ابن أيبك، واعتقل أنصاره في السادس عشر من تشرين الثاني عام 658هـ / 1259م وأوعز في أن ينادى به هو نفسه سلطاناً، وأعاد كمال الدين إلى دمشق مع وعد يتضمن نيَّة الوقوف إلى جانب الناصر يوسف إزاء المغول، وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر، فإن خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناسى الأحقاد ويقبل طلبه الخاص بإرسال نجدات عسكرية إليه.

ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي أرسلها إلى الناصر لهذا الغرض، إذ يخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، وأضاف بأنه ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق، ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة.

غير أن الكامل محمد لم يكن يفكر في تسليم طوعي، وبغير قتال، ودافع بعناد عن المدينة في وجه جيش الحصار المغولي. ولما لم يحقق يوشموت أية خطوة من خطوات التقدم أمام ميافارقين، وامتد الحصار إلى عام 658هـ / 1259م، أمر هولاكو بدر الدين لؤلؤاً، أمير الموصل، بالمجيء لمساعدة ابنه، وأرسل بدر الدين إلى يوشموت على سبيل المساندة فصيلة من القوات بقيادة اثنين من أولاده، ولكن يوشموت لم يتمكن أيضاً من إحراز تقدم بهذه المعونة الإضافية[1].

---

[1]ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص386-396. -المقريزي: السلوك ،ج1، ق2 ،ص422، 423. الصلابي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ص33. توراو: الظاهر بيبرس، ص74، 75. العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص131.

وفي خريف عام 658هـ / 1259م كان هولاكو استكمل أعماله التحضيرية للزحف إلى الشام، وكان يتقاسم ملكية الشام في تلك الأيام في المقام الأول السلطان الناصر يوسف والفرنج الذين قد كانوا استولوا على الإقليم الساحلي، أما في الجنوب فكانت توجد بقايا مملكة بيت المقدس، وكان يوجد بعد ذلك في الشمال كونتية طرابلس وإمارة أنطاكية، وكلتاهما في يد بوهمند السادس، متحدين اتحاداً شخصياً. وكان بوهمند صهراً للملك هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وكان يقيم معه تحالفاً وثيقاً، وكان يرى في المغول، مثلما يرى حموه، حلفاء في حرب جيرانه المسلمين.

وفي هذه الأثناء انتهز المغول سكون الناصر، وتابعوا السير إلى الشام فاستولوا على حلب بعد سبعة أيام مروعة من سفك الدماء، ولم تسقط المدينة إلا بعد أن عمَّ القحط وانتشرت الأوبئة وقلَّت المؤن حتى اضطر الناس أن يأكل بعضهم بعضاً، وهلك أكثر السكان، ولمَّا تأكد الملك الكامل من أن المقاومة أصبحت عديمة الجدوى وأنه لا فائدة من الصمود استسلم للمغول فقتلوه شر قتلة.

وقيل إنه حين دخل المغول لها كان قد عمَّ الوباء في أهلها وساكنيها ولم يبق منهم إلا سبعون وهم نصف أحياء .

وبعدها استعدت جحافل الجيوش المغولية للتقدم إلى الشام بعد أن زادوا يقينا أنهم جيش لا يُقهر.

ولما كانت ميافارقين تقاوم، سار هولاكو بجيشه عبر أخلاط في اتجاه جزيرة ابن عمر، ومن هناك اتجه غرباً، واستولى على نصيبين وحران وأورفة والبيرة[1]. أما ساروج التي تجرأت على مقاومتهم فتعرضت للسلب والنهب وذبح سكانها. وعند ساروج وضع هولاكو جيشه على الفرات وتقدم نحو حلب[2].

4 - سقوط ماردين:

ما إن تم للمغول فتح ميافارقين حتى تقدموا نحو ماردين وكانت في قبضة الملك السعيد فوقف في وجه المغول أيضاً، وحاصر المغول المدينة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا في اقتحامها، وأخيراً

---

[1] بلدة وقلعة حصينة بين حلب والثغور الرومية قرب سميساط، الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، مادة بيروت.

[2] بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص288. محمد: تاريخ المغول والحروب الصليبية، ص154. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص523.

حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثني أباه عن عزمه ويحمله على التسليم للمغول، فلم يفلح، فأقدم الابن على قتل أبيه حقناً لدماء المسلمين كما ادعى، وسلَّم القلعة للمغول، ومكافأة على إخلاصه جُعل والياً على ماردين بدلاً من أبيه، وأثناء حصار ميافارقين وماردين كان هولاكو يغزو الإمارات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، فاستولى على نصيبين واستسلمت له حران والرها، ثم تقدم على رأس جيش كبير لحصار حلب يعاونه الحلفاء الفرنج والأرمن[1].

5 – السيطرة على حلب وحرَّان:

كان المغول في هذه الأثناء قد غزوا، في مسيرة مظفرة عاجلة، شمالي الشام، وبعد غزو البيرة ظهر هولاكو بجيشه أمام حلب التي رفضت مطلب التسليم بغير قتال، وقاومت المدينة مقاومة مريرة على مدى أسبوع بقيادة المعظم توران شاه، وهو أحد أبناء الناصر يوسف. ولم يكن لدى المدافعين ما يقابلون به وسائل الحصار الجبارة ذوات العدد الجم من شيء يعادلها في القيمة سوى جدرانهم الصلبة.

ولما قاومت حلب ببسالة، وكان هولاكو قد تقدَّم على رأس جيشه بالتعاون مع الأرمن والفرنج أرسل رسالة إلى الملك المعظم تورانشاه والي حلب، يطلب منه تسليم المدينة، ووعده بأن يؤمِّن له الملك، فلم يجبه الناصر صاحب حلب ودمشق، والذي كان موجوداً في ذلك الحين في حلب، ولم يبق فيها للدفاع عنها وإنما آثر الهرب إلى دمشق، وبذلك تحمَّل الملك المعظّم تورانشاه مسؤولية الدفاع عن حلب وحده، وهاجم المغول المدينة بشراسة ووحشية، حيث نصبوا حوالي عشرين منجنيقاً حوالي المدينة، وأمطروها بوابل من القذائف إلى أن اضطرت للاستسلام[2].

---

[1] ابن واصل، محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1957م، ج2، ص393 وما بعد. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص288. كرد علي، محمد: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983،ج2، ص107. الصلابي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ص3. توراو: الظاهر بيبرس، ص75.

[2] أبو الفداء، إسماعيل: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، ط1، 1995م، ص82. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص288. توراو: الظاهر بيبرس، ص77. ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص113.

howorth, sir Henry; history of mangols. part Ill (London 1988) ill. P. 208

وفي أثناء حصار حلب قام بعض الأمراء الأيوبيين مثل أشرف موسى والي حمص وأعيان حماه وبعلبك لتقديم طلب الأمان إلى هولاكو خان لأمن بلادهم، وقدم لهم هولاكو خان رداً إيجابياً ونشر خبراً يفيد بتعيينه القاضي كمال الدين بن عمر بن بندار قاضياً لبلاد الشام والموصل وماردين وأكراد وميافارقين، وتعيين ثلاثة أشخاص من أجل إصلاح وإدارة أمور دمشق.

ولا ننسى بأن سكان هذه البلاد كانوا قد علموا بالأعمال الوحشية للمغول بحق مدينة بغداد، ومن أجل وقاية أنفسهم من هجوم جنود هولاكو قدموا طلب الأمان، ويجب علينا أن لا ننسى بأن التفرقة والاختلاف بين الجنود الأيوبيين والمماليك كان لهما الدور المهم في سقوط دمشق بيد هولاكو[1].

وفي (الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير عام 1260م/ 9صفر 658هـ) تسرب المغول إلى المدينة، بعد قصف عنيف للأسوار، من باب العراق، وظلت المدينة ستة أيام تتعرض للهدم والتخريب بأشنع الأشكال، وقتل سكانها بالألوف أو سيقوا إلى الرق.

واستباحها المغول سبعة أيام، وامتلأت الطرقات بجثث القتلى، وأسروا النساء والأطفال ونهبوا الأموال، أما الملك هيثوم ملك أرمينية الصغرى الذي ساند مثل صهره بوهمند الرابع أمير أنطاكية وطرابلس بجيشه هولاكو في حصار المدينة وقصفها، فقد أشعل النار بيده في الجامع الكبير، وكان المؤرخ ابن العبري رئيساً لأساقفة حلب، فبادر إلى تقديم الطاعة لهولاكو.

وظلت القلعة صامدة أربعة أسابيع أخرى إلى أن قرر المعظم آخر الأمر تسليمها في الخامس والعشرين من شباط / (11 شهر ربيع الأول). وصان هولاكو، الذي تأثر من جراء الدفاع البطولي، المدافعين خلافاً لعادته وأتاح لهم الانسحاب الحر، وكافأ هولاكو حليفيه فوهب هيثوم جزءاً من الغنيمة ورد إليه قطعاً من الأراضي كان المسلمون في حلب قد غنموها منه، كما استعاد بوهمند السادس مناطق كان صلاح الدين غزاها في إمارة أنطاكية، مثل دركوش وكفر دبين وكفر بلميس. وقد وصف أبو الفداء سقوط حلب قائلاً: ((ملك هولاكو _ دمَّره الله تعالى _ حلب وخرَّبها وقتل من أهلها خلقاً كثيراً سنة ثمان وخمسين وستمئة))[2].

-[1] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص18.

[2] أبو الفداء: التبر المسبوك، ص82. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص288. توراو: الظاهر بيبرس، ص77. ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص113.

howorth, sir Henry; history of mangols. part Ill (London 1988) ill. P. 208

ثم ذهب هولاكو إلى قلعة حارم للاستيلاء عليها، وهي الحصن المهم على الطريق من حلب إلى أنطاكية، غير أن أهلها اشترطوا تسليمها إلى فخر الدين المعروف بالساقي والي قلعة حلب لأنه رجل صادق وثقة، فغضب هولاكو وتظاهر بالنزول عند رغبتهم، واستدعى فخر الدين حتى إذا سلمت إليه القلعة، أمر هولاكو بقتل فخر الدين أولاً ثم جميع من في القلعة.

وتلا ذلك الاستيلاء على حماة، التي كان أميرها المنصور الثاني عند الناصر وغزو حمص التي خضعت للسيادة المغولية بصورة طواعية، وكان أميرها الأشرف موسى الذي طردته رعيته يعرف كيف يتفاهم مع هولاكو، وقد ردَّ إليه هذا إمارته، وفوقها حلب المفتتحة، وكلتاهما تحت الإشراف المغولي الأعلى(1).

6 – سقوط دمشق:

وصل خبر سقوط حلب، أهم معاقل الشام، إلى الناصر في معسكره في برزة، ففرَّ وقد أفعم بالفزع والهلع، بناء على نصيحة من أمرائه من دمشق، مع حاشية بلاطه، وخلَّف المدينة وسكانها بغير حماية. وعند خروجه من دمشق، وقف سكانها على سور المدينة يشتمون الناصر ويلعنونه وجنوده، إذ أسلموهم للمغول بغير حماية.

وعلى أن المغول راعوا جانب المسيحيين عند الاستيلاء على بغداد، فقد بلغ الخوف منهم أن كثيراً من المسيحيين هربوا من دمشق إلى صور، وغادر المدينة القبطي المكين بن العميد وعدد من صغار الموظفين (الكتّاب) كما يقول المكين بالنص الحرفي.

وفرَّ الناصر في أجواء المطر الدافق والبرودة القارسة مع حاشيته والبقية الباقية من جنده الذين ظلوا على إخلاصهم له، على دروب بللها الماء، لا تكاد تمكن المرء من المضي قدماً، ماراً بنابلس إلى غزة. وكانت نساء حاشيته يقعن المرة بعد الأخرى ضحية بعض الفلاحين وقطاع الطرق الذين كانوا يغتصبونهن وينتهكون أعراضهن(2).

---

(1) المقريزي:السلوك، ج1، ق2، ص425. عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري،ص33. توراو: الظاهر بيبرس، ص78.

(2) انظر توراو: الظاهر بيبرس، ص78.

بكل الأحوال، أرسل هولاكو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الاثنين السابع عشر من صفر سنة 658هـــ فبراير 1260م، وهم يحملون فرماناً منه بتأمين المدينة وأهلها مقابل تسليمها، فقرؤوا هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر.

انتابت حالة من الذعر سكان دمشق وبخاصة بعد معرفتهم ما حدث بحلب، لذلك سارعت الشخصيات المهمة في المدينة لمقابلة هولاكو، فبعد أن كان الناصر غادر دمشق مغادرة غير مشرِّفة، اتفق الأعيان وزين الدين الحافظي، الذي رفض أن يصحب الناصر، على أن يرسلوا مفوَّضين إلى هولاكو في حلب، ليعرضوا عليه تسليم المدينة، وقدَّموا إليه الهدايا والتحف، وسلموه مفاتيح المدينة، وأظهروا له الانقياد والطاعة، فأرسل هولاكو إثر ذلك طليعة من قواته بقيادة قائده كتبغا إلى الجنوب. وفي الثاني من (آذار/ 1260م/ 17شهر ربيع الأوّل 658هـــ) دخل كتبغا بجيشه المغولي دمشق دخول الظافرين دون إراقة قطرة دم[1].

وعندما امتنعت عليهم قلعة دمشق حاصروها وأقاموا عليها المجانيق إلى أن استسلمت لهم، فنهبوها[2].

غادر هولاكو الشام بعد موت الخان الأكبر المفاجئ ليتمكن إذا ما سنحت الظروف من التدخل في الاضطرابات المرافقة لوراثة العرش لمصلحة أخيه قوبيلاي. وخلَّف وراءه كتبغا قائداً عاماً لقوات المغول في الشام[3].

ولما كان المغول يحيطون بأراضي الفرنج إحاطة كاملة، ولم يكن يتوقع منها هجوم كبير، ظل المماليك الآن هم المناوئون الوحيدون الذين يجب أن يؤخذوا مأخذ الجد[1].

---

(1)المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص425. توراو: الظاهر بيبرس، ص79. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص291. عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري،ص33.

Howorth; history of mangols, pp. 208- 211.

(2) أبو الفداء: التبر المسبوك، ص82.

(3) توراو: الظاهر بيبرس، ص80.

ثانياً_ معركة عين جالوت:

تقدم المغول مع حلفائهم من الأرمن والكرج إلى بلاد الشام، وبسقوط المدن الثلاثة الكبيرة: بغداد وحلب ودمشق، صار الخطر كبيراً لدرجة ظن البعض أن الإسلام جاءت وفاته كما عبَّر رنسيمان بقوله: ((بسقوط المدن الثلاثة الكبرى: بغداد وحلب ودمشق، تراءى كأن الإسلام في غرب آسيا حان أجله))[2].

1_ الأوضاع على الجبهة الإسلامية:

استطاع قطز ثم بيبرس ثم قلاوون توظيف سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع مصدري التحدي: المغول والقوى الصليبية وفي مواجهتهما في الوقت نفسه، وذلك من أجل تحجيم الأثر السلبي لمغول فارس، ومن أجل تصفية بقايا الوجود الصليبي. فالعقود الأخيرة للقرن (7هـ– 13م) والتي تداخلت فيها بقوة الحروب المملوكية ــ المغولية، والمملوكية ــ الصليبية تعد من أخصب الحقب التي تبين لنا أبعاد السياق الزمني والمكاني للتفاعلات التي قام بها طرف إسلامي سواء مع أطراف إسلامية (مغول القبيلة الذهبية)، أو أطراف غير إسلامية (الدولة البيزنطية وبعض ممالك الفرنجة)، في مواجهة طرف وثني (مغول فارس)، أو (صليبيو إمارات الشام)، وذلك من أجل صالح الأمة الإسلامية.

كانت مصر تحت سلطة المماليك بزعامة السلطان المملوكي قطز، وقد تولى السلطة في ظروف لا يُحسد عليها، فقد كان عليه أن يتصدى للمغول والملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق[3].

والمتتبع لسير الجيوش المغولية التي قادها هولاكو يرى أنه لم يعد أمام هذه الجيوش سوى مصر آخر المعاقل المهمة والقوية والتي يمكن من شأنها أن تشكِّل خطراً على المغول وقوتهم.

---

(1) القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1985م، ج2، ص103 وما بعد. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص427 وما بعد. توراو: الظاهر بيبرس، ص81.

(2) رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص528.

(3) انظر مصطفى، نادية محمود، وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م، ص23.

إلا أن الموقف في مصر كان مختلفاً تماماً، لأن كل شيء فيها ينبئ بأن هناك قوة جديدة وليدة بدأت تظهر، وكانت تلك القوة هي المماليك – الذين أطاحوا بالصليبيين في فارسكور والمنصورة – وقد زادت أهميتهم بعد اعتلاء السلطان قطز لعرش السلطنة المملوكية في ذي القعدة 657 هـ/ تشرين الأول 1259م[1].

كانت مصر – كما سلفت الإشارة – تُحكم قبل قطز من قِبل صبي صغير؛ هو المنصور علي بن أيبك الذي استلم الحكم بعد مقتل أبيه، وله من العمر خمسة عشر عاماً، في حين كان قطز نائباً للسلطنة، وكان الشخصية الأبرز في مصر.

تطورت الأمور في بلاد الشام ومصر، ومهدت كلها لاعتلاء قطز عرش مصر، وذلك بعد أن بدأت المدن تتهاوى الواحدة تلو الأخرى أمام المغول، حتى وصلوا إلى حلب، وهرب معظم أهلها إلى دمشق، وكانت هذه الأخيرة تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب، وهو حاكم حلب أيضاً، وهذا الحاكم كان قد اتصل من قبل بهولاكو، وعرض عليه التحالف ضد مماليك مصر، لكنه فيما بعد أدرك خطأه وراسل ملوك مصر لتقديم المساعدة العسكرية له لكي يتصدى للمغول[2].

وفعلاً وصلت رسالة الملك الناصر إلى القاهرة، وكان يحملها الصاحب كمال الدين عمر بن العديم، وعلى الفور عُقد اجتماع في القاهرة ضم القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم بأمر المغول، وخرج المجلس ببعض المقررات، غير أن أهم شيء حدث في هذا المجلس هو إدراك العامة والخاصة أن هذا الصبي الذي يتربع على عرش السلطنة غير مناسب لتلك الظروف، ولاسيما أنه خلال

---

[1] الدواداري، عبد الله بن أيبك: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخهارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1871م، ص39. المقريزي: السلوك، ج1، ص417. المحمد، أنس: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2014م، ص28، 29. الشاعر: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، ص43. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بحث سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، ، ط1، بيروت، 1990م، ص527، 528. المحمد، أنس: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2014م، ص28، 29.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص261 – 275. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص44. اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد، الهند، 1954م، ج1، ص349. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص33. المقريزي: السلوك، ج1، ص410–416. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص29.

الاجتماع لم يتفوه بكلمة واحدة، فهو لم يكن يمتلك المعرفة ولا الخبرة، عندئذ لهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم، وأوجد هذا الأمر سبيلاً لقطز للقول – بعد أن جمع الأمراء – إنه ((لابد من سلطان قاهر يقاتل العدو، والملك المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة))، هذا في الوقت الذي كثرت فيه مفاسد السلطان المنصور علي، وتدخل أمه في شؤون الإدارة، هيأت كل هذه الأمور الظروف لتسلم قطز للسلطنة، إذ انتهز هذا الأخير فرصة خروج الأمراء للصيد فقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهما بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر في ذي القعدة 657هـ/1259م[1].

كان قطز منذ صغره يطمح إلى اعتلاء السلطة، وأن يكون له شأن في الشام ومصر، وهذا الطموح جعله يستعد ويعمل كل ما من شأنه الوصول إلى هذا المنصب الكبير مهما كلَّفه ذلك من تضحيات، فشهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحروب، وأهلته صفاته الخلقية والجسمية لأن يكون قائداً، حيث كان يثور لكرامته، ويتأسى بأخلاق الملوك، ويعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر بها، وكان قوي البنية، توجه منذ صغره نحو التدرب على فنون الفروسية، وكان من الحاذقين باستخدام الرمح، وتميز بخفة حركته على حصانه، وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول لما ارتكبوه من أعمال وحشية، وهذا ما يفسر اندفاعه واستجابته اللامحدودة للتصدي لهم في معركة عين جالوت.

خدم قطز عند السلاطين الأيوبيين والمماليك بكل إخلاص، وكاد أن يكلفه ذلك حياته حيث تعرض بسبب ذلك لمخاطر كثيرة، فاشترك مثلاً في القضاء على الأمير فارس الدين أقطاي الذي ثار على الملك المعز أيبك وأراد اغتصاب الحكم منه عام 652 هـ / 1254م، وكذلك قبض على الأمير

---

[1] المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص29، 30. وانظر ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص262، 263، المقريزي: السلوك، ج1، ص416–418. النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م، ج2، ص478. ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، ج7، ص72، 73. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص307–308.

علم الدين سنجر الحلبي الذي أراد أن يزيح السلطان علي بن الملك المعز أيبك عن الحكم عام 655 هـ / 1257م[1].

أظهر السلطان قطز منذ البداية دهاء وحنكة لتفادي ردات الفعل على عملية الانقلاب هذه، وأظهر براعة في سبيل توحيد كلمة المسلمين أمام المغول، فداخلياً عندما نصَّب نفسه سلطاناً على مصر بعد خلع المنصور علي، واجه معارضة من قبل بعض الأمراء؛ إذ أنكروا عليه عمله، ولكنه سوَّغ موقفه، وطمأنهم بقوله: ((وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم أقيموا بالسلطنة من شئتم))[2]، فهدؤوا واطمأنت قلوبهم.

2_ رسالة هولاكو لقطز والرد عليها:

بداية يجب الإشارة إلى الرسالة التي أرسلها قوبيلاي إلى هولاكو سنة 658 هـ / 1260م، وقال له فيها: ((إن الولايات قد سادتها الفتن والاضطرابات، فيجب عليك أنت يا هولاكو أن تحكم ولايات التازيك (العرب المسلمين) الممتدة من ضفاف جيحون حتى بحر مصر)) [3].

كان السلطان سيف الدين قطز قد عقد العزم على متابعة قتال المغول، ولكن الأهالي والجيش كان لهم رأي آخر، ويصف ابن واصل، الذي كان في تلك الأيام يقيم في مصر، ذلك الاضطراب الذي أحدثه في القاهرة غزو المغول الشام الذين كانوا حتى تلك الأيام في حكم من لم يتعرض لهزيمة، واستبدَّ بالأهالي اليأس والرعب[4].

وعندما كان المماليك يتأهبون لاستقبال عدوهم وهم في شك من إمكانية تغلبهم على المغول، حدثت اضطرابات في البيت المغولي أعادت للناس في مصر شجاعتهم وثقتهم في أنفسهم، وكان على المغول أن يدركوا أنه إذا كانت سلطة حلب ودمشق قد سقطت في أيديهم، فإنه قد بقي عليهم أن يغلبوا قوة عظيمة هي قوة المماليك في مصر، ثم دخلت العلاقات بين المغول والمماليك في مرحلة حرجة عندما أرسل هولاكو قبل أن يبرح الشام سنة 658هـ/1259م رسله يحملون رسالة إلى السلطان قطز

---

[1] الذهبي: العبر في خبر من غبر، ص247. الموسوعة العربية، سوريا، بحث: قطز.

[2] المقريزي: السلوك، ج1، ص418. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص30.

(3) الهمذاني: جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان)، ص252.

(4) توراو: الظاهر بيبرس، ص83.

تتضمن كل معاني التهديد والوعيد يدعوه فيها إلى الاستسلام، وتقديم فروض الطاعة والولاء للمغول، يقول في هذه الرسالة: ((من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفَّر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى)) [1].

وفي رواية فارسية ورد ما يأتي: ((لقد سمعتم بأننا أصحاب إمبراطورية واسعة، وأننا طهَّرنا وجه الأرض من الفوضى وعدم النظام الذين شوها وجهتها، فمن واجبكم أن تهربوا ومن واجبنا أن نلاحقكم، ولكن إلى أين تهربون؟ ومن أين لكم المفر من مخالبنا؟ فأحصنتنا سريعة وسهامنا حادة وسيوفنا كالبرق، وقلوبنا مثل قساوة الجبال وعددنا مثل رمال الصحراء، فلا القلاع تقف أمامنا، ولا الأسلحة تسد طريقنا، ولا فائدة من دعائكم إلى السماء، ولا يجد لكم حلاً، ونحن بهذا الإنذار نريد مصلحتكم وخيركم، فأنتم الآن الأعداء الذين يجب أن نواجهكم ونتحرك صوبكم))[2].

وترد رسالة هولاكو لقطز في رواية فارسية أخرى على الشكل الآتي: ((هولاكو خان يريد من السلطان قطز إطاعة أمره وأخذ العبرة من مصير سكان بغداد والشام))، وكذلك أظهر هولاكو خان في رسالته هذه عيوب المماليك للناس إذ قال: ((هؤلاء أكلوا الحرام وناقضوا العهود، وفاسدون وطغاة، وقد ظهر لكم تكبرهم)). وكذلك حذَّرهم هولاكو خان من الوقوع بين يدي جنود كثيرين لا يحصى عددهم وشجعان لا يخافون، ومن أجل البقاء في أمان من تخريب المغول عليهم الرد بسرعة على رسالته[3].

---

[1] الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله: جامع التواريخ، تاريخ المغول، تر: محمد صادق وآخرون، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، دار إحياء الكتب العربية 1960م، ج1، ص311، 313. المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص427، 428. المنصوري، بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: دونالد ريتشارد، بيروت، الشركة المتحدة، ط1، 1998م، ص50.

[2] ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص113. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص290.

[3] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص18، 19.

فلما وصل رسل هولاكو خان، وتليت الرسالة، استدعى قطز الأمراء وشاورهم في الأمر، فقال ناصر الدين القيمري: ((إن هولاكو خان فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، وابن تولوي، وأخو مونكو قان، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والتبيان، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب أو عار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن العقل))، فقال قطز: ((والحالة هذه، فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً، فلو أننا تقدّمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن)).

فصار البعض يميل إلى السلم والبعض الآخر إلى الحرب ضد المغول، وفي النهاية تم أخذ قرار الحرب ضد المغول، واتفقوا على قتل رسل هولاكو وعُلِّقت رؤوسهم على باب زويلة.

فأصدر السلطان قطز أوامره إلى ولاة الإقليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد ومقاتلة المغول، وسار بنفسه حتى نزل الصالحية فتكامل عنده الأمراء ووصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان ومن تبقى من القوات الخوارزمية[1].

3_ التحركات المملوكية الأولى:

وفي (السادس والعشرين من تموز / 1260م/ الخامس عشر من شعبان 658هـ) انطلق السلطان قطز على رأس قواته من القاهرة، وسار إلى الصالحية. وكان جيشه يتألف من الجيش المصري الحقيقي، ومن الوحدات الشامية العائدة للناصر يوسف، وكذلك الشهرزورية، والعرب

---

[1] المقريزي: السلوك،ج1، ق2، ص429 . روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص19. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص290. العسلي، بسام: فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، دار الفكر، بيروت، ط1، 1988م، م4، ص233، 234. عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص34، 35. حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص161، 162. الشاعر: مصر قاهرة المغول، ص44.

والتركمان، وذكر المقريزي هنا أن الأمراء رفضوا في الصالحية أن يواصلوا سيرهم مع قطز، وأن يهاجموا المغول، ولم يكن للسلطان بد من أن يتغلب أولاً على مقاومتهم بخطبة نارية[1].

وفي هذه الأثناء كان السلطان قطز قد نزل بعساكره غزة، ومن ثم قرر الرحيل عن غزة بعد إقامته بها يوم واحد وذلك عن طريق الساحل الفلسطيني ثم المضي إلى عمق البلاد على اتجاه الشمال لتهديد خطوط إمداد كتبغا وضرب مؤخرته إذا ما توجه إلى فلسطين، ولما كان هذا التحرك يتطلب اجتياز المناطق التي يحتلها الفرنج فقد تقرر إيفاد سفارة إلى عكا من أجل طلب العبور والحصول على مواد تموينية وتقديم التسهيلات لذلك، والاشتراك بقوات مقاتلة إذا أرادوا ذلك، فاجتمع بارونات الفرنج في عكا لمناقشة ما طلبه السلطان قطز، وكان هؤلاء يشعرون بالمرارة لما قام به المغول في صيدا منذ مدة قريبة، كما أنهم لم يثقوا بالمغول القادمين من جوف آسيا، كما أنهم آلفوا الحضارة الإسلامية، إلا أنهم رفضوا التحالف العسكري مع المسلمين، وأرسلوا إلى قطز يعلمونه بأنهم سمحوا له باجتياز أراضيهم وأنهم سيقدمون المواد التموينية التي يحتاجها جيش المسلمين، فاستحلفهم قطز بأن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى المغول، ومن ثم قاد السلطان قطز الجيش في شهر آب على الطريق الساحلي وعسكر في الحدائق الواقعة خارج عكا لعدة أيام[2].

ويناقش المستشرق بيتر توراو هذا الموضوع فيذكر أن السلطان قطز رقَّى بيبرس إلى مرتبة قائد للطليعة التي كان يفترض أن تستطلع تحركات العدو، وتقدم بيبرس بالقوات الموضوعة تحت قيادته نحو غزة التي كان يمسك بها موقع متقدم للمغول، وعند اقترابه أرسل بيدرا، قائد المغول في غزة، بريداً عاجلاً إلى كتبغا، ولكن قبل أن يصل أمر كتبغا إلى بيدرا بالتمسك بغزة وانتظار القوة المغولية الرئيسة، وقد كان بيبرس استولى على المدينة، وقد كان الجيش المصري دخل غزة بقيادة قطز، ولم يكن بدّ لبيدرا أن يتقهقر مدحوراً.

كان من الواجب، إذا كان القوم يريدون، بعد هذا النجاح البدئي، أن يضربوا قوة المغول الرئيسة بقيادة كتبغا، ويطردوها من الشام، أن يسيروا إلى الشمال، وكان الطريق الأكثر ملاءمة إلى حد بعيد لأن يسلك في فصل السنة الحار، بالقياس إلى جيش كبير طريقاً يحاذي ساحل فلسطين، إذ كان يؤمن

---

(1) توراو: الظاهر بيبرس، ص83. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص290.

(2) المقريزي: السلوك،ج1، ق2، ص430. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص534. العسلي: فن الحرب الإسلامي، م4، ص235.

تزويد الجيش بالماء، ولكن هذا الطريق كان يمر بمنطقة مملكة الفرنج أي مملكة بيت المقدس، ولذلك أرسل قطز مفاوضين إلى عكا، ليحصل من الحكومة هناك، لجيشه على حق المرور الحر، أو ليحظى أيضاً، على الأرجح، بالفرنج حلفاء له.

انتهت المسألة الآن في عكا إلى مشاورات مستفيضة بين البارونات حول الكيفية التي ينبغي لهم أن يتصرفوا بها، وكان جيران الفرنج المسلمين، منذ عهد بعيد، خصوماً جديرين بالتقدير وشركاء تجاريين موثوقين، بدرجة تقل أو تكثر.

وخلافاً لما كان عليه الأمر في حالة بوهِمند السادس أمير أنطاكية، وكونت طرابلس، كان بارونات عكا يرون في المغول برابرة ينبغي تفضيل المسلمين عليهم ((لأن المسيحيين يخشون المغول بسبب الأفعال السيئة التي أقدموا عليها))، وكان الغزو الذي تم قبيل عهد قريب لصيدا وتخريبها من قبل المغول، لم يُقصر في إحداث تأثيره في الفرنج.

وفي مقابل ذلك كان المماليك الذين لبثوا يحكمون في مصر منذ عام 648هـ / 1250م لمَّا يظهروا بعد في صورة الخصوم أولي الخطر، التي يفترض أن يكونوا عليها بالقياس إلى الفرنج.

ولما كان شيخ رهبانية الفرسان الألمان (هانو فون سانجرز هاوزن) ألحَّ في النصح بالعدول عن تحالف صوري مع المماليك، فقد اتفق البارونات آخر الأمر على سلوك سبيل الحياد الصارم، فسمحوا لقطز بالعبور من أراضيهم، وأمدوا جيشه، الذي قد كان عسكر في هذه الأثناء في سهل عكا، بالمواد الغذائية، بل لقد دُعِي بعض أمراء الجيش المسلم الأكثر أهمية، إلى المدينة، وكان بينهم أمير كبير يقال له: بندقدار. وزيارة بيبرس البندقداري هذه عكا يؤكدها أيضاً كاتب سيرته ابن عبد الظاهر[1].

بعد أن تأكد للسلطان قطز حياد الفرنج، وعاد غير مضطر إلى أن يتخوف من أن يهاجم من الخلف من قبلهم، قاد جيشاً منطلقاً من عكا إلى داخل البلاد، لمواجهة المغول.

أما خارجياً فهناك الملك الناصر صاحب دمشق، والأمير بيبرس مع مماليكه البحرية، الذين هربوا من مصر إلى بلاد الشام بعد مقتل فارس الدين أقطاي وانقلاب أيبك على البحرية سنة 655 هـ/ 1257م، فالتجؤوا إلى الناصر، ثم تغير عليهم الناصر فالتجؤوا إلى المغيث عمر صاحب الكرك،

---

(1) توراو: الظاهر بيبرس، ص84، 85. وانظر حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص129 – 132. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص290.

ولما تغير عليهم هذا الأخير عاد بيبرس وبعض الأمراء إلى الناصر في دمشق، وظلوا في خدمته حتى قدوم التتار سنة 658هـ/1260م، حيث عادوا إلى مصر واستقبلهم فيها قطز أحسن استقبال[1].

هاتان القوتان لابد من ضمهما إلى القوة الأساسية في مصر، وتوحيدهم في جبهة واحدة:

_ فبالنسبة للملك الناصر الذي كان على عداء مع مماليك مصر، لأنه كان يطمع في ضم مصر إلى مُلكه طالما رآها من ميراث الدولة الأيوبية، ولذلك قام بمهاجمة مصر، وللغرض ذاته راح يراسل المغول ويعرض عليهم التحالف ضد مماليك مصر، لكنه عندما أدرك مخاطر مراسلاته، وأن المغول قوم لا أمان لهم، تراجع عن موقفه وأسرع بمراسلة المماليك في مصر، فاغتنم قطز الفرصة بعد تسلمه السلطنة – وكان ابن العديم رسول الملك الناصر لا يزال موجوداً في القاهرة– ورد على رسالة الناصر برسالة أرسلها مع قاضي القضاة برهان الدين السنجاري، عرض فيها قطز استعداده لتقديم المساعدة للناصر ونجدته[2].

فرحل الملك الناصر ومعه الملك المنصور صاحب حماه من دمشق باتجاه مصر بناءً على ما جاء في هذه الرسالة، وعندما وصلا إلى قطية[3] عاد الملك الناصر ومعه بعض الأمراء إلى فلسطين، لأنه لم يأمن جانب السلطان قطز، في حين سار معظم العسكر مع الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر، ومعهم نساء الناصر وأولاده، وفي فلسطين قبض التتار على الناصر وولده العزيز اللذين سُيِّرا إلى هولاكو في حلب، ولما عاد هولاكو من حلب إلى بلاده أخذهما معه، وعندما علم هولاكو بخبر عين جالوت وهزيمة جنده قتلهما، والشيء الذي يهم هنا هو توجه معظم العسكر الشامي إلى مصر بقيادة الملك المنصور، وانضمام هذا العسكر إلى جانب العسكر المصري في معركة عين جالوت[4].

_ أما بالنسبة للأمير بيبرس البندقداري، الهارب من مصر مع مماليكه البحرية منذ أيام أيبك، فقد تنقل بين دمشق وحلب والكرك وغزة، وطال به الترحال بين هذه النيابات، وعندما اجتاح المغول حلب كان موجوداً بها، وتعرض لمطاردتهم، فأخذ فرس خشداشه سنقر الأشقر الذي وقع في أسر المغول، أما هو فقد تمكن من الفرار إلى دمشق، ولما تيقن أن أمراء بني أيوب عاجزون عن مقاومة

---

[1] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص297–314.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص156 وما بعد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص 6 وما بعد. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص 308.

[3] قطية: قرية في طريق مصر قرب الفرما، الحموي: معجم البلدان، مادة قطية.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب، 280/6. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص76–77. المنصوري، بيبرس بن عبدالله المنصوري: مختار الأخبار، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م، ص11.

هذا الخطر اصطدم معهم، واتهمهم بأنهم سبب هلاك المسلمين، ثم ترك دمشق ورجع إلى غزة، ومن هناك سيَّر إلى السلطان قطز يطلب منه الأمان، فكتب إليه قطز كي يقدم إليه، ووعده الوعود الجميلة، وعندما وصل بيبرس ومماليكه البحرية إلى مصر في ربيع الأول 658هـ/ 1260م، خرج السلطان قطز للقائه، وأنزله بدار الوزارة بالقاهرة تعظيماً له، وأقطعه قليوب وأعمالها[1].

وبهذا العمل يكون السلطان المظفر قد نجح في الجولة الأولى؛ إذ تمكن من إيجاد تعاون وثيق بين مصر والشام، وتضمين معظم العساكر الشامية في جيشه.

كان هولاكو على رأس حملة ضخمة أُعدت بشكل مميز من قبل أخيه منكوخان الذي انتُخب خاناً أعظم للمغول في مجلس القوريلتاي سنة 649هـ/1251م، فقد وضع تحت تصرف هولاكو قسماً كبيراً من الجيش المغولي، وزوده بألف رجل من خبراء إدارة آلات الحرب وقاذفات النفط التي جلبها من بلاد الخطا لهذه الغاية، وأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود المغول ليكونوا حرساً خاصاً لهولاكو، وزودهم بحاجتهم من المؤن والعتاد، ثم أعطاه تعليمات مفصلة عن طبيعة مهمته[2].

وقد سار هذا الأخير حسب الخطة المرسومة له، ويمكن تتبع مسير حملته انطلاقاً من: قراقورم إلى إيران، وهناك قضى على قلاع الإسماعيلية سنة 654هـ/1256م، ومنها سار إلى همذان فسيطر عليها سنة 655هـ/1257م، ومنها إلى بغداد فسيطر عليها سنة 656هـ/ 1258م، ومنها سار إلى أذربيجان ثم إلى ميافارقين فسيطر عليها بعد حصار طويل، وفي الوقت نفسه سيطر على الرها وحران، ثم سار إلى البيرة فسيطر عليها سنة 657هـ/1259م، ومنها سار إلى حلب فسيطر عليه ودمرها، ومن حلب عاد إلى مراغة بسبب وفاة منكوخان، وحدوث منازعات على منصب الخان، بينما استمرت حملته في المسير بقيادة نائبه كتبغا الذي سار إلى دمشق فسيطر عليها سنة 657هـ/1259م، وفي طريقه احتل حماه، والمعرة، وحمص، وبعلبك، وغيرها وصولاً إلى الحدود المصرية في غزة.

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص267، أبو الفداء: المختصر، ج2، ص309، الأرمني، سمباط: تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج36، ص345. أكانك، غريغوري أوف: تاريخ أمة الرماة، تر: سهيل زكار، غير منشور، ص427. المقريزي: السلوك، ج1، ج2، ص419-420.

[2] أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص417، 424. إقبال: تاريخ المغول من حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، تر: عبد الوهاب علوب، ص193. رشيد الدين، الهمذاني: جامع التواريخ، تر: محمد صادق نشأة وفؤاد الصياد ومحمد هنداوي، وزارة الثقافة، القاهرة، 2/1/ 236-237.

Howorth، H. H: A History of the Mongols. Part 1. P.193.

وفي أثناء وجود هولاكو في حلب أرسل برسالة _ كما سبقت الإشارة _ إلى السلطان المظفر قطز تحتوي أصنافاً شتى من التهديد والوعيد، وطالبه بإعلان الخضوع لهولاكو وتسليم البلاد[1].

تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة، فجمع الأمراء لمشاورتهم في الأمر، وبعد أخذ ورد بينه وبين الأمراء، فوضوه بالأمر قائلين له: ((مُر بما يقتضيه رأيك))، وعندما آل القول إليه، أعلن الجهاد ضد المغول، قائلاً: ((إن الرأي عندي أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإن ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق)) [2].

4_ قتل الرسل وغاية قطز من ذلك:

ولقطع أي تردد في الخروج لمواجهة المغول، أصدر السلطان أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش، وحثَّ الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وطالب الولاة ((بازعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع))[3] .

بل ذهب إلى أكثر من ذلك فقام بالقبض على رسل هولاكو، وأمر بقتلهم، إذ وسَّط (قطع نصفين) واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسَّط آخر بظاهر باب زويلة، ووسَّط الثالث ظاهر باب النصر، ووسَّط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة، وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه[4].

كان لقطز أهداف متعددة من قتل الرسل:

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، 243/1/2 وما بعد. ابن الفوطي، عبد الرزاق البغدادي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1987م، ص151-166. المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص427-428. الأرمني: تاريخ سمباط، ج3، ص331، 332. بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، ص152 وما بعد.

[2] المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص428 وما بعد. رشيد الدين: جامع التواريخ، 312/1/2-313.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ص429.

[4] النويري: نهاية الأرب، ج2، ص472. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص48. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص34.

_ فكان الهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسية رفع معنويات الناس وإعلان الحرب على المغول وإعلامهم بأنهم قادمون، وكان هذا هو اجتهاد قطز والأمراء في قتل رسل المغول فبعد قتل رسلهم لن يقبل المغول باستسلام مصر ولو قبل بذلك المماليك[1].

_ وكانت عملية قتل الرسل لقطع الشك باليقين، وليقضي على ضعف الروح المعنوية التي لمسها عند بعض الأمراء خلال النقاش الذي دار بينهم[2].

- أن حالة الحرب مع المغول أصبحت حقيقة واقعة.

_ كان غايته من توسيط الرسل كل واحد في موقع مختلف من القاهرة إعلان النفير العام، وتحريض الناس على الجهاد.

_ عملية قتل الرسل هذه بمثابة تهديد للمغول ليأخذوا بحسبانهم أن في مصر قوة تختلف عن تلك القوى التي تغلَّب عليها المغول في مشرق العالم الإسلامي، وأنها غير آبهة بقوتهم وجبروتهم، وأنها خارج نطاق الرعب الذي فرضه المغول على أعدائهم بوحشيتهم، فكان ذلك بمثابة حرب نفسية.

_ وقد يكون قطز أقدم على قتل الرسل استعداءً للمغول ليجبرهم على قصد مصر، فهولاكو عندما عاد إلى قراقورم سحب معه قسم من الجيش، وأمر نائبه كتبغا نوين بالبقاء مكانه حتى يعود إليه هولاكو، وربما ذلك لتقديره بأن ما تبقى من القوات مع كتبغا لا تؤهله لخوض معركة فاصلة مع الجيوش التي تجمعت في مصر.

_ إن قتل الرسل أثار غضب كتبغا نوين بشكل جعله يقوم بحشد القوات المغولية ومن انضم إليها من الأرمن وسار بها قاصداً مصر مخالفاً بذلك أوامر هولاكو القاضية بانتظاره حتى يعود[3]، وبذلك يكون السلطان قطز قد فرض على المغول المعركة في ظروف غير مناسبة لهم.

5_ استعدادات المماليك للحرب مع المغول:

---

[1]الصلابي، علي محمد: السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2010م، ص115.

[2] وهذا مفهوم كلام رشيد الدين: جامع التواريخ، 312/1/2.

[3] الأرمني: تاريخ سمباط، ج36، ص332.

اتبع قطز والمماليك إجراءات كثيرة لمواجهة المغول، أبرزها:

_ محاولة تجميع أكبر قدر ممكن من الجيوش؛ إذ اجتمعت لدى السلطان قطز معظم الجيوش التي هربت أمام جحافل المغول، فقد سلف الحديث عن مسير العسكر الشامي تحت قيادة الملك المنصور إلى مصر، وكيف خضعت القوى في مصر لسلطان قطز في سبيل محاربة المغول، بالإضافة إلى هذه القوى تحدث رشيد الدين الهمذاني عن جموع العساكر التي تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداءً من الدولة الخوارزمية، ومروراً ببغداد وشمال العراق وبلاد الشام، وكيف تجمع عدد كبير منهم في الأراضي المصرية، إذ استقبلهم المظفر قطز أحسن استقبال، وطيَّب خاطرهم، ومنحهم العطايا والأموال، واستقروا في مصر ليكونوا جزءاً مهماً من جيشه[1].

_ إعلان النفير العام.

_ طلب من عربان مصر الانضمام لجيشه، فاجتمع عنده من عساكر مصر ما يقارب أربعين ألفاً[2].

_ راسل الأمراء الأيوبيين الذين انضووا تحت لواء المغول، طالباً منهم التخلي عنهم، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص؛ إذ أرسل إليه كتاباً يُسفِّه فيه رأيه على ما اعتمده من ميله إلى المغول، وتفضيلهم على المسلمين، ووعده أنه إذا ما ترك المغول ومال إليه ((بشرط أن لا يقاتل معهم إذا كان بينه – أي قطز– وبينهم– أي المغول– مصافاً)) أبقى على ما في يده من البلاد، ولم يطلب منه المشاركة إلى جانب المسلمين في المعركة، بل فقط الوقوف على الحياد، وذلك خوفاً عليه من المغول، فأجابه الأشرف إلى ذلك، فعندما طلب كتبغا من الأشرف المسير معه إلى عين جالوت اعتذر وتمارض[3].

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، 310/1/2– 311. النويري: نهاية الأرب، ج2، ص472. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص35.

[2] المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص429.

[3] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص312. العيني، محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، 2010م، ج1، ص244. النويري: نهاية الأرب، ج2، ص473. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص36.

_ اتبع عملية جمع الأموال اللازمة لتجهيز القوات بما تحتاجه من العدة والعتاد، واعتمد في ذلك على شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، الذي أصدر فتوى مفادها أنه إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتالهم، وجاز للسلطان أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد، وتجهيز العساكر، ولكن جعل الإمام هذا العمل مشروطاً بشرط، وهو أن عملية جمع الأموال من الرعية تتم عندما لا يبقى في بيت المال شيء، ويقتصر الجندي على مركوبه وسلاحه، ويتساوى مع العامي، عندئذ يسوغ أخذ شيء من أموال الناس لدفع الأعداء[1].

وبناء على هذه الفتوى قرر السلطان قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من التُرَك الأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد[2].

_ وعندما شعر السلطان بأن الحالة أصبحت تسمح بالمسير لملاقاة العدو، سار بنفسه إلى الصالحية خارج القاهرة ونزل بها، حتى تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم في يوم الإثنين 15 شعبان 658هـ/ تموز 1260م، وهنا تكلم السلطان مع الأمراء في موضوع المسير لقتال المغول، فلمس تقاعساً من بعض الأمراء في شأن الجهاد، فقال لهم: ((يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين))[3].

وبالطبع عكس هذا الخطاب الحالة النفسية المحطمة عند أمراء المماليك إبان الإنذار المغولي، هذه الحالة أكدها المؤرخ ابن تغري بردي بقوله: ((كانت القلوب قد أيست من النُصرة على التتار،

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص262، المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص416-417.

[2] المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، ج3، ص304. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص15. ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1983م، ج1، ص305.

[3] المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص429 . ابن أيبك: الدرة الزكية، ص49. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص78. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص315. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص36

وأجمعوا على حفظ مصر لا غير– أي بدون الخروج للتصدي للمغول– لكثرة عدوهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين))، وكان المظفر قطز قد لمس ذلك في نفوسهم، وهذا ما يفسر قتله للرسل، ليظهر الشجاعة والتصميم، وخاطبهم قائلاً: ((أنا ألقى التتار بنفسي))، وهنا لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة والمسير معه[1].

6_ عودة هولاكو إلى بلاد فارس وآثار ذلك:

في هذه الأثناء حصلت حادثة غير متوقعة غيَّرت الأوضاع، فقد سمع هولاكو في مقره العسكري بالقرب من حلب بكل حزن وأسف بموت أخيه مونكوقاآن في الصين، ولم تكن الحرب قد انتهت[2]، فاضطر للعودة إلى منغوليا بسبب ذلك وبسبب اختلاف خلفائه على الحكم، وتعرض أطراف الدولة المغولية لهجمات من الخارج، فتولى كتبغا مسؤولية الحكم المغولي في بلاد الشام، وفي النصف من شعبان 658هـ/تموز1260م، شرعت القوات المصرية بقيادة السلطان قطز بالمسير واجتازت حدود مصر وزحف على غزة، وتولى بيبرس قيادة المقدمة، وكان كتبغا قد ترك بغزة حامية بقيادة بايدار الذي أرسل إلى قائده كتبغا يخطره بالغزو، إلا أن المصريين تغلبوا على عساكره قبل أن تصل إليه النجدة، لقد كانت الخطة التي رسمها السلطان قطز لقائده بيبرس تتلخص في أن يزحف بجيوشه لاستطلاع أخبار المغول ودراسة مواقفهم وخططهم وهو شيء جديد لم يشاهد من قبل في حروب العرب مع المغول، إذ إن الأمراء العرب كانوا يكتفون بتقوية حصونهم عندما تصلهم تهديدات المغول، وكان كتبغا مقيماً في بعلبك عندما بلغه تحرك جيش المسلمين من مصر، فتجهز للمسير على الفور إلى وادي نهر الأردن متجاوزاً بحر الجليل إلا أنه لم يتمكن من التحرك بالسرعة التي يحتاجها الموقف، فقد رفع المسلمون في دمشق راية التمرد والعصيان وأشعلوا نار الثورة على الحكم المغولي، مما أرغم كتبغا على استخدام جنده من أجل إعادة الأمن[3].

---

[1]ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص78. المقريزي: السلوك، ج1، ص429. حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص132. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص37.

[2]ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص114.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص429. ابن العماد: شذرات الذهب، م7، ص503. الصلابي: السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك، ص114. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص533، 534 . عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص35.

هنا لا بد من تتبع أسباب ترك هولاكو قيادة الجيش لكتبغا والعودة لبلاده، ففي أثناء هذه الأحداث بعد أن فرغ المغول من دمشق مستعدين للهجوم على مصر حدثت تطورات في العرش الإمبراطوري لم تكن في الحسبان، حيث كتب المكين ابن العميد عن هذه التطورات: ((وفي غضون هذا الأمر بلغ هولاؤون (هولاكو) أن أخاه منكوقاان ملك التتار الكبير قد مات، في البلاد الجوانية، وكانت وفاته في شهور سنة 657هـ / 1258م، وتنازع القانية بعده أخواه (اريبكا) و (قبلاي) وكان قبلاي الكبير واريبكا الصغير، غير أن منكو قان كان قد جعل اريبكا نائبه في القانية، وقبل الخانية عند مسيره إلى غزو الخطا، فلما مات منكو قاآن طمع اربيكا في القانية بحكم أنه استنابه، ومال بعض العسكر معه وبعضه مع قبلاي وتقاتلا قتالاً شديداً، فكانت الكسرة على اربيكا ومن معه، فقبض عليه وأُحضر إلى أخيه قبلاي فأراد قتله، فأشار الأكابر عليه ألا يقتله لأنه أخوه، فأرسله إلى بعض القلاع واعتقله، ومات بعد مدة، فلما بلغ هولاؤون هذا الأمر، عاد من حلب إلى بلاد العجم وبعث كتبوغا ومعه جيش كثيف إلى دمشق والشام، وأوصاه بأهلها وبحفظ البلاد وأن يكون قبالة الفرنج))[1].

ولاشك في أن الانتصارات المتعاقبة التي أحرزها المغول كانت قد جمَّدت الناس، وفي هذه الأثناء وقعت حادثة زعزعت هذا الاعتقاد، وقلبت الفكرة رأساً على عقب، إذ وصلت الأخبار إلى هولاكو تنبّئ بوفاة أخيه الأكبر منكوقآن في الصين، وبتنازع أخويه الآخرين (قوبيلاي) و(اريبكا) ولاية العرش، وبالرغم من أن هولاكو الابن الرابع لتولوي ومن حقه أن ينافس أخويه الآخرين في تولية العرش المغولي، غير أنه عدل عن هذه ذلك بسبب ما تهيأ له من الفتح والظفر في إيران والشام، ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي هذا المنصب من أخيه الآخر اريبكا، لهذا كان حريصاً على أن يحضر القوريلتاري (مجلس الشورى) ليذكي أخيه قوبيلاي خاناً أعظم.

ومن ناحية أخرى كان هولاكو يعلم أنه مهدد من جهة الحدود القوقازية من قبل ابن عمه بركة خان الذي كان في القفجاق، خصوصاً أنه اعتنق الإسلام[2] وصار يتوعد هولاكو بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح فيها ألوف الضحايا من المسلمين، ولتجرّئه على مقام الخلافة وقتل الخليفة[3].

---

[1] ابن العميد، جرجس: أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص53.

[2] يعد بركة خان أول مسلم من الأسرة الجنكيزية. انظر بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص267.

[3] رشيد الدين: جامع التواريخ، 2 /332/1. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص49. Howorth:A History of the Mongols.part III, P.316.

فلقد دخل بركة في دين الإسلام، وكان منزعجاً من سلوك هولاكو بحق الخليفة العباسي، ولم تكن حدود أقاليم كل واحد منهما واضحة، وحتى أنه كان على نزاع مع ابن عمه على بعض الأراضي وعلى القفقاز التي كان يعدها له، ولعله كان يخاف من حالة وهي إذا احتل هولاكو بلاد الشام ومصر فسوف يتحول إلى حكومة تابعة لهولاكو، فلهذا السبب _ وخاصة بعد معركة عين جالوت _ كان من البديهي جداً أن يقوده بعد نظره إلى الاتحاد مع المماليك[1].

إذاً قدم على هولاكو وهو في حلب رُسل أخبروه بوفاة أخيه الخان الأعظم منكوخان سنة 655هـ/ آب 1257م، وأن هناك نزاعاً بين أخويه الآخرين قوبيلاي وأريكا على ولاية العرش؛ إذ أعلن الأول نفسه خاناً في الصين، ونصب الثاني نفسه في منغوليا، وبات من الضروري على هولاكو الذي كان يؤيد مطالب قوبيلاي العودة إلى العاصمة، وربما هناك سبب آخر استدعى قدوم هولاكو، وهو التهديد الذي بدأ يواجهه من خانات القبيلة الذهبية بزعامة بركة خان الذي أسلم وحمَّل هولاكو مسؤولية قتل المسلمين والخليفة، وأعلن أنه سينتقم لدمائهم، وبدأ بالغارات على أراضي هولاكو[2].

ولهذين السببين اضطر هولاكو العودة إلى إيران، وكان في نيته أن يكتفي بما تم من فتح ولا يترك خلفاً له يكمل برنامجه في الاستيلاء على فلسطين ومصر، غير أن إلحاح المسيحيين الشرقيين وفي مقدمتهم (هيثوم) ملك أرمينية جعل هولاكو يوافق على أن يترك قائده (كيتوبوقا) وتحت إمرته عشرة آلاف مقاتل لإتمام هذا المشروع.

وهكذا عاد هولاكو إلى أرض المغول ليشهد تنصيب الخان الجديد ويكون على مقربة من الأحداث الإمبراطورية تاركاً وراءه جيش المغول بقيادة كتبغا ليحارب هذا الأخير المماليك في مصر، ويضم مصر إلى سلطان المغول مع بغداد والشام[3].

7_ الأوضاع على الجبهة المغولية:

---

[1] ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص115، 116.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، 2 /332/1. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص49. Howorth:A History of the Mongols.part III, P.316.

[3] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص54. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص395. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص280.

بدأت على الجهة المقابلة أحوال المغول- الذين استفادوا كثيراً من الأوضاع السيئة للبلاد الإسلامية- تتبدل بعد أن ترك هولاكو قيادة الجيوش لنائبه كتبغا نوين وعاد يريد قراقورم.

أحدثت مغادرة هولاكو تحولات خطيرة في بنية الجيش المغولي، فهولاكو – كما ورد من قبل – عندما عاد إلى فارس لم يعد بمفرده، بل عادت معه جموع من العساكر، ولم يترك لنائبه كتبغا من العسكر- على قول بيبرس الدوادار- إلا حوالي اثنا عشر ألف فارس، بعد أن هوَّن عليه الناصر صاحب حلب ودمشق أمر مصر والمماليك، بينما ذكر ابن العبري أن القوة التي أبقاها هولاكو مع كتبغا هي عشرة آلاف مقاتل، أما المؤرخ الأرمني المعاصر سمباط فذكر أن هولاكو عندما عاد إلى الشرق اصطحب معه ابنه أبغا، وقام الأخير بسحب جيشه معه، ولم يأتِ على ذكر تعداد العساكر المنسحبة أو الباقية، وعلى كل حال فإن الجيش المغولي الذي سار إلى دمشق لم يكن- من حيث العدد- كما كان من قبل[1].

أما بالنسبة لعودة هولاكو إلى قراقورم، فقد كانت لها نتائج أثّرت سلباً على مجريات الأحداث؛ لأنه من الأفضل – كقاعدة عسكرية – أن يبقى القائد الذي كان قبل القتال ممارساً لقيادته هو نفسه أثناء القتال؛ لأن المقاتلين اعتادوا على هذه الممارسة، ويكون القائد قد عرف المقاتلين بشكل جيد حتى يوزعهم في الأمكنة المناسبة، يُضاف إلى ذلك أن هذا الجيش بقي بمفرده بدون جيش احتياطي، وبدون قاعدة قريبة يستطيع أن يطلب منها الإمدادات، ولاسيما أن قاعدة هذا الجيش البعيدة أيضاً مشغولة بالقتال الداخلي. وهذا ما أشار إليه المؤرخ الأرمني غريغوري أوف أكانك عندما قال إن الجيش المغولي كان قبيل معركة عين جالوت يعيش حالة عدم استعداد[2].

8_ موقف الصليبيين:

بالنسبة لصليبيي بلاد الشام؛ فمع أن بوهيمند السادس ملك أنطاكية، وهيثوم ملك الأرمن، كانا يشاركان في عمليات الجيش المغولي على الأراضي الإسلامية[3]. وعلى الرغم من الميول الظاهرة

---

[1] الأرمني: تاريخ سمباط، ج3، ص332. رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص532. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص38.

[2] أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص425. وانظر وتر، محمد ضاهر: معركة عين جالوت، ط1، 1989م، ص 116، 117.

[3] الفارس الداوي الصوري، جيرارد أوف مونتريل: أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008م، ص 42-43. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص38.

عند هولاكو نحو المسيحيين، بشكل جعل أحد مؤرخي الأرمن يصفه بأنه صديق ودود للمسيحيين، إلا أن بارونات عكا ظلوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم، في الوقت الذي أدركوا فيه أن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة، بل يريدونهم تابعين للخان الكبير، لذا كان هؤلاء الصليبيون يؤثرون المسلمين ويفضلونهم على العنصر الغريب المتغطرس القادم من الصحارى النائية، هذا العنصر الذي كان سجله في شرق أوروبا مدعاةً للنفور[1].

وقد تطوَّر هذا الشعور عندما هاجم أحد البارونات والمسمى جوليان الصيداوي دورية مغولية، وقتل ابن أخ كتبغا، فسخط المغول وقرروا الانتقام، فهاجموا مدينة صيدا، وأنزلوا بها خسائر فادحة، ولهذا السبب – ولغيره – التزم الصليبيون الحياد في معركة عين جالوت[2].

9_ التحركات الأولى للطرفين:

بعد المشاورات والاجتماعات التي عقدها قطز مع كبار الأمراء والأعيان في مصر خلصوا إلى ضرورة المواجهة مع العدو الغاشم، وكان قبول المظفر قطز لهذا التحدي مبنياً على معرفة الطرق الداخلية لبلاد الشام ومنافذها وفهمهم لطبوغرافية الإقليم أكثر من المغول، وأضف لذلك سماعهم بالأسلوب القتالي الذي يعتمده المغول في حروبهم وحصاراتهم، وعلى عدد الجيش الذي كان متواجداً في مصر بما معه من عتاد وذخيرة جعلته يطمئن بعض الشيء إلى أنهم يمتلكون مقومات النصر بين أيديهم، فاتفق السلطان المظفر قطز مع الأمراء والأكابر على تجهيز العساكر وصمموا على لقاء العدو المخذول وجمعوا الفرسان والرجالة من العربان وغيرهم وخرجوا من القاهرة بأعظم أبهة. خرج قطز على رأس الجيوش الإسلامية في رمضان سنة 658هـ / آب عام 1260م، وجعل في مقدمة جيشه بيبرس[3].

أما على الجانب المغولي فقد انسحب هولاكو لبلاده كما قلنا بسبب موت أخيه، فأسند قيادة الجيش إلى قائده كتبغا، وكان التتار في أرض البقاع وساروا صحبة مقدّمهم كتبغا وأخذوا يتوغلون

---

[1] أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص421. رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص529 – 535.

[2] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص43، 44. أبو شامة، محمد بن عبد الرحمن: الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، الموسوعة الشاملة، ج20، ص410. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص39.

[3] شلبي، محمود: حياة الملك المظفر قطز بطل عين جالوت، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م، ص258. الشاعر: مصر قاهرة المغول، ص45.

في أرض فلسطين الأمر الذي أثار غضب دولة المماليك، فسارع المغول بالإغارة على مدن فلسطين ناشرين فيها الذعر والخوف، فوصلت قواتهم إلى الصلت والخليل وبيت جبريل، ووصلوا في إحدى غاراتهم إلى غزة والكرك، وكانت تلك الحركات بمثابة جس لقوة الدولة المملوكية[1].

10_ بدء المسير:

كان كلا الجيشين يتحرَّك نحو الآخر، وكانت الطليعة التي يقودها الأمير بيبرس تشتبك المرة بعد الأخرى في مناوشات صغيرة مع طلائع المغول لكي تنفك عنها على الفور من جديد، وبذلك أُغريت القوة المقاتلة الرئيسة للمغول بالمجيء إلى حيث كانت القيادة المملوكية تريدها أن تكون، أي عند الينبوع الصغير: عين جالوت مع مرتفعاته التي تكسوها الأحراش[2].

تقع عين جالوت في سهل مرج ابن عامر في الجزء الجنوبي الشرقي منه في شمال فلسطين، يحدها من الشمال الشرقي الناصرة، ومن الجنوب جنين، ومن الجنوب الغربي الكرمل وجبال نابلس، ومن الشرق جبال فقوعة، ووادي جالوت، ومن الشمال الغربي تلال شفا عمرو، وهي قريبة من جبال الفقوعة، وتحيط بها الأنهار والوديان.

وتكثر في المنطقة الينابيع والعيون الصالحة للشرب، مثل عين العاصي، وعين الجندي، وعين البادرية، وعين نصر، وعين موسى، وتحيط بها الجبال والتلال، أما بالنسبة للسهول فأهمها سهل مرج ابن عامر الذي يبلغ طوله حوالي 40 كم شرقاً وغرباً بعرض 20 كم شمالاً وجنوباً.

هذا السهل هو أوسع السهول الموجودة في فلسطين، وأغناها بالتربة والمياه، يميل هذا السهل من الجهة الجنوبية الشرقية من جنين، إذ يتدرج بالانخفاض البطيء باتجاه الشمال الغربي إلى منتصف السهل(إلى جنوب العفولة)، وبالمقابل يتدرج بالميل من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية حتى منتصف السهل أيضاً، وعندما تلتقي الميول تتجه نحو الغرب حتى تصل إلى العجرة، وتكثر في هذا السهل الطرقات والمدقات من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ويسهل فيها السير للراكب والراجل.

---

[1] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص53.

(2) توراو: الظاهر بيبرس، ص87 وما بعد.

ومما لاشك فيه كان هذا السهل هو أنسب مكان للقتال، ولا سيما منطقة عين جالوت؛ لأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس، كما أن المنطقة الشرقية فيها وديان وأحجار كثيرة، وأخاديد تحد من الحركة، وتقيِّد من المناورة، وبالنسبة لسهل بيسان فهو شديد الحرارة، وفيه من السباخ ما لا يؤمن الشروط المناسبة للقتال، لذلك نجد أن اختيار مكان اللقاء كان موفقاً، ناهيك عن أن الجيش، وإن لم يكن جيشاً عظيماً، ولكنه جيش محترف بكل ما تعنيه هذه الكلمة، سواء من حيث التسليح أو التدريب أو المقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي[1].

11_ وقعة غزة:

بدأ مسير الجيش المملوكي انطلاقاً من الصالحية باتجاه فلسطين، فكانت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس الذي تقدم الجيش بفرقة مهمتها استطلاع أخبار المغول، وتمهيد الطريق للقوات الرئيسية الزاحفة خلفه، فسار الأمير بيبرس حتى نزل غزة في شعبان 658هـ/ حزيران 1260م، في الوقت الذي كان بيدرا قائد طليعة جيش المغول أيضاً يتقدم بقواته حتى وصل إلى غزة، وعندما رأى الطليعة الإسلامية بقيادة بيبرس أرسل إلى كتبغا الذي كان بالقرب من بعلبك يخبره بتحركات جيش المسلمين، ويطلب منه المدد، فرد عليه كتبغا يطلب منه الانتظار والثبات في مكانه حتى تأتيه النجدات، ولكن الأمير بيبرس لم يمهله، فبادره بالهجوم وهزمه، ثم طاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، وملك غزة بالقوة، مع الإشارة إلى ما ذكره رشيد الدين الذي قال أن قطز هو الذي هاجم بيدرا عند غزة[2].

تعدُّ هذه المعركة أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول، فقد أفادت المسلمين كثيراً من الجانب المعنوي، وكانت دافعاً قوياً لهم للتوجه إلى عين جالوت ليتسنى لهم اللقاء بشكل أفضل، كما أفادت هذه المناوشة فائدة عظيمة، فقد قدمت للمماليك استطلاعاً قتالياً مباشراً، واختبار لقدرات العدو وأساليب قتاله، كما قدمت معلومات مموهة عن طبيعة الجيش المملوكي وتعداده وتحركاته وقطعه الرئيسية الموجودة مع قطز؛ الذي عرج – قبل الذهاب إلى عين جالوت– إلى عكا أولاً لاستطلاع موقف الصليبيين، طالباً منهم السماح للجيوش الإسلامية باجتياز الأراضي التي

---

[1] المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص40، 41. شراب، محمد: معجم بلدان فلسطين، دار المأمون، دمشق، 1987م، ص557. وتر: معركة عين جالوت، ص81.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ 313/1/2. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج1، ص365، 366. المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص429–430. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص49.

بحوزتهم والتزود بالمؤن؛ فوافقوا، وأكثر من ذلك، عرضوا عليه المساعدة ضد المغول لأنهم كانوا مستاءين من تصرفهم في صيدا، لكنه اكتفى بأن أخذ منهم وعداً بالوقوف على الحياد لا له ولا عليه، ثم وجَّه إليهم تحذيراً بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد إلحاق الأذى بالمسلمين، رجع إليهم وقاتلهم قبل أن يقاتل المغول، لذلك أضحى المماليك في وضع يجعلهم يقبلون تحدي المغول(1).

12_ **الاشتباك:**

قبل معركة عين جالوت لم يشتبك المماليك في معركة مع الجيش المغولي، باستثناء اشتباك الأمير بيبرس سالف الذكر في غزة، غير أن هذا لا يعني بالضرورة أن الجيش المملوكي كان يجهل تماماً أساليب القتال المغولية، فالعساكر الشامية وغيرها من العساكر الإسلامية التي فرت أمام المغول، وتجمعت في مصر، كانت قد اشتبكت مع المغول في معارك سابقة، ومن الطبيعي أن تكون هذه العساكر قد قدَّمت معلومات مفيدة عن الفنون القتالية لدى المغول، زد على هذا أن ابن عبد الظاهر تحدث بوضوح عن أهمية المعلومات التي حصل عليها بيبرس في معركة غزة مع بيدرا، فبين أن رسل بيبرس جاءت بتعليماته التي من خلالها: ((يُنذر الناس، ويعلمهم بقرب العدو، وينبه على عورات العدو، ويقللهم في أعينهم، ويجسرهم على انتهاز الفرصة، وكان ذلك أحد أسباب النصر)) (2).

وبين سمباط الأرمني أيضاً قضية أخرى يظهر أن كانت من ترتيبات النصر، وهي انتشار جواسيس المماليك ينقلون أخبار المغول أول بأول(3).

وقضية أخرى هي أن المظفر قطز حصل قبل المعركة على معلومات مهمة من صارم الدين أزبك، الذي كان مملوكاً للأشرف صاحب حمص، وقد دخل في خدمة هولاكو، فوثق به هولاكو وقرَّبه إليه، ولما غادر هولاكو حلب أوكل لهذا المملوك مهمة استشارية؛ وهي أن يقدم المعلومات لكتبغا وبيدرا، تلك المعلومات التي تساعدهم في دخول مصر ثم أمره بالتوجه إلى كتبغا، فقال هذا المملوك: ((لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ...

---

(1) المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص430. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص 46-47. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص64. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص41، 42. رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص532.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص64. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص42.

(3) سمباط: تاريخ سمباط، ج36، ص 332.

بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرّفهم بأن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، ... وكنت قلت في جملة كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا ذا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان)) [(1)].

بعد أن أنهى السلطان قطز مفاوضاته مع الصليبيين توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي، فاجتاز الناصرة في طريقه إلى عين جالوت، الواقعة بين بيسان ونابلس، وكان كتبغا قد وصل إلى أرض المعركة مسرعاً، وبتعبير رشيد الدين الهمذاني: ((كأنه بحر من اللهب))، وبدأ الأمير بيبرس يناوش المغول، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان في عين جالوت.

كان المصاف الأعظم في يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ/ أيلول 1260م، وكان اللقاء بعد طلوع الشمس، وتحدث صارم الدين عن تفاصيل ما قبل اللقاء، عند قدوم عساكر المسلمين، قائلاً: ((فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا، وظللت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحُسن ما عليهم وجمالهم وهم منحدرون من الجبل، وقال لي: يا صارم ! هذا رنك[(2)] من؟ قلت: سنقر الرومي، ثم ظهرت سناجق صفر، قال: هذا

[(1)] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص53-57. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص43.

[(2)] الرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الأمير فعند ترقيته إلى مرتبة أعلى، وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم وأملاكهم ومراكبهم، وحتى على السيوف والأقواس الخاصة بهم وبمماليكهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص63.

رنك من؟، قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب[1] أولاً فأول وانحدروا من سفح الجبل ... وامتلأ الوادي والبر)) [2].

ويظهر في كتابات المؤرخين ذلك الخوف الكبير من التتار قبيل المواجهة، وذلك واضح في قول المقريزي: ((في قلوب المسلمين وهم عظيم من التتار)) [3].

بكل الأحوال بدأ القتال؛ وكان قتالاً شديداً لم يشاهد أحد مثله من قبل كما عبَّر ابن تغري بردي، فانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر، فحمل السلطان قطز بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة، حتى تحاربوا وتراجعوا وجبر ضعفها، واشتد القتال، والسلطان المظفر يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت، ويكر بهم كرَّة بعد كرَّة.

وعندما رأى اضطراب عسكره، ألقى عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه، فالتفت حوله القوات وحملوا على المغول حملة رجل واحد، فاختل توازن المغول، في الوقت الذي كان فيه الأمير بيبرس قد نصب كميناً للتتار في المنطقة، إذ عمد إلى إخفاء بعض قواته في الأحراش وبين الأشجار المحيطة بعين جالوت لتضليل العدو بطليعة المسلمين، إلى أن وصلوا إلى الكمين الذي أعده لهم الأمير بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسل المسلمون في قتال المغول إلى أن فتح الله عليهم بالنصر، وقتل كتبغا.

انهارت جموع المغول ولاذوا بالفرار، ثم إنهم عادوا وانتظموا مرة ثانية بالقرب من بيسان في مصاف أعظم من الأول، لاحتواء الهزيمة التي حلت بهم في عين جالوت، وكان هذا اللقاء أشد من سالفه في عين جالوت، تزلزل فيه المسلمون زلزالاً شديداً، ثم عاد السلطان قطز يصرخ بشكل سمعه معظم العسكر، وهو يقول: وا إسلاماه، ثلاث مرات، (يا الله انصر عبدك قطز على التتار)، فقويت عزائم المسلمين، وانتهى أمر هذه الواقعة التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة عدة مرات إلى نصر

---

[1] مفردها طُلب ما بين 70- 200 فارس، وهي فرقة أو كتيبة مملوكية خاصة بأمير من الأمراء. دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، 1990م، ص 108.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/1 /313. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج1، ص366. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص43. العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ملحق 3، ص 267-268.

[3] المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص430.

المسلمين وهزيمة المغول، فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلَّى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب لينظر عاقبة المغول، فأقبل العسكر، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم[1].

ويذكر ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت، بل ساق خلف المغول الذين انسحبوا شمالاً عن طريق الساحل فأدركهم عند أفامية وقد تجمعوا ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم أموالاً طائلة، ويقول ابن تغري بردي أن المطاردة استمرت حتى حلب حيث تم تحرير الأسرى منهم، وقتل قادة المغول الذين عُينوا حكاماً على المدن الشامية، وأسروا نساءهم وأطفالهم، وعندما وصلت أخبار الهزيمة إلى هولاكو استبدَّ به الغضب، وأراد إرسال جيش آخر لمحاربة المماليك، غير أن الخلافات الحادة والحروب الأهلية التي وقعت بينه وبين أقاربه من حكام القبيلة الذهبية حالت دون تنفيذ ذلك، وكل ما استطاع فعله هو قتل الملك الناصر صاحب حلب ودمشق، مع أمراء الشام الذين كانوا أسرى عنده[2].

13- من أسباب نجاح المماليك:

أسباب كثيرة متنوعة أسهمت في هذا الانتصار التاريخي لدولة المماليك على المغول، هذا الانتصار الذي لم يكن متوقعاً لدى معظم الأطراف في ذلك الوقت، وفيما يأتي تفاصيل هذه الأسباب.

_ افتقر كتبغا لمفارز الاستطلاع، بينما قام قطز بنشر قواته الرئيسية وإخفائها وتمويهها في التلال المجاورة القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس، ووقع كتبغا في الفخ إذ وضع جميع قواته في ساحة القتال أملاً في حسم المعركة لصالحه بأقصر وقت ممكن، فكان ذلك فرصة لبيبرس ورجاله، فخاض معركة قاسية ثم تظاهر بالتراجع نحو التلال وأسرع كتبغا لمطاردة بيبرس

---

[1] المقريزي: السلوك، ق1، ج2، ص430-431. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص79، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج1، ص366. رشيد الدين: جامع التواريخ، 314/1/2. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص315. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص44، 45.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض، ص 65. رشيد الدين: جامع التواريخ، 316/1/2، 317. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص 166. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص46.

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تم تطويق الجيش المغولي بكامله، وتم قتل قائد المغول كتبغا بيد الأمير جمال الدين أقوش الشمسي[1].

_ قيادة بيبرس القوية، وحنكته وثباته، وحسن إدارته للجيش.

_ كانت معنويات جيش المماليك منضبطة.

_ ظهر مفهوم (أرض الوطن) عند المسلمين في ذلك الوقت.

_ الحماسة الدينية لدى المماليك.

_ الجاسوسية المملوكية الفعَّالة.

_ مهارة المماليك في استخدام الأسلحة.

_ عدم توفر حاجة الخيول المغولية، ونقص الإمدادات لها، وحاجتها الكبيرة للمياه التي لم تتوفر لها كما ينبغي[2].

_ وقد ناقش البعض _ بطريقة أخرى _ أسباب هذا الانتصار، ومن ذلك أن جنود المماليك كانوا مدربين ومجهزين ومنظمين بشكل جيد، على النقيض من جنود المغول الذين كانوا هواة من البدو الرحل المغول.

_ وذكر البعض أنه لا يمكن قهر بلاد الشام لأسباب (لوجستية)، لأن سوريا تفتقر للمراعي الكافية لتزويد الخيول المغولية، بالإضافة إلى افتقارها إلى ما يكفي الخيول من المياه.

---

[1] العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004، ج27، ص384. المنصوري: التحفة الملوكية، ص44، 45. ابن الوردي، عمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1970م، ج2، ص297. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص431. العسلي: فن الحرب الإسلامي، ص236.

[2] John Masson Smith: Nomads on Ponies vs. Slaves on Horses, American Oriental Society، Journal of the American Oriental Society, ،Vol. 118, No. 1 (Jan. - Mar., 1998), pp. 54-58.

_ ويجعل آخرون أن أسباب انتصار المماليك يعود لقوة وكفاءة مماليك القفجاق، منذ أيام الصالح نجم الدين أيوب، والمقصود بهم مغول القفجاق الذين قدموا إلى مصر وأظهروا إمكانيات كبيرة استغلها المماليك بشكل جيد[1].

14_ نتائج معركة عين جالوت:

وهي نتائج مؤثرة جداً على تفاصيل الصراع الإيلخاني المملوكي، كما سيأتي، وهذه أهم النتائج التي تخص هذا الصراع:

أ _ بعد معركة عين جالوت حدثت خلافات عميقة خطرة على وحدة الإمبراطورية المغولية التي تكونت على يد جنكيز خان وأبنائه، ومن ثم توزعت هذه الإمبراطورية إلى أربعة أجزاء: مغول إيران (الإيلخانيون)، ومغول القبيلة الذهبية في الشمال والتي تركزت في حوض الفولجا جنوب روسيا، ومغول آسيا الصغرى (مملكة جغطاي)، ثم أخيراً مغول الصين في أقصى الشرق.

ويهم البحث خاصة أمر الثلاثة الأوائل حيث مارس كل منهم دوره في العلاقات المملوكية ــ المغولية، أو المملوكية ــ الصليبية في الشام أو المملوكية ــ الإفرنجية. ولقد تباين تأثير كل من هذه الأطراف المغولية الثلاثة على هذه العلاقات نظراً لاختلاف درجة وتوقيت انتشار الإسلام بينها ونظراً لطبيعة العلائق فيما بينهم.

ويكفي هنا التذكرة بالأمور الآتية:

– مع بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وبالتحديد منذ العقد الأخير للقرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كانت الإيلخانية والقبيلة الذهبية قد تحولت إلى الإسلام، وكانت الثانية أسبق من الأولى في التحول وخاصة تحت تأثير حاكمهم الشهير بركة خان (1256م– 1267م/ 652هــ– 665هــ)، وتلاهما مغول آسيا الصغرى في الدخول إلى الإسلام.

---

[1] Charles J. Halperin; The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamluks and Ayn Jalut, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 2 (2000), pp. 244-245.

– مارست القبيلة الذهبية دوراً مزدوج الأبعاد في العلاقات الدولية الإسلامية في هذه المرحلة، فهي التي فتحت أراضي روسيا (633هـ– 635هـ / 1235 – 1237م) أي خلال العقدين الثالث والرابع من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ومن ثم كان لها تأثيرها على جذور تفاعل روسيا الحديثة بعد نشأتها مع الإسلام. فمع دخول القبيلة الذهبية الإسلام في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تكونت كدولة إسلامية تضم عدة إمارات وتسيطر على الإمارات المسيحية الروسية وعلى أوروبا الشرقية (من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ومن شبه جزيرة القرم وعلى طول حوض الفولجا وحتى وصلت إلى حدود مملكة النمسا وهددت مملكة ألمانيا)، ولقد أضحت هذه المناطق ــ بعد ضعف وتفرق القبيلة الذهبية ــ عواصم لخانات مسلمة مستقلة، والتي دخلت بعضها في مجال التنافسات العثمانية الروسية منذ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

ومن ناحية أخرى ساعدت القبيلة الذهبية المماليك في صدامهم الصريح مع الإيلخانيين نظراً للعداء بين بركة خان زعيم القبيلة الذهبية وهولاكو ثم أباقا خان زعيم مغول فارس، كما ساعد بركة خان بيبرس في حربه مع الإمارات الصليبية في الشام وكان يعادي القوى والممالك الإفرنجية[1].

– مثَّلت الدولة الإيلخانية أي مغول فارس (والتي أسقطت الخلافة في بغداد) العدو الرئيسي للمماليك، واستمر الصدام بينهم وتكرر حتى بعد إسلامهم، وإن لم يصل إلى معارك حاسمة ومصيرية مثل عين جالوت. كذلك تعاون مغول فارس مع الصليبيين ومع الممالك الإفرنجية ضد المماليك، ولقد انهارت دولتهم بعد أكثر من ثلاثة أرباع قرن من نشأتها.

– أما المملكة المغولية الثالثة في آسيا الصغرى فكانت الأقل في التأثير المباشر على العلاقات الدولية للعالم الإسلامي إلا فيما يتعلق بحدث جلل وهام؛ وهي أنها كانت موطن تيمورلنك المغولي الذي أعاد توحيد المملكة بعد تفككها ثم اجتاح العالم الإسلامي مرة أخرى بعد ما يزيد عن المئة وخمسين عام من بداية زحف جنكيز خان وأبنائه. وبقدر ما كان للزحفة المغولية الأولى آثارها العميقة المباشرة وطويلة الأجل، بقدر ما كان أيضاً للزحفة المغولية الثانية أيضاً آثارها العنيفة على توازن القوى الإسلامية وعلى العلاقات الإسلامية المسيحية[2].

---

(1) مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص19.

(2) مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص20. وانظر بالتفصيل عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول.

ب _ قيل عن هذه المعركة أنها أسقطت الأسطورة التي تقول أن المغول لا يُقهرون، ولكن واقع الأحداث فيما بعد يدل على أن هذه المعركة كانت سبباً رئيساً في إصرار المغول على السيطرة على بلاد الشام، فاستمروا في غزوها من غير يأس.

وقد أشار كثير من الباحثين أن كل الأعمال العسكرية المغولية بعد معركة عين جالوت كانت ردة فعل على هذه الهزيمة ومحاولة عكسها[1].

ج _ تحوّل المغول الإيلخانيون من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع في كثير من الأحوال.

د _ جعلت معركة عين جالوت مغول فارس يحولون العراق إلى قاعدة عسكرية كبرى، لاستغلال أية فرصة للانتقام من دولة المماليك[2].

هـ _ كانت هذه الهزيمة هزيمة نادرة بالنسبة للمغول؛ فمنذ بداية حروب المغول سنة 616هـ / 1219م حتى سنة 658هـ/ 1260م لم ينهزموا، فاستغلوا ذلك كعامل نفسي كان له أثره في إرهاب خصمهم ودفعه إلى الاستسلام، فمعظم القلاع التي سيطروا عليها خضعت لهم عن طريق المهادنة، ولم يقاومهم إلا القليل، وذكر ابن الأثير أن الخوف من المغول بلغ في نفوس معاصريهم درجة أصبح فيها الرجل الواحد منهم يدخل على القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم الواحد بعد الآخر، لا يتجاسر أحد أن يمد يده على ذلك الفارس[3].

و _ أدت معركة عين جالوت إلى خلاص بلاد الشام من أيدي المغول، فأقيمت الخطبة باسم قطز في مساجدها، فصار أول من ملك البلاد الشامية واستتاب بها من ملوك الترك[4].

---

[1] Halperin; The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamluks and Ayn Jalut, Vol. 63, No. 2 (2000), pp. 244-245.

(2) القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص399.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص263. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص74. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص337. موركان: مغولها، 188.

[4] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص 82، 83. النويري: نهاية الأرب، ج2، ص475–477. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص316.

ز _ كما أن حكم المماليك لمصر جاء كنتيجة لغزو خارجي هو الحملة الصليبية السابعة، فإن حكمهم لبلاد الشام جاء أيضاً بالطريقة نفسها، نتيجة للغزو المغولي، فهذا الانتصار كان خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة التي تتلمس مختلف الوسائل لتدعيمها، ناهيك عن أنها بدأت تحتل مرتبة إجلال واحترام من قبل العالم الإسلامي، فمع قيام هذه السلطنة كان الناس يرفضون حكم المماليك، ولا يريدون إلا حاكماً حراً مولوداً على الفطرة، وفي هذا النصر أثبت المماليك أنهم أهل للحكم، فتروي بعض المصادر أن المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول في اليمن حجَّ بجيش كبير في السنة التالية للموقعة سنة 659هـ/1261م، وفي الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر[1].

ح _ أنزلت هذه المعركة القاهرة منزلة الزعامة السياسية للمسلمين بعد أن أصبحت مقر الخلافة العباسية.

ط _ كان نصر عين جالوت باعثاً على متابعة المماليك المعارك مع المغول ومع الصليبيين، فأوقفوا مدهم غرب الفرات وآسيا الصغرى، وقضوا على أحلامهم التوسعية في بلاد الشام، واستطاعوا تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

ي _ لقد لهذه المعركة نتائج سياسية حاسمة على الشام ومصر؛ فقد غدت الشام تابعة لحكم المماليك في مصر بعد أن كانت مصر تابعة لها في عهد الأيوبيين، وبذلك قامت دولة المماليك في مصر وهي دولة المماليك البحرية أو الأولى، وتم تثبيت دعائم حكم المماليك في حكمهم بعد أن أثبتوا جدارتهم في النصر، وتراجع المغول عن هدفهم في غزو مصر كما تراجعوا عن سورية بينما استقروا في فارس والعراق يعدون العدة لغزو الشام إذا سنحت لهم الفرص.

ك _ عندما أرسل هولاكو من طرف منكو لإخضاع شعوب آسيا الشرقية لم تكن الحدود المتعلقة بالأقاليم والمناطق التي سوف يحكمها واضحة، ولعله حسب الأصول كان مأموراً بتوسيع مناطق وأقاليم الخان الكبير وليس لإيجاد ملكية وسلطنة خاصة به، ولو أنه تمت عملية التوسيع بشكلها الكامل لرأينا عائلته تحكم مصر وأثيوبيا والسودان علاوة على إيران والعراق، ولكن الموت المفاجئ وغير المتوقع

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص13. الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بيسوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط2، 1983م، ج1، ص124.

لمنكوقاآن والهزيمة النكراء في عين جالوت خفَّفت وقلصت من أنشطته، وجعلتها منحصرة في الهضبة الإيرانية والمناطق المجاورة لها[1].

ل _ قلق الغرب من هزيمة هولاكو في عين جالوت، وقلقوا الموت السريع للخان قبل الوفاء بوعده بفتح بيت المقدس، وإلزام الصليبيين بذلك، وصحوة العالم الإسلامي بعد هذا الانتصار العظيم، وسعيهم لمعالجة وتعويض الأضرار المتلاحقة التي أصابتهم من المغول.

م _ الهزائم الملاحقة للغرب على الضفة الشرقية للبحر المتوسط وفقدان المناطق المحتلة واحدة بعد الأخرى، إذ لم يخسروا فقط السيطرة على بيت المقدس وإنما بدؤوا يفقدون الأمل باستعادته يوماً بعد يوم.

ن _ الانتصارات الكبيرة لسلاطين مماليك مصر في المنطقة والتي تبعت الانتصار على المغول بإخراج الصليبيين من أنطاكية الذين لم تقم قائمة لهم بعده أبداَ.

س _ وفاة لويس التاسع سنة 661 هـ/1270م الذي كان يريد تعويض الهزيمة التي لحقت به من المماليك مخالفاً بذلك قادته الذين ذكَّروه بالهزيمة الأولى، ولكنه تجاهل التذكير، وانطلق إلى تونس حتى يعود بعد السيطرة عليها لتنظيم حملة على مصر، ولكن انتشر المرض والوباء بين جنوده حتى أنه توفي بذلك المرض أيضاً.

فكل هذه الأحداث أخمدت الحروب الصليبية وكسرتها، وخلقت انقلاباً وتحولاً في سياسة أوروبا، فقد استنتج الملوك الأوروبيون وبعد مدة طويلة من الزمن بأن المغول ليسوا صالحين لتحقيق أهدافهم التوسعية في المشرق وإنما يعدون منافسين لهم[2].

15_ وفاة هولاكو خان:

في إيران حيث استقر هولاكو في مدينة مراغة، نشأ بينه وبين ابن عمه بركة خان صاحب القبيلة الذهبية في تركستان خلاف بسبب إسلام بركة وتعاونه مع السلطان المملوكي بيبرس، وكان الحد الفاصل بين بركة خان وهولاكو جبال القفقاس، وعندما حاول هولاكو مهاجمة القوقاز انقضَّت عليه قوات بركة خان ومزَّقت جيشه وأوقفت زحفه، وهذا الذي حدث من القتال بين بركة خان

---

[1]ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص127.

[2]بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص302، 303.

وهولاكو هو الذي صرف هولاكو عن توجيه الحملات إلى بلاد الشام ليثأر لوقعة عين جالوت، ولم يتمتع هولاكو بفسحة من العمر لينظم البلاد التي احتلها، إذ لم يحكم إلا بضع سنوات بعد استيلائه على بغداد.

كان هولاكو محباً للعمارة، وقد بنى كثيراً من الأبنية، كما كان تواقاً للعلم والحكمة وخاصة العلوم التطبيقية، وكان يزيّن بلاطه بالعلماء والحكماء، كما كان يميل إلى تعلم الكيمياء، وكان رجال هذا العلم يحظون دائماً برعايته، فاجتمع عنده طائفة من علماء العالم وفضلائه، ومنهم المؤرخ الفارسي صدر الدين الجويني، والعالم الفلكي الشهير نصير الدين الطوسي، وجمع هولاكو مرَّة حكماء مملكته وأمرهم أن يرصدوا الكواكب.

انصرف هولاكو في السنوات الأخيرة من حكمه إلى الإصلاح، فأحاط نفسه بالعلماء والحكماء، وأعاد إعمار بغداد، وشيَّد فيها بعض القصور، كما بنى عدداً من المعابد البوذية على ضفاف بحيرة أرومية، وبنى قلعة على شبه جزيرة شاهو شرق البحيرة ووضع فيها كنوز العباسيين وغيرها من الأموال.

وفي التاسع عشر من ربيع الآخر سنة 663هـ /1265م توفي هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان وهو في الثامنة والأربعين من عمره بعد مرض أصابه وبعد حكم دام سبع سنوات قضى معظمها في الحروب، وترك من الأولاد سبعة عشر ولداً سوى البنات، وخلفه على العرش ابنه الأكبر أبغا.

وتعددت الروايات عن مكان دفنه، فقيل دفن بالقرب من كورة مراغة، وقيل إنه حمل إلى قلعة تلا ودفن فيها، وقيل دفن في جزيرة كابودي في بحيرة أورميا، توفي بعد أن كانت الدولة الإيلخانية بفارس والعراق قد امتدت من نهر جيحون إلى المحيط الهندي ومن السند إلى الفرات وبعض أراضي آسيا الصغرى[1].

---

[1] ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص136 وما بعد. سرور، جمال: دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة، 1960م، ص110. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة، سوريا، بحث: هولاكو. الصلابي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ص365. بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص355. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص299.

الفصل الثالث
سيطرة المماليك على بلاد الشام
ومظاهر اهتمامهم بها

كانت الشام _ بلا أدنى شك _ محط اهتمام دولة المماليك ودولة مغول فارس بشكل كبير جداً، ويمكن رصد هذه الأهمية من خلال تفاصيل كثيرة، وهذه أبرزها:

أولاً _ التفاعلات الدولية والتوجه المغولي لبلاد الشام:

كانت الدولة المملوكية ولمدة ثلاثة قرون تقريباً الفاعل المركزي في التفاعلات الدولية، فإذا كانت عناصر القدرة الاقتصادية للدولة المملوكية قد استندت إلى نصيب كبير من التجارة العالمية، وإذا كانت عناصر القدرة العسكرية قد أبرزت ما كان للجيش المملوكي من فعاليات، فإن عناصر القدرة المملوكية تمثلت في الشبكة الممتدة والمتفرعة من العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولة المملوكية وأطراف دولية مختلفة في الشرق الإسلامي وفي الغرب الإسلامي وفي الشمال مع الروم والإفرنج.

كما تمثلت أهم عناصر القدرة السياسية في وجود مركز الخلافة الإسلامية في مصر وامتداد نفوذ المماليك في مصر والشام إلى الحجاز، كما أن ملوك المسلمين الأقوياء في أرجاء المعمورة الإسلامية، وإن كانوا لم يدخلوا مباشرة في دائرة نفوذ وهيمنة الدولة المملوكية (مثل أمراء آل عثمان وأمراء الهند المسلمين)، إلا أنهم كانوا يلتمسون التقليد والتفويض بالحكم على رعاياهم من الخليفة العباسي في مصر[1].

ولقد حدث تطور في طبيعة الأطراف الأوربية مصدر التهديد للإسلام ومن ثم حدث تطور في ساحات وقضايا المواجهة، ولقد نتج عن هذا التطور غياب بعض هذه الأطراف وظهور البعض الآخر، فنجد أن الدولة البيزنطية، التي ظلت طوال عدة قرون تمثل الحصن الذي توقفت عنده الموجة الأولى من الفتوح العربية الإسلامية، نجد أنها كانت تمر بمدة الاحتضار، وفي المقابل وفي أقصى الغرب ومن بين الممالك الإفرنجية اللاتينية تبلور ظهور مملكتي أراغون وقشتالة ثم إسبانيا والبرتغال بعد ذلك[2]، وهما اللتان توجا تفاعلاتهما المتوسطية مع المماليك ودويلات شمال أفريقيا بالهجوم والالتفاف حول العالم الإسلامي، كما تزامن في الوقت نفسه ظهور إمارة موسكو نواة روسيا القيصرية.

---

(1) انظر مصطفى، نادية، وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص7. ماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1982م، ج1، ص34 وما بعد.

(2) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص170 وما بعد.

بعبارة أخرى: بقدر ما شهد القرن الأول للعصر المملوكي نمو مراكز قوة إسلامية جديدة فلقد شهد القرن الثالث منه نمو مراكز قوة غربية جديدة أسهمت في فتح مساحات جديدة للمواجهة اكتسبت معها هذه المرحلة سمات خاصة انعكست بقوة على أنماط التفاعلات الدولية الإسلامية والغربية، والتي أضحى محورها إما استرداد أرض غربية حكمها الإسلام (الأندلس) أو استقطاع أراضي وثنية فتحها الإسلام (آسيا الوسطى) [1].

ومن خلال هذه التفاعلات ظهرت قوة جديدة منافسة على بلاد الشام هي دولة مغول فارس الإيلخانيين.

ثانياً _ الهيمنة المملوكية على بلاد الشام بعد عين جالوت:

من أهم مظاهر اهتمام المماليك ببلاد الشام وتركيزهم عليها أنهم توجهوا إلى مدنها بسرعة كبيرة مباشرة بعد معركة عين جالوت.

فبعد هذا الانتصار توجه قطز مباشرة نحو دمشق ودخلها، ثم سيطر على سائر بلاد الشام من الفرات إلى حدود مصر، ثم استناب نوابه على كل من دمشق وحلب وحماة والمعرة والسلمية والساحل وغزة، موسعاً بذلك الأراضي والبلاد التي يسيطر عليها المماليك ومحققاً وحدة بلاد الشام ومصر من جديد.

وفي التفاصيل: سار السلطان قطز إلى دمشق، بينما كان بيبرس يتعقب بجزء من الجيش المغول الهاربين، وبالقرب من حمص ألحق بهم وبالنفر الذين يبلغون نحو ألفي رجل سيَّرهم هولاكو في هذه الأثناء بغية الدعم، هزيمة أخرى.

وبعد يومين من معركة عين جالوت، وصل خبر انتصار المماليك إلى دمشق، فغادر زين الدين الحافظي _ المعيَّن حاكماً مغولياً _ المدينة بأسرع ما استطاع، وهرب إلى البلاط المغولي.

ثم دخل الأمير جمال الدين محمد الصالحي دمشق، بأمر من السلطان قطز، وأعاد النظام إلى نصابه.

ثم دخل السلطان قطز المدينة، واتخذ من القلعة مقراً له، وكان قد غدا بانتصاره في عين جالوت، سيد الشام أيضاً، وبات في وسعه الآن أن يقدم على اتخاذ الإجراءات الإدارية الضرورية التي كان

---

(1) مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص10.

يفترض أن تجعل الشام تندمج في الدولة المملوكية المركزية التي سوف تحكم من القاهرة زهاء ثلاثة قرون[1].

وجرى تثبيت معظم أمراء الشام في إقطاعاتهم، واقتصر فقدان المكانة على أتباع كتيبة القيمرية الذين ظلوا معادين للمماليك منذ وقت بعيد، وتم تقسيم إقطاعاتهم بين مماليك السلطان الصالح أيوب وأيبك السابقين.

كما تصرف قطز تصرف المجامل المتلطف تجاه أمراء الشام الجزئيين الباقين على قيد الحياة من الأيوبيين، وتم تثبيت الملك الأشرف ملك حمص، الذي كان أسدى معونة لا تقدر إلى المماليك بانقلابه من معسكر المغول إليهم في معركة عين جالوت، في إمارته، مثلما حدث للمنصور الثاني ملك حماة، أو المغيث عمر ملك الكرك، ولكن السعيد حسن أمير بانياس وحده أُعدم، لأنه ذهب في تعاونه مع المغول إلى حد بعيد[2].

لقد أدرك قطز أهمية بلاد الشام وأهمية استقرار الحكم وقوته فيها، لذلك إما أن يكون تصرف فيها على هذا النحو المتلطف بدافع السماحة والشهامة، وإما عن روية سياسية.

والحق أن الأمراء الأيوبيين قد كانت استُلِبَت منهم تلك الاستقلالية، وباتوا مرتبطين بمجمل الدولة، ولكن ربما كان قطز يخشى مع ذلك من بعض الصعوبات على بلاد الشام. وكانت البنية الداخلية لدولة المماليك لما تترسخ بعد مثلما حدث بعد بضع سنوات في عهد بيبرس.

ولو طرد قطز الأمراء الأيوبيين من حيث كونهم ممثلين أسرة حاكمة شرعية مستقرة منذ عهد بعيد، أو أمر بإعدامهم، لكان من الممكن أن يسفر ذلك في النهاية عن اضطرابات في حماة وحمص والكرك.

وكي يحافظ قطز على قوة أهم مدينتين استراتيجيتين في الشام: دمشق وحلب، وضعهما تحت حكم نواب، فاستناب على حلب المظفر علاء الدين يوسف السنجاري، وعلى دمشق علم الدين سنجار الحلبي، ومعه مجير الدين خشترين الكردي.

---

(1) انظر المنصوري، بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص43، 44.

(2) توراو: الظاهر بيبرس، ص86، 87.

وبعد أن ضبط السلطان قطز في دمشق، بهذه الطريقة، شؤون الشام، أراد أن يسير في الأصل بنفسه إلى حلب، ليطمئن إلى حسن سير الأمور في المدينة، غير أنه تخلى عن هذا المقصد، حين علم من أحد الوشاة أن بيبرس ورهطه من البحرية يمكرون به ويدبرون له السوء، فقرر قطز أن يعود أدراجه إلى مصر، حيث بات هو وخلصاؤه من ناحية، وبيبرس ورهطه من البحرية، من ناحية أخرى، يرقب كل منهما الآخر في شك كله سوء ظن(1).

ثالثاً _ عين جالوت وأهمية بلاد الشام بالنسبة للمماليك:

من أهم نتائج معركة عين جالوت تلك النتائج المتعلقة بالصراع المملوكي الإيلخاني على بلاد الشام، ومن أهمها:

_ تم بموقعة عين جالوت أول الأمر وقف المزيد من توغل المغول في الشرق الأدنى.

_ ولم يكن من الممكن التفكير في هجوم انتقامي في تلك اللحظة.

_ ولم يستطع هولاكو أن يصب جام غضبه من جراء المعركة الخاسرة إلا على أسراه، فقتل الناصر يوسف، وأمر بإعدام الأمراء الأيوبيين الآخرين.

_ والحق أن السلطان بيبرس كان عليه، فيما بعد، أن يدخل في حساباته السياسية على الدوام الخطر الناجم عن المغول في فارس، لذلك كان اهتمامه يتوجه دائماً إلى إنشاء جيش شديد البأس ليضرب المغول مرة أخرى بعد ذلك أيضاً، ضربة إبادة، أي بعد وفاته، في عهد السلطان قلاوون، عام 680هـ / 1281م عند حمص.

_ وكان هو ومعاصروه يعون الأهمية التاريخية لمعركة عين جالوت.

---

(1) انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، مج2، ج6، ص 112 وما بعد، ابن كثير: البداية والنهاية، ط 1994م،، ج13، ص 182 وما بعد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص 67 – 72. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص427 – 433. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 208. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 77. توراو: الظاهر بيبرس، ص87.

_ وبعيد تسلمه زمام الحكم أمر بيبرس بإقامة نصب تذكاري بالانتصار المملوكي، وكان ما فات المماليك من الشرعية _ من حيث النظرة إليهم أنهم غاصبين السلطة وأزاحوا الأيوبيين عن العرش _ قد أحرزوه لأنفسهم بانتصارهم في عيون المسلمين، بصورة جزئية على الأقل في ميدان المعركة(1).

_ قام الظاهر بيبرس بإجراءات تدل على إدراكه لأهمية بلاد الشام وحرص المماليك على تثبيت حكمهم فيها، ووعيهم للأخطار المحيطة بها، فلقد أظهر المماليك تفهماً كبيراً للخطرين الصليبي والمغولي، واستعدوا لذلك، فالظاهر بيبرس أقام خطاً دفاعياً قوياً على الحدود الشرقية لدولته، وشحنه بالرجال والعتاد وأحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة، كما أقام خطاً دفاعياً آخر يمتد من الشوبك والكرك جنوباً إلى أعالي العاصي شمالاً، كي يقف في وجه هذين الخطرين معاً.

فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية، واجتاحوا مدنه، وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية. أما المغول فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم إلى بلاد الشام والديار المصرية، ولكن سرعان ما تتصدى لهم القوات المملوكية فيعودوا القهقرى إلى بلادهم(2).

رابعاً _ أهمية الشام للمماليك، واستراتيجيتهم فيها، وفضلهم عليها، ومشاريعهم فيها لمواجهة المغول والأخطار:

يمكن القول أن المماليك شنوا حروباً قاسية على الإمارات المغولية والصليبية معاً، طالت أكثر من خمسين عاماً. وبحلول العام 712هـ / 1312م زال الخطر الكبير عن الجبهتين كليهما، ودخلت الدولة المملوكية حقبة من الرخاء والاستقرار دامت حتى نهاية القرن تقريباً، حقبة من السلام والازدهار متألقة بالمكاسب الثقافية والاقتصادية على السواء، أعقبت شدائد النصف الأول من القرن.

ثم انتهت هذه الحقبة الرائعة من التاريخ بدورها حوالي عام 791هـ / 1388، حين أغرقت الزمر المملوكية الطموحة القاسية القلوب الدولة في ربع قرن من الحروب الأهلية المثقلة بالآلام كما عبَّر المستشرق لابدوس.

---

(1) توراو: الظاهر بيبرس، ص85، 86. وانظر وتر: معركة عين جالوت، ص385 – 410. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص358.

(2) غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص35.

فلقد جابه المماليك في بلاد الشام المغول والصليبيين، وعززوا الانطباع الحسن الذي أحدثته انتصاراتهم بدعم سخي للفئات الدينية ولمؤسساتها التربوية والدينية، وبتقيد يقظ بالعادات والشعائر المناسبة للحكام المسلمين(1).

وقد حلل المستشرق لابدوس أهمية ما قام به المماليك للحفاظ على بلاد الشام، فذكر أن دمج بلاد الشام مع مصر كان عملاً يدل على القوة والدهاء، ولم تكن بلاد الشام أبداً في تاريخها محكومة هذه المدة الطويلة وبمثل هذه الصرامة من جانب مصر، وقلما كانت هاتان المنطقتان حميمتين بهذا الشكل الجيد ضد القوى الخارجية، فكانت دمشق تقوم بدور الموقع المتقدم لتصد عن مصر، وكانت حلب تدافع عن قلب البلاد الشامية. ومن أجل حماية الداخل ضد أي هجوم من قبل الأوروبيين أقيمت قلاع ساحلية في المدن الباقية، كما زرعت السهول بالشعوب الكردية والتركمانية المولعة بالحروب، وأغلقت بلاد الشام في وجه العالم الخارجي، ورسَّخ النظام السياسي والديني الذي فرضه المماليك وضعها التاريخي لقرنين ونصف القرن من الزمان، إلى أن جاءت غزوات العثمانيين فحكمت بالتالي تجربة المدن الشامية.

وأصبحت دمشق بعد أن سيطر عليها المماليك عام 659هـ / 1260 عاصمة ثانية للدولة ومركزاً إدارياً للشام.

وغدت حمص وغزة _ اللتان كانتا سابقاً إقليمين مستقلين _ خاضعتين إدارياً للشام، وكذلك غدا القسم المتبقي من فلسطين.

وجرى هنا تنظيم الجيوش المملوكية بغية القيام بحملات ضد الإمارات الصليبية وضد المغولية.

وأصبحت دمشق أيضاً نقطة الالتقاء للاتصالات المملوكية في الشام التي تنطلق منها طرق البريد شمالاً إلى حمص وحلب، وغرباً إلى المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وطرابلس، وإلى الرحبة على جبهة الصحراء الشرقية، وإلى صفد في فلسطين والكرك.

وفي عام 714 – 715هـ / 1314 – 1315م، طُلب إلى جميع حكام الشام أن يتصلوا بمصر عبر دمشق.

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص33 – 35.

كانت هذه الأوقات جيدة بالنسبة لدمشق، فقد نشطت الحياة العامة الانفعالية الزاخرة بالاستعراضات والمهرجانات والاحتفالات، حيث استلزمت زيارات السلاطين والجيوش استعراضات عسكرية، ومهرجانات رياضية، وصلوات جماعية[1].

وهنا يذكر ابن طولون عن دمشق قولاً يدل على ما ذكره البحث أعلاه، يقول: «أما صفتها فإنها من أحسن بلاد الشام مكاناً، وأعدلها هواء، وأطيبها نشراً، وأكثرها مياهاً، وأغزرها فواكه، وأوفرها مالاً، وأكثرها جنداً، ولها ناحية تعرف بالغوطة، طولها مرحلتان في عرض مرحلة، وتشتمل هذه الغوطة على خمسة آلاف بستان وثلاثمئة وخمسة وأربعين بستاناً، وعلى خمسمئة وخمسين كرماً، وهي من شرقي دمشق وشماليها بها ضياع كالمدن؛ مثل المزة وداريا وحرستا ودمر وبلاس وبيت لاها وعقربا، وبها كلها جوامع»[2].

ولقد جعل المماليك من دمشق ملجئاً للسكان المحاصرين من أهالي العراق وبلاد ما بين النهرين والأناضول وشمالي بلاد الشام، وجلب المهاجرون معهم خبرات إدارية وتجارية قيمة جداً، ومهارات تقنية وحرفية، وكان بينهم مجموعة من الفقهاء وعلماء الدين الذين ساعدوا على تدشين عصر من التعليم المميَّز في دمشق[3].

وإن أكبر دور قام به العلماء المهاجرون بالتعاون مع أقرانهم من علماء مصر والشام، دور يتجلى في تحديهم لغزوات المغول المدمرة، حين بذلوا جهوداً عظيمة لإعادة جمع أكبر قدر ممكن من العلوم ــ بعد إحراق التتار الكتب وإغراقها وإتلافها ــ خوفاً على نسيان العلم أو ضياعه، فظهرت مئات من المؤلفات في كل العلوم والفنون، وتمثَّل جزء من هذه الجهود في كتابة الموسوعات التي كانت ميزة من ميزات ذلك العصر، فحُفظ من خلالها الكثير من العلوم حيث ضمت مواد تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية وبيوغرافية، فاستُدرك بها وبغيرها ما فُقد من العلم.

---

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص35 – 37.

(2) ابن طولون، محمد بن علي: ضرب الحوطة على جميع الغوطة، النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بمكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق، وهي منقولة عن مكتبة جامعة ليدن [Bibliotheque de runiversite de Leyde. M S. arabe; 1862 Catal. Cadicum arabicorum ll p. 10 n814]، ص2.

(3) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص39.

وقد أشعر الغزو التتري العلماء بأنهم مسؤولون عن تدوين العلم من جديد، فانطلقوا نحو تحقيق هذا الهدف، فساهموا في التأليف والتعليم والإفتاء والقضاء، وبذلك انتقل العلم والتعليم ـــ بعد انحلال نظام الدولة الإسلامية وسقوط عاصمة الخلافة بغداد ـــ إلى مصر والشام وتحت رعاية المماليك[1].

ويأتي في مقدمة العلماء الوافدين إلى مصر والشام العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، الذي وصل إلى مصر والشام، ودرَّس في الجامع الأزهر وفي الجامع الأموي[2].

ومن مظاهر أهمية الشام بالنسبة للمماليك، ازدهارها في عصرهم؛ إذ كان من صالح المدينة أن اندمجت في دولة المماليك، واستأنفت النمو الشديد المستمر الذي بدأ في أيام الأيوبيين، بالرغم من الحروب الدائمة.

وفوق ذلك كله، فإن مجرد وجود القوات المملوكية كان في مصلحة الحياة الاقتصادية للمدينة، فالحامية الكبرى والمرور المستمر للجيوش المصرية أدى إلى تجارة مفعمة بالنشاط والحيوية، فصارت المدينة أسواقاً تلبي حاجات الجنود المنتقلين من قلب المدينة إلى القطاع الشمالي الغربي خارج الأسوار.

ووفَّر الإنفاق على الجيوش من أجل تزويدهم بالمؤن والدروع والأسلحة والثياب ووسائل الترفيه وأجهزة سروج الخيل والحيوانات فرص العمل والمعيشة لعدد هائل من الحرفيين والتجار الشاميين.

---

(1) النهار، عمار: تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، 2013، 2014م، ص51، 52. وانظر عن هذا الموضوع: ابن الوردي، زين الدين عمر: تتمة المختصر في أخبار البشر، تح أحمد البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1970م، ج2، ص308. ابن شداد، محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تح دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي، 1953م، ج1، ق1، ص1، 2. ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1966م، ج1، ص59. مصطفى، شاكر: مدينة العلم آل قدامة والصالحية، دمشق، دار طلاس، ط1، 1997م، ص7، 64ــ 66.

(2) ابن حجر، أحمد بن علي: إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م، ج5، ص327ــ332. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ج4، ص146.

وكسبت دمشق الشهيرة بمهارة حرفها رعاية السلطان والأمراء الكبار من أجل منتجاتها الترفيهية؛ فالنحاس المزخرف، والأدوات النحاسية، والأقمشة الفاخرة، والحرائر والسروج والأقداح الزجاجية المطلية بالذهب، كانت بين المنتجات المميزة للمدينة.

وقد عزَّز ازدهار المدينة بناء المؤسسات الدينية والتربوية والخيرية وأوقافها. وتدفق فائض الثراء في النظام على بناء جوامع جديدة ومدارس وأماكن عبادة، الأمر الذي لم يوفر العمل للبنَّائين والمؤثثين فحسب، بل خلق عملاً دائماً وأوقافاً للفئات الدينية.

وفي المدة بين 658هـ/ 1260 و710هـ/ 1311- 1312م جرى تأسيس أو ترميم حوالي ثلاث وأربعين مؤسسة بما فيها المدرسة الظاهرية ومقام السلطان بيبرس. وتأمَّن بهذا تفوق الدمشقيين العلمي في الشام(1).

خامساً _ نمو المدن الشامية في دولة المماليك:

كان الأمراء المماليك يضطلعون، بين الفينة والفينة، بتطوير أحياء بكاملها، أو حتى بإنماء مدن صغيرة، وبين عامي 700 - 709هـ / 1300 – 1310م، كان الأمير اسندمر حاكماً لمدينة طرابلس التي أعيد بناؤها من جديد، فمنحها هو نفسه أوقافاً مكونة من الجوامع والمدارس والحمامات والخانات والأسواق. وفي 711هـ / 1311م بنى الأمير سنجر الجاولي في الكرك قصراً وحماماً ومدرسة وخاناً ومستشفى أو جامعاً، وهذه جميعاً تكوّن العناصر الأساسية لمدينة كاملة. وفي عام 824هـ / 1421م

---

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص39، 40. وانظر تفاصيل ذلك: العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دوريتيا كرافولسكي، قطعة منه بعنوان: مملكة مصر والشام والحجاز، المركز الإسلامي للبحوث، ط1، 1986م، ص 78 وما بعد. ابن شاهين، خليل: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، القاهرة، دار العرب، ط2، 1988م، ص23. العلبي، أكرم: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1982، ص237. عباس، إحسان: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1998، ص129.

أعيد بناء صور من قبل أحد الأمراء الذي أنشأ تحصينات جديدة وأسواقاً، كما أحدث الأمراء أيضاً أحياء في بيروت والقاهرة بإنشائهم قصوراً، وتأمين المياه، وشبكة لتصريف المياه[1].

ومن جهة أخرى، أسهم الأمراء بقدر في بناء المؤسسات الدينية ومنحها أوقافاً، وكان هذا القدر كبيراً إلى درجة استلزمت تفسيراً خاصاً، فلقد كان في دمشق في عصر المماليك، مئة وواحد وسبعون عملاً: إنشائي أو إعادة إنشاء أو ترميم لمساجد أو مدارس أو كليات أو أماكن تعبد للمتصوفين، كان مانحوها معروفين. وبالطبع، فقد فات مؤرخي الأحداث ذكر مشاريع أخرى عديدة، غير أن هذه المشاريع، بحكم الظروف أو الحاجة أو الاضطرار، يمكن أن تكون أقل شأناً أو أكثر غموضاً. وكان بين المئة والواحد وسبعين مشروعاً تلك، اثنان وثمانون مشروعاً عطاءات من الأمراء، وعشرة موّلها السلطان. وقد بدأ التجار وأناس كانوا تجاراً وموظفين رسميين معاً خمسة وعشرين مشروعاً، والموظفون الرسميون أحد عشر مشروعاً، والقضاة ثلاثة عشر مشروعاً، وعلماء آخرون ثلاثين مشروعاً. وهكذا يتضح أن نصف المشاريع تقريباً تحمّل أعباءها الأمراء، والحكام وموظفو الضرائب بخاصة، في حين كان العلماء فيما يخصهم مسؤولين فقط عن ربع المشاريع الإنشائية[2].

وكانت الحالة في حلب مشابهة تماماً، إذ كان القسم الأعظم من المعيشة الدينية والتربوية والإنسانية للمجتمعات المدينية مقدَّماً هبات من الأمراء والنظام[3].

وكانت حلب والقاهرة ودمشق معقدة اجتماعياً ومدناً كبيرة بالقياس على الأزمنة قبل الحديثة، وإن زوّار دمشق في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين خمّنوا عموماً عدد سكانها بحوالي 100.000، واتفقوا على أن القاهرة كانت أكبر بكثير. ولكن الإحصاءات الأكثر دقة المستقاة من الإحصاءات العثمانية الرسمية التي أجريت بعد مضي قرن من الزمن أي بين 927هـ / 1520م و 937هـ 1530م ذكرت أن عدد سكان دمشق بلغ حوالي 57.000، وسكان حلب حوالي 67.000 في عام 927هـ / 1520م، و 57.000 بعد مضي عقد من السنين. أما بالنسبة للقاهرة فلم يكن هنالك إحصاءات معروفة.

---

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص127- 128. وانظر تفاصيل ذلك عند النعيمي، عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، إعداد عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2015م.

(2) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص127، 128.

(3) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص129.

وقسمت الأسوار القديمة هذه المدن إلى قطاعين رئيسين داخل التحصينات وخارجها. وكان في دمشق، بالإضافة إلى ذلك، ضواحٍ كبرى مثل الصالحيَّة وتقع على مقربة من المدينة الأساسية، وقرى واسعة في واحات الفاكهة المجاورة التي تسمى الغوطة، وقد لامست المدينة نفسها، وكان بالإمكان عدها أيضاً جزءاً من دمشق الكبرى. ومع أن هذه القرى كانت زراعية في المقام الأول، فلم تكن مجتمعات فلاحيَّة، بل كانت مجتمعات مدينية معقدة. فكانت المزة وداريا مثلاً، مواقع مساجد ومدارس. وهناك أيضاً كان يقيم العلماء الدمشقيون البارزون والتجار وعائلات أصحاب الأملاك[1].

وكانت دمشق في عصر المماليك تحظى بنظام مائي متكامل وواسع، فأنهار بردى وقنوات وبانياس كانت تزود المدينة بواسطة مجموعتين من الترع، واحدة للماء الصافي، وأخرى للمياه المصرَّفة. ومنها جُلبت المياه إلى المساجد والمدارس، والحمامات، والنوافير العامة، والمنازل الخاصة[2].

وقد تم في عهد تنكز (712 – 741هـ / 1312– 1340م) تنظيف هذا الجهاز المائي وإصلاحه، وفحصه فحصاً دقيقاً، وذلك حرصاً على تأمين المياه لوسط المدينة، وقد كلَّف هذا المشروع 300.000 درهم.

لقد مُدَّت الأقنية إلى أحياء جديدة في العام 902هـ /1497م، وحصلت إصلاحات أخرى وتحسينات حوالي ذلك التاريخ. أنشئت خلاف ذلك، نوافير عامة بين الحين والآخر لتزيين المدينة أو جرى تجديدها أو ترميمها من قبل الأمراء والموظفين الرسميين.

أما في حلب فقد كان استثمار المياه أمراً مختلفاً جداً، فلقد عانت حلب، على عكس دمشق، من هجمات المغول معاناةً كبرى في النصف الأخير من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. ولم يبدأ العمل في الإنشاءات المائية إلا بعد 712هـ /1312م حين زال الخطر، وحين بدأت هذه الأشغال تعيد إحياء العظمة السابقة للمدينة، وتغذي حاميات أكبر، وعدداً من السكان مجدَّداً أو حتى متنامياً. وأنشأ حاكم حلب نافورة في عام 703هـ / 1304م.

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص136، 137.

(2) انظر تفاصيل ذلك عند ابن البدري، أبو بكر بن عبد الله بن محمد الدمشقي: نزهة الأنام في محاسن الشام، بغداد، المكتبة العربية، مصر، المطبعة السلفية، 1341هـ .

إلا أن مشروعاً أكبر أهمية تبع ذلك بعد حين، إذ أكمل الحاكم سيف الدين أرغون بين 713هـ / 1313م و 731هـ / 1331م عملاً في قناة من نهر ساجور، يبلغ طولها 40.000 ذراع، وكلّفت، وفقاً لمعظم التقديرات حوالي 300.000 درهم، إلا أنه من المحتمل أن تكون تكليفاتها قد بلغت 800.000 حيث تحمل الحاكم نصف المبلغ، في حين تحمل السلطان النصف الآخر، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت حلب محظية تماماً، غير أن هذه القناة كانت سريعة العطب، فتم اللجوء إلى خزن المياه في صهاريج وفي حوض كبير بني في الجامع الكبير.

وتبع هذا الاستثمار الأساسي في النصف التالي من القرن إنشاء نوافير في طول المدينة وعرضها، مع تفرعات من الأقنية لتغذيتها. وكانت معظم هذه النوافير قد بناها الأمراء والحكام، غير أن الأعيان من الموظفين الرسميين والتجار الكبار والعلماء قد ساهموا أيضاً. وحتى في الأيام الحالكة من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي استمرت أحياء في حلب جديدة ومتنامية جنوبية وشرقية، تزوَّد بالمياه.

وكان البعض من عمليات شق الترع قد بدأ قبل تيمورلنك، إلا أن اجتياحه أعاق هذه المشاريع. وفي عام 833هـ / 1429م جرَّ حاكم الحصن أخيراً المياه إلى مقام الباب من الترع الرئيسة، وقد بني خزان في المدينة حوالي منتصف القرن، ثم أضيفت بعض الأقنية والنوافير. وبدأت مدة أخرى من الإنشاءات الهامة في التسعينات من 890هـ /1485م. وبنى الأمراء، وبخاصة شخص يدعى بردبك، وهو تاجر عبيد في خدمة السلطان، سلسلة من الترع والنوافير. وحتى في نهاية مرحلتنا، حين كان المماليك قد بلغوا ذروة الجشع، وانحدروا إلى الدرك الأسفل من الاهتمام بالمجتمعات التي حكموها، استمرت هذه الأعمال الحيوية والهامة تنفَّذ بمبادرة من المماليك وعلى نفقتهم.

وفي المدن الأخرى؛ حسَّن مثلاً السلطان بيبرس وخلفاؤه تأمين المياه إلى القدس، وصفد، وحسَّن وأصلح الأمراء، وبخاصة أمراء ومشايخ جبل لبنان ترع المياه في بيروت، وبنوا قنوات لجر المياه، وتمت مساعدة مماثلة لمدن شامية أخرى. أما المشروع الشامي الوحيد المعروف الذي لم يجر تنفيذه بواسطة أحد الأمراء فكان إنشاء ترعة في الخليل في عام 801هـ / 1398م، بناها موظف رسمي مدني.

إن تزويد الأماكن المقدسة في فلسطين بالمياه كان أيضاً يقع على عاتق السلطان والأمراء الذين عينهم رجال إدارة. وعلى مدى عقد ونصف العقد من الزمن، وذلك بين العام 713هـ / 1313م والعام 728هـ / 1328م، تم تنفيذ ترعة رئيسة، ومشروع صهريج، من أجل تزويد القدس بالمياه. وأجريت

إصلاحات أخرى على نفقة السلطان برقوق في عام 785هـ / 1384م، وبعد مضي قرن أعاد السلطان قايتباي إصلاح قنوات جر المياه بناءً على طلب من القضاة والمشايخ وغيرهم من وجهاء المدينة. ثم أنشئت أيضاً ترع ونافورة لحرم الخليل ما بين 857هـ / 1453م و 865هـ / 1461م. ومع أن الأمراء هم الذين كانوا يدفعون نفقات معظم المشاريع الخاصة بجر المياه كانت أوقاف تمنح غالباً من أجل صيانة الترع. وربما كان الإشراف العام يقع على عاتق حكام المدن إلا أنه كان على المفتشين التجاريين والمندوبين الملكيين بعض المسؤوليات أيضاً[1].

سادساً _ دور الاقتصاد الشامي في تجهيز الحملات العسكرية:

لقد عمل عدد هائل من الحرفيين والتجار من أجل توفير الإنفاق على الجيوش من أجل تزويدهم بالمؤن والدروع والأسلحة والثياب ووسائل الترفيه وأجهزة سروج الخيل والحيوانات.

وصارت دمشق بفضل دولة المماليك محور التبادل التجاري الداخلي؛ فكانت تستورد مثلاً حاجياتها من جميع أنحاء الشام، فكانت الفاكهة ترد من الإقليم المباشر حيث كانت المدينة تقع، والقمح من حوران إلى الجنوب. وكانت المنتجات المميزة تتدفق من مناطق بعيدة إلى أسواقها الأكبر. أما الأرز فمن الحولة، والزيت من نابلس، والحليب من بعلبك والتين والفستق من حلب.

وكانت التجارات بين المناطق الأخرى منتعشة بلا ريب، وذلك لأن حلب والقدس ومدن كبيرة أخرى كانت ترسل إلى الخارج إنتاج مناطقها الخلفية الثابتة. غير أن طلبات دمشق كانت الطلبات الأشمل في المنطقة.

كانت المنتجات الشامية تذهب أيضاً إلى القاهرة، فقد كانت الشام تصدر الزيت والصابون والشموع والأثمار والغنم والخيول والحديد والخشب. ومن دمشق نفسها كان يأتي السيراميك والزجاج والمعادن والأجواخ الباذخة.

وكان التجار يقومون بالتبادل المنتظم، منطلقين من البحر عبر الميناءين السوريين صيدا وبيروت، وفي البر عبر المراكز الجمركية في قطايا على الحدود السورية المصرية. وعُلم أن العائدات

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص123 – 126. وانظر تفاصيل ذلك عند المحمد، أنس: الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمار النهار، جامعة دمشق، 2010م.

الجمركية في مركز قطايا، حيث كانت الرسوم تبلغ خمسة إلى عشرة في المئة على أساس قيمة الفاتورة، كانت تصل إلى ألف دينار يومياً[1].

وتابعت مصر استيراد المنتجات الزراعية الشامية، كالغنم والفاكهة، وماء الزهر، والتمر، والأرز، وشراب الفاكهة. وقد وجدت الأقمشة، بما فيها القطن البعلبكي، والمطرزات من دمشق، والحرير من حماه والشام، وبعلبك، أيضاً أسواقاً لها في القاهرة. وورد ذكر للورق والرخام. والتصدير المصري الوحيد المعروف كانت الحبوب[2].

وكانت الأسواق الشعبية تصان في القاهرة بغية استقبال التجار السوريين والمنتجات السورية. وطوال الحقبة الأخيرة من القرن السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أعان النظام هذه المقايضة فبنى وصان الجسور والخانات والاستراحات من أجل القوافل التجارية، وقد ذكر ابن شداد وغيره مجموعة من الأسواق زادت على مئة سوق داخل دمشق وخارجها، من أشهرها: سوق البزوريين، وسوق الجواري والعبيد، وسوق الخواصين (وهم صانعو السلال في مكان سوق الخياطين اليوم)، وسوق السروجية، وسوق النحاسين، وسوق السقطيين (وهم باعة الملابس المستعملة)، وسوق الصاغة، وسوق الصرف، ومعظم أصحابه من اليهود، وسوق المسكية، وسوق الورّاقين[3].

وكانت أهم الطرق التجارية تمر بين القاهرة ودمشق من جهة، وبين بغداد وفارس في الشرق أو الأناضول وموانئ البحر الأسود في الشمال، من جهة ثانية. وتشير ملاحظات متفرقة حول الطريق الرئيس بين بغداد ودمشق إلى أن تجارة ناشطة كانت تجري على هذا الطريق ودامت حتى منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. إلا أنه منذ ذلك الحين وحتى 789هـ/ 1387م حين أعلن عن مجيء تاجر من بغداد، ليس لدينا أية معلومات حول استخدام هذه الطريق، قد يكون من

(1) المحمد: الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، ص87. غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص 138- 142. عباس: تاريخ بلاد الشام في العصر المملوكي، ص 131، 132.

(2) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص71.

(3) أبو شامة: كتاب الروضتين، م1، ص66 ــ 75. القلقشندي: صبح الأعشى، م10، ص214. لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، 45.

المحتمل جداً أن دمشق كانت تستقبل التوابل والحرائر والأصباغ والعقاقير من بغداد إلى أن أضعف إحياء طرق دولية أخرى عمليات هذا النقل.

وحفزت احتياجات أخرى الاتجاه الثاني إلى أرمينيا والأناضول والبحر الأسود. وكانت القوافل التجارية ناشطة حتى خلال الحروب الصليبية المغولية المضادة لأن هذا النقل التجاري الشمالي كان ذا أهمية استراتيجية عظيمة، وجلب إلى الشام من الشمال القوة البشرية الثمينة من الرقيق والخيول والمعادن. ومع أن قدراً معيناً من الزيت والصابون الشاميين كان يصدر، فهناك احتمال بأن أثمان هذه الاستيرادات المكلفة كانت تُدفع نقداً[1].

وفيما كانت جميع المدن تنتج سلعاً مألوفة كالقماش والجلود والخزف، وأحياناً الصابون ومواد البناء، كانت بضع مدن فقط تنتج أصنافاً مميزة ذات نوعية ترفيهية. وكان لمدينة حلب إنجازات جديرة بالذكر في أشغال الخشب والرخام والنسيج والصابون والعطور والأسلحة، كما حكم بذلك مؤرخوها.

واشتهرت بعلبك بالأقمشة القطنية الرقيقة جداً والمستخدمة في القاهرة على نطاق واسع.

أما طرابلس التي كانت تشتهر في القرون السابقة بحريرها ومنسوجاتها فقد فقدت هذه الصناعة، ولكنها كانت منطقة هامة في إنتاج السكر، ومن الممكن أنه كان لديها صناعة واسعة لتكرير هذه المادة.

ومع ذلك، عملت رعاية المماليك في دمشق والقاهرة فقط على تغذية واستمرار طبقة كاملة من النتاج ذي الميزات الترفيهية، فدمشق مثلاً، كانت تنتج الزخارف المنزلية البديعة، وأواني المطبخ، والحلي الذهبية والفضية والنحاسية، وكانت مشهورة أيضاً بالحرائر، والقطنيات، والملابس الكتانية، والأقمشة المقصبة والأثواب المطرّزة، والخيم، والأغطية المزركشة لسروج الخيل، والأردية المصنوعة خصيصاً للنخبة المملوكية. ووجَّه حرفيو المدينة أيضاً مهاراتهم نحو صناعة الأسلحة والأدوات الدقيقة كالربْعيَّات والاسطرلابات.

وازدهرت حرف البناء ذات المستوى الرفيع، حتى القاهرة استخدمت جصَّاصيها، وبنَّائيها، وعمال الرخام، ومعامل الآجر.

---

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص47. سبانو، أحمد: نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي، أطروحة دكتوراه، إشراف جباغ قابلو، جامعة دمشق، 2010م، ص426.

وكان لدمشق صناعة زجاج ناشطة ومشهورة بمصابيحها المطلية بالذهب، وأوانيها، وأباريقها، وزباديها.

ولم تُهمل صناعة الحديد والسيرامك والجلود والورق والحلويات الطيبة. وكانت دمشق ذات أهمية فريدة كمنتجة للسلع الترفيهية التي كانت تصدَّر إلى جميع إنحاء الإمبراطورية وإلى الخارج. بهذه الحرف كان القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي قرناً رائعاً(1).

كما استمرت دمشق مركزاً للحرف والصنَّاع وصارت ذات أهمية شاملة، فصُنعت المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والمطرَّزات واللبَّاد والبسط، وزوَّدت القوات المملوكية بالتجهيزات العسكرية والأسلحة والسكاكين والأقواس والرماح، كما زُوِّدت بتجهيزات الفروسية والأسرجة وأغطية الخيل، وصنعت أيضاً الأواني من الحديد والنحاس والسيراميك والخشب والقش، كما صنعت السلع المنزلية. وتوافرت مواد البناء، ومهارات البنائين.

وجاء في المصادر ذكر النجَّارين والبنَّائين وصانعي الآجر والجير.

وتابعت مدن هامة أخرى سلسلة طويلة من النشاطات، وإن لم تكن هذه المدن قد بلغت كمالاً مثل كمال دمشق. ففي حلب كانت الدباغة وتمشيط القطن والغزل وتبييض القماش والصباغ والنسيج، كما كان يُنتج هناك النحاس والحديد والسيراميك والورق والزجاج والأسرجة والأسلحة. ومع ذلك فقد كان الصابون من خاصيات حلب المميزة، فكان يصنع في المدينة نفسها، ويجمع من الأقاليم المجاورة ليسوَّق في الأناضول وديار بكر والعراق وسوريا ومصر. وكانت القدس وطرابلس تصنعان الحرير. كما كانت معظم المدن والبلدات الصغيرة تقريباً تنتج السلع القطنية. أما الزيت والصابون وجلد الحيوان والزجاج والمياه المعدنية فكانت تعالج في المدن الأقل شأناً.

كما استمر صنع الحلي، فكان الذهب يستورد من جنوى ليصاغ في دمشق ثم يعاد تصديره. وتشير المصادر العربية والأوروبية على السواء إلى أن الحرير الناعم والقماش المقصب والمخمل والأطلس وغيرها من المنسوجات ذات الخصائص المميزة كانت لا تزال تنسج في دمشق، علماً بأن الأقمشة الفاخرة ومواد الأثاث الفخمة التي كانت تصنع في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي لم تعد تذكر. وفي المدن الأخرى كحلب وطرابلس والقدس استمر إنتاج بعض الحرير والذهب

---

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص47، 48. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص237. عباس: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص129.

والأواني النحاسية. أما السيراميك الرفيع النوعية فقد اختفى تماماً. وضاعت المهارات المتخصصة الأخرى، فكان يلزم استقدام البنائين الماهرين، كساقفي السطوح المكسوة بالصفائح المعدنية من الرصاص، مثلاً، من الأناضول لإصلاح الإتلاف الذي أحدثته إحدى الحرائق في 884هـ /1480م في المسجد الأموي في دمشق، وحتى حينئذٍ زُعم بأنهم أدوا عملاً متدني القيمة[1].

واستمرت دمشق في الحصول على ما تحتاج إليه من مختلف أنحاء الأراضي الداخلية الشامية. واستوردت حلب المواد الغذائية والملح والأقمشة من مختلف أجزاء الشام. وفي فلسطين استمرت التجارة المحلية في الفاكهة والحبوب والحيوانات والقطن كالمعتاد[2].

سابعاً _نتائج سياسة المماليك الاقتصادية:

لم يكن إسهام المماليك في تقويم الاقتصاديات المدينية أكبر شأناً من مساهمتهم في صيانة المصنع المديني الطبيعي، فإعادة تنظيم الموارد المالية، وعقود من السلام، خلقت فائضاً من الثروة من أجل توظيفها في إصلاح الشوارع والطرقات، وأعمال المياه، والمباني الجديدة، وأوقاف المؤسسات الدينية، وكل ما يتعلق بالجيش والأعمال العسكرية، بمقياس لم يضاه منذ العهد الأيوبي.

وتجدر الإشارة، مع ذلك، إلى أنه كان لتسارع النشاط إيقاعات مختلفة في مدن مختلفة بأساليب توافقت بشكل وثيق مع الخطة السياسية المملوكية[3].

وقد ناضلت مصر المملوكية من أجل أن تبقى التجارة بين الإسكندرية والغرب مفتوحة، فقد كانت هذه التجارة أمراً حيوياً لاستيراد المعادن والخشب وغيرها من المواد الحربية التي كان لدى مصر نقص في مخزنها.

وبالرغم من معارضة البابوية وفرضها عقوبات على هجمات القراصنة وعلى السلع المهربة، تابعت الإسكندرية لفت انتباه التجار والأوروبيين، فقام الكتاليون والبنادقة والجنويون وغيرهم بزياراتهم إلى الإسكندرية، وأبرموا معاهدات معها، فورد العبيد والمواد الحربية إلى مصر، وجرى سيل رقيق من السلع الشرقية نحو الغرب عبر الموانئ المصرية الرئيسية. وبين 689 – 746هـ / 1290 و1345م بقيت التجارة تثير الاهتمام، إلا أنها غدت ذات أهمية ثانوية، فكانت تلبي الحاجات المحلية

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص69، 70.

(2) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص71.

(3) انظر لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص48، 49.

وبعض الرغبات التجارية لدى الأوروبيين، إلا أنها لم تستطع أن تحل محل الغنى الذي كانت تتمتع به تجارة النقل الدولية في التوابل والحرائر والأصباغ والعقاقير(1).

ضعفت الشام في وقت من الأوقات لأن أرمينيا وقبرص حلتا محلَّها كمسوقين للسلع الشرقية. ونادراً ما كانت السفن الغربية تتجه مباشرة إلى بيروت. وعقدت البندقية، عوضاً عن ذلك، معاهدات تجارية عاجلة مع أرمينيا. وما كانت الشام تقوم به من اتصالات مع أوروبا كان في معظمه بوساطة المراكب القبرصية التي يبدو أنها كانت تواصل، رغم الصعوبات، القيام بتجارة ناشطة مع الموانئ السورية.

وقبل أن ينتصف القرن، مع ذلك، كان انقلاب رئيسي في هذا النمط آخذاً مجراه، ففي عام 746هـ / 1345م أبرمت البندقية معاهدة مع المماليك أقامت بموجبها، وللمرة الأولى، مع الإسكندرية مرفقاً سنوياً منتظماً، وما حث على تجديد رغبة البنادقة هذه هو الصعوبات التي كانوا يواجهونها في طرقات آسيا الوسطى البرية، وكانت منافذها في البحر الأسود تهاجم من قبل المغول. أما أرمينيا فكانت عرضة لضغط يأتي من قبل المماليك أنفسهم. وما إن أقبل عام722هـ / 1322م حتى سقط ميناء إياس في أيدي المسلمين(2).

وبعد انقضاء عقدين من الزمان أعادت تطورات جديدة فتح التجارة الدولية عبر الشام، ففي عام 767هـ / 1365م شن بطرس الأول، حاكم قبرص، حملة صليبية ضد الإسكندرية والمدن الساحلية الشامية، فحاولت البندقية، التي صدمت بما بدا لها أنه سياسة تنطوي على مفارقات تاريخية، أن تحول

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص20 وما بعد. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، م7، ص204 ـــ 229. ابن علي: الفضل المأثور، ص141ـــ 148. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، م7 ، ص255. الحجي، حياة: بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، 2003م، ص45- 47. لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص54.

(2)النويري السكندراني، محمد بن قاسم: الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ج3، ص232، 233، 234. ، عبد العزيز: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص346، 347. سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، ص252. لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص54، 55.

دون انقطاع تجارتها في شرق البحر المتوسط، وذلك للعمل على عقد صلح بين بطرس والمماليك، وفي نفس الوقت استغلّت الخصام القائم، فأرسلت بعثتها الأولى إلى بيروت.

وجاءت سفن البنادقة إلى هنا في 768هـ / 1366م تتاجر، ذلك لأن العدوان الذي قام به بطرس قضى على التجارة الشامية – القبرصية الوسيطة، ومع ذلك، لم يكن الوقت بعد قد حان تماماً للإحياء التام، فكان ينبغي أن ينقضي عقد آخر من الزمان قبل أن تنشئ البندقية حركة تجارية سنوية مع بيروت على أسس الإسكندرية نفسها، لأن المماليك أتموا في عام 777هـ / 1375م غزوهم لأرمينيا، وسيطرت جنوى على فماغوستا وهذا يعني عزل البنادقة عن تجارة الجزر، وفي الوقت ذاته انهارت الطرق الآسيوية الداخلية انهياراً تاماً. وبعد انقضاء قرن من الزمن عادت تجارة التوابل إلى مصر والشام، وعادت تجارة أهل البندقية، والكتالونيين الفرنسين والجنويين مرة أخرى إلى الإسكندرية وبيروت وموانئ شامية أخرى، ولم يزر التجار الغربيون والحجاج المدن الموانئ فحسب، بل كانوا يزورون القاهرة ودمشق ومدناً شامية أخرى[1].

وبكل الأحوال كانت الإمبراطورية المملوكية تقع عبر الطريق التجارية الكبرى التي تؤدي إلى أوروبة قادمة من الهند والصين وجنوب شرقي آسيا[2].

فطوال الجزء الأولي من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر بقيت الشام ومصر على اتصال بالمدن الايطالية والإسبانية والفرنسية والبلقانية. فكانت المشحونات التجارية تأخذ طريقها إلى مصر وسوريا عبر البلوبونيز، في حين كانت سفن الشحن غير النظامية الجنوبة تبحر عبر الشاطئ الإفريقي الشمالي إلى الإسكندرية، وغالباً ما تعرِّج على بيروت في رحلة العودة.

نقل بها الأوروبيون التوابل والسكر والأصباغ والحرائر والقطن غرباً، وجلبوا الخشب والمعادن والقماش إلى الشرق[3].

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص335، 680، 681. عبد السيد، حكيم: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، الدار القومية، 1966م، ص150، 151. طقوش: تاريخ المماليك، ص406- 408، 436- 439. لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص55، 56.

(2) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص53.

(3) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص82.

وحدث توسع في التجارة البرية الشامية الأناضولية كاستجابة لذلك. ومع بزوغ بُرُصه كمركز لإعادة توزيع السلع الشرقية المتجهة نحو أوروبا الشرقية، أتى التجار الأتراك إلى دمشق ليشتروا التوابل. ودلَّت السجلات العثمانية على أن شاميين من حلب ودمشق كانوا يبيعون التوابل والأصباغ والحرائر في بُرُصة بالإضافة إلى أن الاهتمامات الجديدة في التوابل أعطت زخماً جديداً لتجارة الرقيق القديمة من القوفاز، وللأصناف المميزة المحلية كصابون حلب، كما أعطت أيضاً دعماً قيماً لاقتصاد كان يمكن لولاه أن ينهار. وازدهرت التجارة البرية ثانية، وشجعت طرق إضافية أخرى. وجعلت قوافل الحجاج السنوية القادمة من مكة بُرُصة محطتها الجديدة. وظهر الحجاج الفرس في دمشق والقاهرة وحلب، وذهب التجار السوريون إلى هرمز. كما احتفظت الإسكندرية أيضاً بعلاقات مع الأناضول عبر البحر وأقام التجار الأتراك نزلاً هناك[1].

ثامناً _ دور الاقتصاد في تجهيز الحملات العسكرية:

كل ما تم الحديث عنه في الصفحات المتقدمة لم يكن ترفاً وإنما كان من أجل أن يصل البحث إلى أهمية اقتصاد الشام في تجهيز الحملات العسكرية وفي تحقيق النصر، وبالتالي مدى أهميتها بالنسبة للمماليك.

فالحملات المملوكية تطلبت مؤناً عسكرية يجري أعدادها في الأسواق الشعبية. وتستلزم الاستعراضات ملابس جديدة وأعلاماً ورايات وخيماً ومعدات وأدوات أخرى. وكانت القدرة الشرائية التي يتمتع بها المماليك قوية إلى درجة جعلت التوسع في حامية دمشق في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يستحث إعادة تكييف هائل لأسواق المدينة. فانتقل مجهزو الأسرجة وأجهزة الحرب والتبن والشعير والسكاكين والدروع والجلود والحاجات الحربية الأخرى، من داخل المدينة إلى جوار الحصن. ولحق بهم النجارون والحدادون والنحاسون، وتبعتهم المواخير، والمطاعم، والحانات أيضاً بغية القيام بخدمة الجنود[2].

(1) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص83.

(2) لابدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ص90، 91.

الفصل الرابع
الإدارة المملوكية لبلاد الشام
وأثرها
في الصراع المملوكي الإيلخاني

أولاً _ أهمية بلاد الشام الكبيرة من خلال نظام التقسيمات الإدارية في الدولة المملوكية:

كانت الدولة المملوكية مكونة إدارياً من:

ــ الإدارة المركزية وهي في قلعة الجبل.

ــ الإدارة المحلية خارج قلعة الجبل، وهي تنقسم إلى:

ــ الإدارة في مصر ونيابة الإسكندرية.

ــ الإدارة في نيابات بلاد الشام.

ــ الإدارات الملحقة بالدولة المملوكية في الحجاز واليمن(1).

وكانت مصر تتألف من ثلاث قواعد أو عواصم، وهي: مدينة الفسطاط، مدينة القاهرة، القلعة ضمن القاهرة، وتشكل مدينة ضمن مدينة، وفيها يقيم السلطان ومماليكه(2).

أما أعمال الديار المصرية ونواحيها، فعرفت بتقسيمها إلى وجهين: قبلي وبحري(3).

أما النيابة: هي التي يعبر عن صاحبها بالنائب الكافل الذي يحكم في ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير، وكل نائب يعرف ما يخص نيابته ويكاتبه النواب التابعون له، وله

---

(1) سبانو: نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي، ص53، 253. النهار: تاريخ المماليك، ص101.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى (تح محمد حسين شمس الدين)، ج3، ص366، 392، 399، 421. المقريزي، أحمد بن علي: الخطط، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفران للتراث الإسلامي، لندن 1995م، م3 ، ص650 ــ 695. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (تح دوريتيا)، ص140– 145.

(3) انظر تفاصيل ذلك عند العمري: مسالك الأبصار، تح دوريتيا، ص 140 –163. القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص 430–467. _ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق، ق1، ص 136 وما بعد، ق2، ص127 وما بعد. ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ص 5– 195، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص 246– 251. المقريزي: الخطط، دار صادر، ج1، ص، 163–250، 360، وعن الوجه القبلي فقط انظر الأدفوي، جعفر بن ثعلب: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تح: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، ص 7–24.

السلطة في استخدام الجند من غير مشورة السلطان ويتولى تعيين أرباب الوظائف وكتابة السر. إذن هو سلطان مختصر، ويرجع بعض الباحثين استخدام وظيفة نائب السلطان إلى عصر السلاجقة، ثم انتقل إلى الأتابكة فالدولة النورية فالدولة الأيوبية، وقد استخدم صلاح الدين هذه الوظيفة[1].

ويشابه النائب في الحكم السلطان، لكنه كالسلطان وإنما في نيابته، وقد تأسست في مصر في عصر دولتي المماليك ثلاث نيابات، أولها نيابة الإسكندرية، وثانيها نيابة الوجه القبلي، وثالثها نيابة الوجه البحري[2].

وكانت النيابات مقسمة إلى ولايات، وفي كل مدينة والٍ، أعلاهم والي القاهرة[3].

أما بقية أقاليم الدولة المملوكية في الجزيرة العربية والحجاز وفي اليمن أو في برقة وطرابلس، فإنها كانت مستقلة عن الإدارات المصرية، وإن سُمع عن نيابة واحدة أو نيابات في مكة والمدينة، فإن ذلك يدل على إشراف مباشر عليها بسبب التجارة، أو بسبب أهميتها الدينية.

وكان الحجاز تابعاً لدولة المماليك بعد سقوط الخلافة في بغداد، وبذلك أصبح سلاطين المماليك حماة الحرمين الشريفين، وهو ما أكسبهم ثقة العالم الإسلامي، وكان أشراف الحرمين يُعيَّنون من القاهرة ويعزلون منها، وكانت المواد التموينية والإعانات لأهل الحرمين الشريفين تصل مع قافلة الحج المصري والشامي.

أما اليمن فقد كانت تابعة لمصر منذ أيام صلاح الدين تبعية متراخية لاعتبارات مذهبية معروفة، واستمر الحال كذلك حتى سقوط دولة المماليك[4].

ثانياً ــ التقسيمات الإدارية في بلاد الشام وأثرها في الصراع مع مغول فارس:

---

(1) حمزة، عادل: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م، ج1، ص 95.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص4، 25، 64- 68.

(3)اليوسفي، موسى بن محمد: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: أحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1986م، ص196، 197. القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص23-28. ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج1، ص90.

(4) سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص117. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص24. ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج1، ص 90. النهار: تاريخ المماليك، ص111، 112.

كان نائب الشام أشبه برئيس لكامل الشام، وكان يقيم في دمشق أو حلب، ويشرف على جميع أمورها وموظفيها وأموالها، وله مساعدون من وزراء وحجَّاب وكتَّاب إنشاء وكتَّاب سر، ودواوين ومُفتين وقضاة ومحتسبين وولاة[1].

وعلى اختلافات متعددة تألفت الشام من ثماني نيابات، وقد أطلق القلقشندي (ت 821هـ / 1418م) تعبير «النيابات الصغار» معبراً عن انقسام كل نيابة إلى عدد من الأقسام والنيابات الصغيرة[2].

وكانت حدود بلاد الشام تسمى الممالك الشامية، وهي كالآتي:

_ خط الحدود الجنوبي: ويمتد من خليج العقبة حتى العريش.

_ والغربي: من رفح جنوباً حتى طرسوس شمالاً.

_ والشمالي: بلاد الأرمن والإمبراطورية البيزنطية.

_ والشرقي: من العقبة حتى الفرات، ومن الفرات حتى مرعش وطرسوس.

وأقصى امتداد لهذه البلاد هو 850 كم من الجنوب إلى الشمال و350 كم من الشرق إلى الغرب، بمساحة إجمالية تصل إلى حوالي 400000 كم2 [3].

وسيذكر البحث نيابات الشام حسب أهميتها ودورها في الصراع مع إيلخانات فارس، وهي كالآتي:

1 ــ نيابة دمشق:

وتسمى أيضاً الشام، ونائبها هو أهم نواب الأقاليم فلم تكن رتبته تقل عن رتبة نائب السلطنة بالقاهرة، وكان الوحيد الذي يستحق نائب السلطنة غير النائب بمصر. ويطلق عليه اسم (النائب الكافل) أو كافل الممالك الإسلامية (أو الشامية)، ويصدر بتعيينه في وظيفته تقليد خاص، وينوب

(1) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج1، ص90.

(2)دهمان، محمد أحمد: ولاة دمشق في عصر المماليك، دار الفكر، دمشق، 1984م، ص12. عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام، ص305.

(3) سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص 117 وما بعد.

عن سلطان مصر في إدارة شؤون نيابته ويتمتع بالسلطة الكاملة والنفوذ المطلق اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه[1].

صارت دمشق نيابة مملوكية في عهد الظاهر بيبرس بعد معركة عين جالوت (658 هـ / 1260م)، وكانت تختص بمواجهة الصليبيين والتجهيزات لمواجهة المغول، وكان عليها الاستعداد الدائم لصد هجماتهم، ومنع توسعهم، ورد غزواتهم، والاستعداد لتحرير الأرض منهم في الوقت نفسه.

وكانت الظروف تقتضي من السلطان المملوكي أن يحتفظ بالشام ودمشق على الخصوص كمنطقة قوية عسكرياً واقتصادياً لحماية مصر، لذلك قام سلاطين المماليك بحشد قوات عسكرية مملوكية في بلاد الشام ودمشق على الخصوص، وكانت ترتبط بنائب دمشق الذي يرتبط بالقاهرة. وكان السلطان المملوكي يعطي نائب دمشق سلطات كبرى قياساً على باقي نيابات الشام، ومن هذه السلطات أن تكون مراجعة نواب الشام للسلطان عن طريقه، وكذلك يكون سفرهم بإذنه[2].

وكانت دمشق من أهم الممالك في دولة المماليك، لأن الذي يسيطر عليها قد يصبح السلطان، وهو ما كاد يحصل لسنجر الحلبي الذي رفض الاعتراف بسلطنة الظاهر، وما حصل لسنقر الأشقر الذي تسلطن في القاهرة وتوجَّه نحو مصر، وما حصل للملك الناصر محمد الذي هرب من الكرك إلى دمشق ثم تقدم منها إلى القاهرة وعاد إلى السلطنة، وما حصل فيما بعد للملك المؤيد شيخ المحمودي، وغيرهم.

ولقد حظيت دمشق في عصر المماليك بمكان مرقوق، وغدت بمثابة العاصمة الثانية للدولة، يقيم فيها السلاطين من حين لآخر، ويتخذونها مركزاً لعملياتهم العسكرية ضد الصليبيين والمغول. الأمر الذي حفظ لدمشق مركزها السياسي والحربي الذي كان لها في أيام نور الدين صلاح الدين.

وكان في دمشق من الوظائف والدواوين والمؤسسات ما تجعلها تقوم مقام عاصمة السلطان عند اللزوم، عبَّر عن ذلك ابن فضل الله العمري بقوله: «وبدمشق كل ما في مصر من الوظائف وليس هذا

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، (الذخائر)، ج4، ص91، 97. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص225، 226. النهار: تاريخ المماليك، ص106. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص45 ــ 47.

(2) عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام، ص310. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص331، 332. النهار: تاريخ المماليك، ص106، 107.

بقية بلاد الشام؛ مثل قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضي العسكر، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخلع، وخزائن السلاح وزردخانات، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو حضر السلطان جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته»[1].

وكانت نيابة دمشق في العصر المملوكي من أكبر نيابات الدولة وأهمها، ويطلق عليها غالباً اسم «نيابة الشام» بدلاً من نيابة دمشق، وقد اتسعت في هذا العهد بحيث وصلت حدودها إلى الفرات عند الرحبة وجعبر شرقاً، وإلى الرستن شمالاً، وإلى حدود غزة جنوباً.

وتضم نيابة دمشق هذه من المدن: دمشق، والقدس، وبيسان، وغزة، واللد، والرملة، ونابلس، وعجلون، وحوران، وجبل عامر، وبيروت، وصيدا، وحمص، والسلمية، وتدمر، والرحبة، وجعبر. وقد تخرج أحياناً عزة وبيت المقدس فيكون لكل منها نائب خاص.

وكان والي دمشق أكبر الولاة، يجري اختياره من بين رجال الدولة المرموقين، وكانت توكل إليه مهمة الإشراف على سائر ولايات الشام الأخرى كحلب، وحماة، وطرابلس، وصفد، كما كان يكلف بأعمال عسكرية واسعة النطاق للقضاء على العصيان أو للوقوف في وجه عدو خارجي، وذلك بما خصت به دمشق وقلعتها من القوات والمعدات ومصانع السلاح والذخيرة.

وكان يطلق على والي دمشق الألقاب التالية: «نائب السلطنة»، «نائب الشام»، «كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس».

ولقد تولى على دمشق في العصر المملوكي اثنان وستون نائباً، كانت لا تطول مدة الواحد منهم أكثر من عام أو بعض عام، باستثناء نفر قليل منهم، كالأمير سيف الدين تنكر الذي حكم بين عامي 712 و740هـ / 1312 و 1229م، وكان من كبار أمراء المماليك وأفضلهم، وقد خول سلطات كبيرة من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وكان له مقام في الدولة فوق مقام سائر نواب السلطنة[2].

---

(1) العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج3، ص517، 518.

(2) ابن كنان، محمد بن عيسى الصالحي الدمشقي: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الأول تح: حكمت إسماعيل، دمشق، وزارة الثقافة، 1992، ص213، 214. الريحاوي، عبد القادر: قلعة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة، 2008م، ص143 – 146. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص37.

وكانت دمشق محل عناية سلاطين المماليك، فكان الظاهر بيبرس يكثر التردد على الشام ويتخذ من دمشق عاصمة ثانية، يقيم فيها أشهراً، يجهز الجيش ويقود الحملات:

إما لحرب الفرنج في الساحل.

وإما لإخضاع الإسماعيلية والاستيلاء على قلاعهم الحصينة في منطقة جبال العلويين في الشام.

أو لمحاربة الأرمن حلفاء المغول في بلاد سيس (أرمينيا الصغرى) الكائنة على الحدود الشمالية في الأناضول، وكانت تعرف بالثغور والعواصم.

وإما لطرد المغول من الأطراف الشرقية من البلاد(1).

وكان يربط دمشق بالقاهرة طريق دولي يمر من المصطبة عند قرية القدم جنوب بوابة دمشق ويضم 15 مركزاً رئيساً، ثمانية منها في الشام وسبع في مصر، وهي: الصنمين وطفس وإربد وجينين وقاقون واللد وغزة والعريش وهي آخر حدود الشام، وعندها يتفرع الطريق الدولي إلى ثلاثة فروع هي: دمشق والكرك وصفد.

وأما محطات مصر فهي: الودادة والمطيلم وقطيا والصالحية وبلبيس والخانكاه وأخيراً قلعة الجبل بالقاهرة.

وكانت الجيوش تقطع الطريق من القاهرة إلى دمشق بحوالي الشهر، يزيد أسبوعاً أو ينقص أسبوعاً بحسب الأحوال، أما الراكب العادي فيقطع الطريق بسبعة أيام، وفي الأحوال المستعجلة النادرة كانت هذه الطريق تُقطع بأقل من 60 ساعة، كما هو الحال عندما وصلت الكتب بسلطنة قلاوون من القاهرة إلى دمشق على خيل البريد في غضون 55 ساعة فقط(2).

2 ـــ نيابة حلب:

---

(1) الريحاوي: قلعة دمشق، ص152.

(2) ابن طولون، محمد: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: محمد مصطفى، القاهرة، 1962م، ج2، ص7.

ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، م7، ص152 –157.

الحديث عن حلب ونائبها من أهم المواضيع المتعلقة بعنوان أطروحة البحث، وذلك لأن هذه المدينة كانت أهم مكان كان ينظر مغول فارس للسيطرة عليه وجعله منطلقاً لاستكمال السيطرة على بلاد الشام، لذلك قام الطالب بالتفصيل بهذا الموضوع.

فهي أكبر ولاية في بلاد الشام لاتساعها الكبير مع توابعها وملحقاتها والنيابات والولايات الصغار والثغور التابعة لها، فهي ذات موقع استراتيجي بالغ الأهمية لوقوعها في أقصى الحدود الشمالية لدولة المماليك، ولذلك هي ذات موقع حربي مهم لمجاورتها لأعداء المماليك والطامعين في حكم دولتهم أو على الأقل ضم الشام لحكمهم من البيزنطيين والأرمن والمغول والعثمانيين. فشكلت الخط الدفاعي الأول للدولة المملوكية، لذلك شحنها المماليك بالكثير من القوات والأسلحة والعُدَد، واهتموا بأسوارها والحصون التي تتبعها.

وكان السلطان يختار نائب حلب من الأمراء الكبار الذين يثق بهم ثقة كبيرة، وغالباً ما يكونون ممن مارس مهمات كبيرة قبل تعيينه، وكان يمنحه صلاحيات واسعة، مثل تفويضه بتحريك الجيوش ودخول الحرب في حالة شعوره بخطر، وكان يطلق عليه لقب «ملك الأمراء». ولكن رغم تلك الأهمية لنائب حلب، بقي نائب الشام أعلى مرتبة منه(1).

وشكَّلت حلب التي كانت تضم منطقة جغرافية واسعة مع أعمالها حلقة كبيرة من حلقات وحدة الصف العربي الإسلامي، وخاصة أنها مثَّلت القاعدة الأمامية أو الخط الدفاعي الأول للسلطنة عموماً وبلاد الشام بشكل خاص، لكونها حدودية مع الدولة البيزنطية من جهة الجنوب، ولتلقيها هجمات المغول الإيلخانيين القادمة من جهة الشرق، ومواجه دولة أرمينية الصغرى (المتحافة دائماً مع مغول فارس والصليبيين) في الشمال من حلب، فهي بوابة السلم والحرب، لذلك اهتم بها السلاطين والأمراء المماليك فزادوا من مناعتها بإنشاء حصون دفاعية وعساكر كافية للدفاع عنها، بالإضافة إلى الدور الذي أدته حلب بنتيجة موقعها الحدودي لمراقبة العدو والتنبه إلى أصغر معلومة عن تحركات العدو المغولي

---

(1)ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي سورية 1984م، ص257. النهار: تاريخ المماليك، ص107، 108. حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص 6 ــ 10. الباشا: الباشا، حسن: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ج3، ص1238 ــ 1240. حسن، علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1948م، ص 261 وما بعد.

وحلفائه، التي كانت ضرورية للقيام بالاستعدادات اللازمة ولتأمين سرعة التحرك لصد الخطر كذلك أعطاها موقعها دور المركز الرئيسي لشن الغارات على الأعداء من المغول والأرمن وغيرهم[1].

إن الأثر الكبير لنيابة حلب كان في التصدي للمغول والصليبيين وحليفهم الأساسي إمارة أرمينيا التي تحد حلب من الشمال والشمال الغربي والتي اختارت التعامل مع المغول والصليبيين، وخاصة أن حلب لم تنس الدور الكبير الذي أدَّاه الأرمن في تخريب حلب عند دخول المغول إليها أول مرة، فكان على نيابة حلب أن تقود الصراع مع الأرمن لمدة طويلة لم يستطع أحد الطرفين حسم ذلك الصراع لصالحه إلى أن حول المماليك سير الصراع لصالحهم بعد أن ابعدوا المغول عن الأرمن بمعاهدة الصلح المملوكية المغولية في أول عشرينيات القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

فقد شنَّت السلطات المملوكية الكثير من الغزوات بعد تلك المعاهدة استهدفت شلَّ الحركة الاقتصادية وخاصة التجارية بهدف تدمير بلاد أرمينيا الصغرى. وأوكلت قيادة أغلب تلك الحملات لنيابة حلب إذ قام عساكرها بأكثر من إحدى وعشرين حملة حتى حققت في النهاية السيطرة الكاملة على أرمينيا الصغرى وتم القضاء نهائيا على دولة الأرمن وأصبحت تلك البلاد تحت السيادة المملوكية[2].

وبشكل عام من سنة 703هـ/1303م وحتى سقوط دولة الأرمن سنة 776هـ/1374م تولت نيابة حلب مسألة الصراع مع بلاد الأرمن على الرغم من مساعدة نائب دمشق في بعض الأوقات، حيث قاد نائب حلب غارات في الأعوام 705هـ/1305م، 720هـ/1320م وأيضاً 721هـ/1321م وما بعدها وأيضاً 737هـ/1337م وسنة 761هـ/1359م وسنة 767هـ/1365م، واستمرت الهجمات حتى سنة 776هـ/1374م إذ قام نائب حلب اشقتمر المارديني في عهد السلطان الأشرف شعبان بمحاصرة عاصمة الأرمن سيس لمدة ثلاثة أشهر استطاع بعدها فتحها وأسر آخر ملوك الأرمن ليو السادس (775-776هـ/1373-1374م) وعين نائب حلب الأمير أقبغا الدوادار، نائباً على سيس فأصبحت نيابة تابعة للمماليك منذ ذلك التاريخ[3].

([1]) بدور، كمال: حلب في العصر المملوكي الأول، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2002م، ص106 وما بعد.

([2]) ابن سمباط، حمزة بن أحمد بن عمر: تاريخ ابن سمباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، مطبعة جراوس، لبنان، ط2، 1993م، ص28،36، 327. بدور: حلب في العصر المملوكي، ص 108 وما بعد.

([3]) بدور: نيابة حلب في العصر المملوكي، ص116.

وقد سيطر المماليك على حلب بعد معركة عين جالوت، فبعد أن سيطروا على دمشق بشكل قوي بقيت حلب خارج السيطرة النهائية لمدة سنتين، وذلك يعود لسببين:

الأول: عدم مواجهة المماليك غارات المغول المتكررة التي شنُّوها على حلب، بل حدث العكس فقد تم سحب القوات المملوكية إلى حمص وإلى دمشق.

الثاني: محاولات أحد زعماء المماليك هو أقوش البرلي الاستقلال بحلب، فبعد معركة عين جالوت عيَّن السلطان المملوكي قطز الأمير أقوش البرلي أميراً على معظم الساحل في فلسطين وغزة، وعندما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً قام ضده الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق، فطلب بيبرس من أقوش البرلي مساندة العساكر المتجهة لقتال نائب دمشق الخارج عن الطاعة، فاستقر البرلي مع مماليكه في دمشق.

لقد دامت هذه الأزمة حوالي سنتين حيث دخلت خلالهما سيطرة المماليك ببطء، واستقرت بعدما تركها البرلي وسار إلى القاهرة، وعين السلطان الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي سنة 660هـ/1262م في نيابة حلب[1].

بعد ذلك يمكن القول أن عصر سلاطين المماليك يمثل بالنسبة لحلب حلقة من أبرز حلقات تاريخها، إذ غدت _ بحكم موقعها _ تحتل المكانة الثانية بين نيابات الشام، وذلك بعد نيابة دمشق، وقد عنى سلاطين المماليك عناية بالتدقيق في اختيار من يلي أمر هذه النيابة من الأمراء.

وصفوة القول أن حلب غدت في دولة سلاطين المماليك تمثل قاعدة حربية وحضارية كبرى، فبالإضافة إلى كونها المركز الأمامي على حدود الدولة الذي يرقب حركات الأعداء وتنطلق منه الجيوش لصد خطرهم أو تأديبهم، نعمت في مدد الأمن والاستقرار بنشاط اقتصادي وعلمي وفكري واجتماعي وفني واسع النطاق[2].

يضاف إلى ذلك أن تطرفها عن قلب الدولة وعاصمتها القاهرة، جعل سلاطين المماليك يترقبون دائماً حدوث حركات معادية لهم من جانب نوابها ضدهم، وهو الأمر الذي تكرر فعلاً مرات عديدة،

---

[1]) بدور: حلب في العصر المملوكي الأول، ص44-48.

(2) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص10.

ولذلك جعل سلاطين المماليك نيابة حلب موضع اهتمامهم ومراقبتهم، فتخيروا لها النواب وشددوا الرقابة عليهم وأكثروا من تغييرهم بين حين وآخر[1].

ولا شك في أن انتصار المماليك في عين جالوت أظهرهم في صورة القوة التي تتحمل وحدها عبء الدفاع عن المنطقة بعد أن غدت بلاد الشام في قبضة المغول، ولم يعد للبيت الأيوبي شأن كبير فهم بين مهزوم وهارب.

وهناك من ملوك البيت الأيوبي مثل الملك الأشرف موسى الثاني صاحب حمص، والملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل الأيوبي صاحب الصبيبة، من دخلوا في طاعة المغول وأعلنوا خضوعهم لهم، مما أفقد الأيوبيين حقهم في حكم البلاد، ومن ثم كان على المماليك أن يستميتوا في القتال أمام المغول، حتى يثبتوا أقدامهم ليضفوا على وجودهم صبغة شرعية في مصر والشام على السواء.

وبعبارة أخرى فإنه لم يكن على السلطان قطز بعد عين جالوت أن يطهر الشام من فلول المغول فحسب، بل كان عليه أن يمكِّن للمماليك في تلك البلاد أيضاً، وخاصة في دمشق وحلب بوصفهما المركزيين الرئيسيين الأول في وسط بلاد الشام والثانية في شمالها. لذلك اتجه قطز إلى دمشق حيث عاقب بعض الأمراء الذين أعلنوا ولاءهم للمغول، كما أقر بعض الملوك من بني أيوب في إمارتهم مثل الملك الناصر صاحب حماة. وعين بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائباً في تلك السنة 658هـ / 1260م.

وعزم السلطان قطز على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها ويزيل عنها خراب المغول، على أن أحوال مصر وحرص قطز على تثبيت أقدام دولة سلاطين المماليك في مرحلة النشأة جعلته يعدل عن رأيه، فاكتفى بإرسال جيش إلى حلب لحفظها، وفرض نيابتها إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، مما يجعل منه قوة حربية في الحدود المغولية من الممكن أن يكون لها دور في التجسس على تحركات المغول الذين انسحبوا إلى ما وراء الفرات، وبذا ثبت المماليك أقدامهم في حلب[2].

ويأتي البحث الآن إلى قضية تحويل حلب إلى نيابة؛ إذ طرد السلطان قطز المغول من بلاد الشام، ثم عيَّن الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ نائباً بحلب سنة 658هـ / 1260م. وذلك ضمن

---

(1) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص 13.

(2) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص 93، 94.

تنظيمات المماليك الإدارية للشام، إذ قسموها إلى نيابات أو أقسام إدارية كبرى، وقد وجدت على عهد السلطان الظاهر بيبرس أربع نيابات مقسمة إلى نيابات صغرى أو ولايات يحكمها حكام يتبعون النائب في حاضرة النيابة، وبذا يكون السلطان الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقي لنظام النيابة في بلاد الشام. وقد اهتم بنيابة حلب حتى أن اسمها كان يأتي بعد القاهرة أحياناً.

وإذا كانت ولاية أو مملكة حلب قد ضمنت معظم الشام في نهاية عهد الملك الناصر يوسف الأيوبي، فإن وضعها اختلف في عصر المماليك، إذ أصبحت مساحتها تأتي بعد نيابة دمشق، على أن نيابة حلب ضمت نيابات صغرى كثيرة تحكمت في مدخل بلاد الشام من ناحية الشمال والشرق، وأدت هذه النيابات دوراً كبيراً ليس في تاريخ نيابة حلب فحسب، بل في تاريخ الدولة المملوكية كلها.

وقد اشتملت حلب في عصر سلاطين المماليك على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام، ذلك أنها امتدت لتتصل بأرمينية الصغرى وبلاد السلاجقة وديار بكر والجزيرة والعراق(1).

أما نائب حلب؛ فكان يُعين من كبار أمراء المماليك لينوب عن السلطان ويمثله ضمن حدود النيابة، ويشبه نظام حكمه نظام الحكم في مصر، فكان للنائب حاشية ومماليك وأتباع كالسلطان في مصر فيمكن عدّه سلطاناً صغيراً في نيابته.

وكان نائب حلب يُدعى نائب السلطنة الشريفة، ويصدر أمر تعيينه من السلطان مباشرة بمرسوم شريف.

وكان نائب حلب على رأس الجهاز الإداري، وكان يعين من قبل السلطنة المملوكية مباشرة. ولم يطلق على نائب حلب كافل السلطنة كما كان يطلق على نائب دمشق، بل لقب بلقب نائب السلطنة الشريفة. وكانت المكاتبات من السلطنة ترسل إليه بعبارة: «أعز الله نصر الجناب الكريم» والعلامة الشريفة له «أخوه».

أما عن الظروف التي ولدت فيها نيابة حلب وجهازها الإداري، فمن المعروف أن أول جهاز إداري لنيابة حلب ظهر بعد موقعة عين جالوت سنة 658هـ/ 1260م عندما أسندت نيابة حلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، الذي لم يتمكن من مقاتلة المغول على البيرة في ذي

---

(1) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص 96. عاشور، سعيد: الظاهر بيبرس، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص106 وما بعد.

الحجة سنة 658هـ/ 1260م، مما دفع أهالي حلب إلى طرد ذلك النائب من النيابة، وعندئذ عينت السلطنة المملوكية نائباً جديداً وهو الأمير حسام الدين الجوكندار.

وأحياناً تصدر حركة تنقلات بين نواب الشام يصحبها عادة تغيير نائب حلب[1].

ويتبين من خلال مهامه الأهمية القصوى لهذه المدينة في محاربة مغول فارس وصدهم، هذه المهام هي:

- تحقيق الأمن في مركز النيابة وفي أعمالها وحصونها.
- تجريد العساكر إلى المناطق المجاورة للنيابة لصد المعتدين.
- حراسة الحدود على نهر الفرات.
- إعلام السلطنة بتحركات العدو.
- مراقبة القلاع وتأمين حاجاتها.
- الاهتمام بالأمور المالية[2].

ويمكن فهم وضع نائب حلب بين نواب الشام، من خلال ما قام به المماليك من نظام إداري في بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك على أساس تقسيمها إلى نيابات، يحكم كل منها نائب ينوب عن السلطان في حكمها، ويصدر مرسوم سلطاني بتعيينه. وقد أطلق على هذه النيابات اسم النيابات الكبرى، ويتبع كل منها نيابات أخرى فرعية أطلق عليها اسم نيابات الصغار أو الصغرى.

وتذكر بعض المصادر أن نيابة حلب تصدرت نيابات الشام وخاصة سنة 748هـ/ 1347م عندما وصلت إلى أقصى اتساع لها. وكان يلي نيابة حلب أمير من أكابر الأمراء المقدمين بمصر وهو بمنزلة أمير سلاح، وصار يطلق عليه ملك الأمراء.

وفي حقيقة الأمر، كانت السلطنة المملوكية تدرك تماماً خطورة الدور الذي يقوم به نواب حلب، وليس أدل على ذلك من حرص سلاطين المماليك على تحليف نواب حلب لكل سلطان جديد يعتلي كرسي السلطنة المملوكية إحساساً بقوته وخشية أن يقوم بانقلاب ضدهم[1].

---

(1) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص12 – 14.

(2) حسن: دراسات في تاريخ المماليك، ص 219 وما بعد. حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص6 وما بعد.

وانطلاقاً من أهمية نائب حلب الذي يحرس البوابة الشمالية لدولة سلاطين المماليك؛ فإن السلطنة المملوكية كانت تفوضه في التصرف فيما يخص الأمور العسكرية وخاصة عندما يشعر نائب حلب بجسامة الخطر على نيابته، لأنه كان أدرى بما يدور حول نيابته.

ولا أدل على مكانة نائب حلب بين نواب الشام من أن رسم المكاتبة إليه من الديوان السلطاني كان يماثل رسم المكاتبة لنائب دمشق، ذلك أنه كان يخاطب بعبارة «ضاعف الله الجناب العالي الأمير الكبير العالمي العادلي المهدي المشيدي العوني الزعيمي المقدمي الظهيري المرابطي المثاغري الكافلي الفلاني، عز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين، نصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، عماد الدولة عون الأمة، ذخر الله ظهير المملوك والسلاطين سيف أمير المؤمنين»[(2)].

لذلك _ من ناحية ثانية _ غدت نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك مركزاً من مراكز الإشعاع العلمي والثقافي في إقليم بلاد الشام[(3)].

أما الوظائف الإدارية بحلب، فأهمها:

نائب الغيبة، نائب قلعة حلب، أتابك حلب، حاجب الحجاب، والي المدينة، ناظر المال[(4)].

ومن الوظائف المهمة شاد مركز البريد: إذ اهتمت السلطنة المملوكية بأمر البريد في نيابة حلب ليأتي لها بالأخبار من أطراف حدود تلك النيابة التي ترامت شرقاً لتجاور المغول وشمالاً لتجاور الأرمن وغرباً لتجمع الأخبار من بحر الروم (المتوسط)، فحرص السلطان الظاهر بيبرس منذ البداية على تقوية المراكز البريدية في بالبيرة، وأنفق في ذلك الأموال الطائلة، فغطَّت شبكة البريد نيابة حلب

---

(1) انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص519 وما بعد. حسنين، مزمل: نيابات الشام في عهد دولة المماليك الأولى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1953م، ص110 وما بعد. حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص6، 7.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص61 وما بعد . حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص8، 9.

(3) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص171.

(4)المقريزي: السلوك، ج3، ق3، ص423. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج9، ص236. حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص18 – 42. عاشور: العصر المماليكي، ص429. البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص23.

كلها وربطتها بالقاهرة مركز السلطنة المملوكية سواء عن طريق الخيل أو حمام الرسائل أو عن طريق المناور، وفي جميع الأحوال كانت دمشق حلقة الوصل بين حلب والقاهرة، فتستقبل الرسائل من قلعة الجبل وتصدرها إلى أطراف نيابة حلب، كما تستقبل الرسائل من تلك الأطراف وتصدرها إلى قلعة الجبل بالقاهرة، ومن ثم يكون الطريق إلى حلب من دمشق، القصير – القطيفة – القسطل – قارا – بريح – العطش – الغسولة – سمينين – حمص – قنسرين – حلب. ومن حلب يتشعب البريد إلى خمس جهات: البيرة وبهسنى وقلعة المسلمين وإياس وجعبر[1].

وكان هناك مراكز بريدية للحمام، فكانت لها أبراج، وهذه الأبراج لها برَّاجة وخدام وأقفاص لتربية الحمام، وقد كان لأولئك الخدام والبرَّاجة مرتبات وأرزاق. وكانت مراكز البريد الخاصة بالحمام منتشرة من دمشق إلى قارا ثم إلى حمص ثم إلى حماة فالمعرة – حلب. ويتفرع من حلب إلى البيرة ومن حلب إلى قلعة المسلمين، ومن حلب إلى بهسنى ومن حلب إلى قباقب وتدمر والرحبة. ويبدو أن الحمام لم يكن هو الأساس في نقل الرسائل على عصر القلقشندي، ويتضح ذلك من قوله «وقد تعطل تدريج الحمام».

علاوة على الوسيلتين السابقتين في إبلاغ الرسائل بين نيابة حلب والسلطنة المملوكية، فإنه كان هناك المناور، وهي أماكن لرفع النار من الليل والدخان في النهار للإعلام عن حركات الأعداء إذا قصدوا أطراف نيابة حلب بهدف الإغارة. وعندما كانت ترتفع النيران أو الدخان فيكون دليل على اختلاف حالات وقوة العدو. وقد عملت هذه المناور في أعالي الجبال أو المباني العالية، وقد وجدت نماذج لها في البيرة والرحبة وغيرها، وزودت بالنظارة لرؤية ما أمامهم وما خلفهم، وكان هؤلاء لهم رواتب ثابتة. وقد كانت هذه المناور أسرع وسيلة للإبلاغ عن أخبار الأعداء، فإن «المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء، والمتجدد بها عشاء كان يعلم بها بكرة»[2].

ومن الوظائف إدارة النيابات الصغرى: إذ تبع نيابة حلب عدد من النيابات الصغرى، والملاحظ أن هناك نيابات من بين تلك النيابات الحلبية الصغرى لم يتدخل نائب حلب في تعيين نوابها، إذ كان يعين نوابها من السلطنة المملوكية مباشرة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أهمية هذه النيابات بالنسبة للسلطنة المملوكية لأنها تميزت بموقع خطير على حدود الدولة، مما جعلها محكاً مع جيرانها من العناصر المعادية كالتركمان مثلاً، وكان من الممكن أن يستقل أمراء هذه النيابات عن السلطنة

---

(1) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص29، 30.

(2) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص31، 32.

المملوكية ونيابة حلب جميعاً، ولذا أرادت السلطنة المملوكية أن تحكم قبضتها عليها، ولم تترك لنائب حلب الحبل على الغارب في التصرف في شؤون هذه النيابات بالرغم من تبعيتها لنيابة حلب إدارياً وجغرافياً[1].

وهناك ولايات حلبية كان ولاتها يعينون من قبل نائب حلب[2].

إذن؛ كان لموقع نيابة حلب وتطرفها عن قلب السلطنة المملوكية أثر في زيادة اهتمام سلاطين المماليك بها، وذلك لأنها جاورت بأطرافها المتباعدة كل أعداء السلطنة المملوكية من مغول وأرمن وتركمان وسلاجقة وصفويين وعثمانيين. فضلاً عن أنها كانت بمكانة خط الدفاع الأول عن بلاد الشام ومصر. لذا حرصت السلطنة المملوكية على إحكام قبضتها على نيابة حلب ونوابها. وقد تمثل هذا الحرص والاهتمام فيما كان يقوم به سلاطين المماليك من زيارات مفاجئة لنيابة حلب للاطمئنان على حدودها ومراقبة نوابها، مما ترتب عليه تخوُّف نواب حلب من سلاطين المماليك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حرصت السلطنة المملوكية على عدم ترك نائب من نواب حلب فترة طويلة من الزمن في مركزه حتى لا تسوِّل له نفسه الاستقلال والانفصال بها عن السلطنة المملوكية، لذلك توخت الدقة في اختيار نواب حلب. يضاف إلى ذلك اهتمام السلطنة المملوكية بشخص نائب حلب عندما يأتي لزيارة القاهرة.

وكان أن عملت السلطنة المملوكية على تقوية حلقة الوصل بينها وبين نيابة حلب عن طريق البريد. كما اهتمت بضرورة وجود قوة مملوكية ضاربة فيها لحمايتها وبالتالي حماية الشام ومصر من الأخطار الخارجية. كذلك ضمَّت كثير من القلاع والحصون إلى نيابة حلب[3].

3 ــ نيابة الكرك:

من أهم نيابات الشام، وخاصة في ظل الصراع المملوكي الإيلخاني، إذ تتمتع بمركز استراتيجي هام بحكم موقعها بين الشام ومصر والحجاز والعراق، وهي ذات أهمية عسكرية كبيرة، وبحكم وجود تحصينات كبيرة وقوية فيها خصوصاً قلعة الشوبك وقلعة عجلون وقلعة الصلت، فقد كانت تشكِّل خطاً دفاعياً أولاً لمصر ضد الصليبيين والمغول.

(1) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص47، 48.

(2) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص56.

(3) حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، ص76، 77.

وقد أدرك الظاهر بيبرس أهمية الكرك، فأرسل قوة مملوكية للسيطرة على الشوبك وتم له ذلك سنة 659 هـ / 1261م، ثم ترك بيبرس المغيث على الكرك، ثم خدعه وألقى القبض عليه وحصل على فتوى بقتله لاتصاله بالمغول. ثم توجه الظاهر بيبرس نحو الكرك التي سُلِّمت له دون قتال سنة 661 هـ / 1263م، وشرع في تنظيم شؤونها، وعيَّن نائباً مملوكياً عليها، ثم أضاف إليه الشوبك وأعمالها.

وكانت الكرك تعامل معاملة خاصة من سلاطين المماليك، فنظراً لحصانتها القوية وموقعها الاستراتيجي وقربها من مصر، أصبحت خزنة ثروات السلاطين، وملاذهم الأخير عند الملمات(1).

تكمن أهمية نيابة الكرك في مواجهة الصليبيين والمغول من موقعها في بلاد الشام، إذ اجتاحت جيوش المغول بلاد الشام سنة 658هـ/1260م، وسيطرت على حلب، ثم اتجهت نحو دمشق وسيطرت عليها، ثم بدأ المغول يشنون غارات على المناطق المجاورة، ومنها الخليل والصلت، واستولوا على قلعة الصلت، فأصبحوا بذلك محيطين بإمارة الكرك.

هنا صار أمير الكرك الملك المغيث عمر في موقف لا يُحسد عليه، وحين رأى اندفاع المماليك في مصر لمواجهة المغول، وتحركهم لصدهم عن بلاد الشام، آثر أن يظهر المقاومة للمغول، فأرسل جيش الكرك لمساندتهم في مهمتهم هذه، وأتاح لجيشه المساهمة في معركة عين جالوت ونيل شرف طرد الغزاة عن البلاد.

لذلك تشكل معركة عين جالوت حداً فاصلاً في تاريخ إمارة الكرك الأيوبية، فقد تحوّلت بعدها من إمارة قائمة بذاتها، ترفع شعار الرفض لحكم المماليك، وتدعو إلى استعادة السلطنة منهم، كونهم مغتصبين لها، إلى إمارة تطالب بأن تكون تابعة لهم، فهذا ما طالب به صاحبها الملك المغيث عمر في رسالة بعث بها سنة 658هـ/1260م إلى السلطان المظفر قطز، إبان وجوده في بلاد الشام. جاء رد السلطان المملوكي على هذا الطلب متحفظاً ومنسجماً مع خلفية العلاقة السيئة بين المماليك وبين الملك المغيث من جهة، ومع ظروف ما بعد معركة عين جالوت التي كانت تتطلب التريث باتخاذ مواقف

---

(1) انظر الخالدي، عبد الله بن لطف الله: المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الانشا، تح: خليل شحادة، أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1988، ص286. الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، ج3، ص 1254، 1265. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص35. النهار: تاريخ المماليك، ص109.

حاسمة تجاه القوى المحلية في بلاد الشام من جهة أخرى، لذا فقد وافق على طلب الملك المغيث، ولكنه انتزع منه الصلت والخليل والبلقاء، وأقرَّه على الكرك والشوبك فحسب، مما يعد إشارة واضحة إلى مرحلة صعبة كان على إمارة الكرك أن تواجهها، وبخاصة عند ما تولى السلطنة المملوكية الظاهر بيبرس البندقداري سنة 659هـ/1259م[1].

لم يكن الظاهر بيبرس غريباً عن إمارة الكرك، فقد أقام فيها بين سنتي 655ـ657هـ / 1257ـ1259م، وعرفها عن كثب، وأدرك مدى حصانة مواقعها، وأهميتها العسكرية، وتحالف خلال ذلك مع صاحبها الملك المغيث، ثم تخلى الأخير عنه، وصار يلاحقه، فالتجأ إلى من يأويه، مما ترك أثراً سيئاً لديه، ظل يشير إليه كلما وجد فرصة لذلك، لذا فقد كان من غير الطبيعي أن يُقر ما سبق أن اتخذه سلفه السلطان المظفر قطز، من استمرار الملك المغيث أميراً على الكرك والشوبك، إضافة إلى أن بقاء هاتين المدينتين المهمتين، وبما عرف عنه من طموحات سياسية، يتناقض مع أحد مرتكزات خطة الظاهر بيبرس التي أعدها لمواجهة المغول الذين كانوا يتحينون الفرصة من خلال قواتهم الكثيفة في العراق، للانقضاض ثانية على بلاد الشام، انتقاماً لما حصل لهم في معركة عين جالوت، واستكمالاً للخطة العسكرية التي خرجت حملة هولاكو لتحقيقها والتي تتضمن احتلال بلاد الشام ومصر[2].

اعتمدت خطة الظاهر بيبرس هذه على تشكيل خطوط من القلاع والحصون في بلاد الشام كافة، وتهيئتها تحصيناً وتعبئة، لكي تكون ظهيراً قوياً لقواته العسكرية في حالة مهاجمتها للمغول، وخطاً دفاعياً رصيناً، في حالة تعرض البلاد إلى هجوم مغولي، لذا فقد بدأ في السنة الثانية من حكمه خطة لانتزاع قلعتي الكرك والشوبك من الملك المغيث، والقضاء عليه، وبدأ أولاً بأقربها إليه قلعة الشوبك التي تمكن منها، وبموجب تدبير تم قبل ذلك مع بعض أمرائها، إذ أرسل الأمير بدر الدين الأيدمري على رأس قوات عسكرية فحاصرها، ثم تسلمها من نائب الملك المغيث فيها، في ذي العقدة من سنة 659هـ/1261م.

---

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص326. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص51. أبو عليان، عزمي محمد: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ط1، 1995م، ص17 وما بعد.

(2) العبادي، أحمد المختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م، ص17 وما بعد. البخيت، محمد عدنان: نيابة الكرك في العصر المملوكي، مكتبة الجامعة الأردنية، ط1، 1976م، ص94 وما بعد.

ويبدو أن الظاهر بيبرس كان يخطط إلى جعل الشوبك وما حولها قاعدة تسند تحركه نحو الكرك مستقبلاً، لذا فإنه لم يكتف بسيطرته عليها وتعيين نائب له فيها وتوفير كل احتياجات قلعتها من السلاح والرجال، بل استدعى زعماء العرب في المناطق المحيطة بها إلى مصر، وشملهم بعطفه وكرمه وأقطعهم الإقطاعيات الكثيرة، ثم عادوا وقد انتظموا في خدمته.

حاول الملك المغيث محاولات عديدة لاسترداد الشوبك، وفي 661هـ/1262م قبض عليه الظاهر بيبرس، ثم قتله في مصر سنة 662هـ/1263م، وبذلك انتهى آخر بقايا الحكم الأيوبي في الكرك والشوبك وأطرافهما، وقد أصبحت جميعها تابعة لسلاطين المماليك.

تصرف الملك الظاهر بيبرس تجاه الكرك بسياسة هي أقرب إلى الترغيب وتأليف القلوب وإشاعة روح التسامح، وتصرف أيضاً مع جيش الكرك الذي كان مرافقاً للملك المغيث تعاملاً حسناً، فقد منع التعرض له بسوء، بل أغدق أعطياته على أفراده، وخلع عليهم وأكرمهم، مما يبدو وكأنها رسالة أراد بها تطمين بقية أفراد هذا الجيش، الذين كانوا مقيمين في الكرك آنذاك.

استطاع الظاهر بيبرس أن يشيع جواً من الثقة بينه وبين أهل الكرك، وهنا بدأ خطوته التي شكلت حجر الزاوية في استقرار المنطقة، فقام سنة 661هـ/1262م بتعيين نائب مدينة الشوبك وأعمالها إليها لتصبح مع هذا التاريخ واحدة من التشكيلات الإدارية الرئيسة في بلاد الشام، والتي أطلق على كل منها صفة مملكة أو نيابة(1).

كان لإجراءات الظاهر بيبرس هذه أثر كبير في استقرار الوضع في مملكة الكرك طوال السنوات السبع عشرة من حكمه (661ـ676هـ/1262ـ1277م)، وحكم ابنه الملك السعيد (676ـ678هـ/1277ـ1279م)، ولم يشذ عن ذلك سوى ما اكتشفه الظاهر بيبرس سنة 674هـ/ 1275م من انخراط ستمئة من المماليك البحرية المقيمين في قلعة الكرك في حركة كانت تخطط للإطاحة به بالتعاون مع جهات أخرى، غير أن هذا التحرك الذي قضي عليه في مهده في السنة التالية، لم يكن له علاقة بمجتمع مملكة الكرك، ولم يؤثر على الوضع فيها، بل إن اكتشافه ساعد على تقويتها إدارياً وعسكرياً، فقد اتخذ الظاهر بيبرس قراراً باستحداث منصب والي للقلعة، عيَّن فيه الطواشي

---

(1)ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص327–328. البخيت: نيابة الكرك في العصر المملوكي، ص94 – 97. شبارو، عصام: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1999م، ص222. الدباغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، دار الهدى، 1991م، ص532.

شمس الدين صواب السهيلي الصالحي، فوض إليه فيه النظر في شؤون القلعة، كما جلب مجموعة من المماليك السلطانية المعروفة بولائها له، وأسكنها فيها، عوضاً عن أولئك الذين تآمروا عليه(1).

وليس من شك أن مما ساعد على رسوخ هذا الوضع المستقر في مملكة الكرك خلال هذه الحقبة، الثقة التي أولاها الظاهر لنائبيه فيها، فقد استقر أولهما وهو الأمير عز الدين أيدمر الظاهري تسعة أعوام (661ـ670هـ/1262ـ1271م)، واستقر ثانيهما وهو علاء الدين أيدكين الفخري سبعة أعوام (670- 677هـ/1271-1278م)، مما أتاح لهما الفرصة الكافية لمتابعة شؤون المملكة، كما أن ذلك يرجع من جهة أخرى إلى أن الظاهر بيبرس مع تعويله على نائبيه المشار إليهما، كان يتابع شؤونها ويتفقدها بين آونة وأخرى، فقد زارها أربع مرات بين سنتي (667ـ674هـ/1268ـ1275م).

انعكست الأحداث السياسية التي أعقبت وفاة الظاهر بيبرس سنة 676هـ/1277م على أوضاع مملكة الكرك، فقد تولى السلطنة بعده ابنه الملك السعيد، الذي لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من سنتين (676ـ678هـ/1277ـ1279م)، إذ أجبره كبار أمراء المماليك على التنازل عن السلطنة، ثم أقطع الكرك وعين نائباً للسلطنة فيها، شريطة ألا يتطرق لغيرها ولا يكاتب أحداً من النواب، ولا يستميل إلى جهته أحداً من الجند، ولا من الأعراب، بل إنهم أقطعوا أخاه الأمير خضر مدينة الشوبك، وتكمن خطورة هذا الحدث في تناقضه مع السياسة التي اعتمدها الظاهر بيبرس، والتي تحرى فيها ألا تقطع مملكة الكرك لمن يتولاها، وألا يعين عليها أمير من الأسرة الحاكمة، وهي سياسة أثبتت نجاحها في خلق حالة من الاستقرار في المملكة.

لقد أدى قرار منح الكرك إقطاعاً للملك السعيد، وتعيينه نائباً للسلطنة فيها، إلى إدخال المملكة في مرحلة من الصراع السياسي والعسكري دامت سبع سنوات (678ـ685هـ/1279ـ1286م)، كان على السلطان المنصور قلاوون الذي تولى السلطنة سنة 678هـ/1279م، أن يواجهها(2).

لم يلتزم الملك السعيد بتعهداته آنفة الذكر، إذ بدأ بعد وصوله إلى الكرك يخطط للقيام بتحرك يعيد إليه ملكه، وإن لم يعلن ذلك صراحة. وقد ساعده في هذا أهل الكرك الذين كانوا قريبي عهد بإدارة أبيه

---

(1) ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص358 - 360. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص327 - 329. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص58. البخيت: نيابة الكرك في العصر المملوكي، ص97. الدباغ: بلادنا فلسطين، ص532.

(2) أحمد إسماعيل: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مركز الخدمات الطباعية، دمشق، 2000، مج6، ص699، 700. زيتون، عادل: تاريخ المماليك، جامعة دمشق، 2007، ص40.

الناجحة لبلدهم فأحبوه، والتفوا حوله، وبخاصة أنه كان قد ألغى الضرائب والمكوس التي كانت مفروضة عليهم وصار ينعم عليهم ويحيطهم بعطفه ورعايته، مستفيداً في ذلك من الأموال والمدخرات الكبيرة التي كان والده قد اختزنها في قلعة الكرك، كما أنه استفاد من هذه الأموال في شراء أعداد كبيرة من المماليك، تقوية لجيش الكرك.

حصلت هذه التحركات في مملكة الكرك في وضع كانت الدولة المملوكية تواجه إشكاليات كبيرة في بلاد الشام، وفي أطرافها، فقد أعلن نائب الشام الأمير سنقر الأشقر تمرده على السلطان المنصور قلاوون 679هـ/ 1280م، كما كانت البلاد مهددة من قبل الفرنج الصليبيين، في صور وعكا وغيرهما من المدن الساحلية، ومن قبل المغول الإيلخانيين الذين كانت قواتهم العسكرية في العراق في حالة تأهب للهجوم على بلاد الشام.

أمام هذا الوضع المتأزم، ولكي لا تتحول مملكة الكرك إلى بؤرة تعمق الوضع المضطرب في بلاد الشام، وتمزق وحدة البلاد، وتكون عاملاً مساعداً في إنجاح خطط المعادين للدولة المملوكية في الداخل والخارج، قام المنصور قلاوون بتوجيه قواته نحو الشوبك فسيطر عليها، مما اضطر الأمير خضر ابن الظاهر بيبرس، الذي كانت قد أقطعت له قبل ذلك مغادرتها والالتحاق بأخيه في الكرك، وقد أدى هذا إلى تضاؤل دور الملك السعيد في المنطقة، وأضعف موقفه، وجعل تحركاته مكشوفة إلى حد كبير، بحكم قرب الشوبك من الكرك.

أثارت خطوة المنصور هذه الملك السعيد، فوجه قواته نحو الشوبك وسيطر عليها، كما أقام تحالفاً مع الأمير سنقر الأشقر الذي كان يقود ثورة في بلاد الشام، ولم يلتفت إلى مراسلات السلطان المنصور قلاوون له بالتوقف عن خططه هذه، والالتزام بالشروط المتفق عليها بينهما. لم يحقق الملك السعيد شيئاً وراء خطته هذه، فقد تمكنت قوات السلطان المنصور قلاوون من استعادة الشوبك، في العاشر من ذي القعدة من سنة 678هـ/1279م، وغاب هو عن ساحة الصراع، إذ توفي في اليوم التالي من هذا التاريخ[1].

ما إن توفى الملك السعيد، حتى اجتمع أمراء المماليك في الكرك، واختاروا أخاه الأمير خضر أميراً عليهم، ولقَّبوه بالملك المسعود.

---

(1) علي: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مج6، 700. زيتون: تاريخ المماليك، ص45.

تابع أمير الكرك الجديد خطوات أخيه في مناهضة السلطان المنصور قلاوون، وبدأ تحركه سنة 678هـ/1279م في اتجاهين، أولهما توسيع رقعة المملكة بما يعوضه عن خسارته في الشوبك التي سبق أن انتزعت منه، فتوجه بقواته شمالاً وتمكن من السيطرة على البلقاء ومدينة الصلت فيها، وثانيهما تحالفه مع الأمير سنقر الأشقر نائب الشام الذي كان يقود ثورة فيها ضد المنصور قلاوون.

لم تدم هذه الجبهة طويلاً، فقد تفككت سنة 679هـ/1280م، وتمكنت قوات المنصور قلاوون أن تسترجع منطقة البلقاء، وتعيد المملكة ثانية لتقتصر على الكرك وأعمالها فحسب، مما دفع بالملك المسعود 680هـ/1281م إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان المنصور قلاوون، حاول فيها أن يحصل على حدود جديدة لمملكة الكرك، تضمن له توسيع نفوذه فيها، واستمرت المفاوضات حتى السنة التالية ثم توصل الطرفان إلى صلح تم بموجبه إقرار الملك المسعود في حكم الكرك وأعمالها. ولقد استمر الصلح سنتين، وكان من ثمراته مشاركة جيش الكرك في حملة كبيرة قادها الملك المنصور قلاوون ضد المغول، انتهت بالانتصار عليهم، وطردهم من بلاد الشام سنة 680هـ / 1281م[1].

أدى هذا الموقف إلى تعرض مملكة الكرك إلى حملتين عسكريتين، توجهت أولاهما سنة 682هـ/1283م بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، وكان هدفها كما حدده لها السلطان المنصور قلاوون القيام بمحاصرة الكرك ومضايقة الملك المسعود وعساكره من جهة، ومحاولة فتح أبواب الحوار معه لعله يرجع عن سياسته المعادية للسلطنة.

تصدى الملك المسعود لهذه التجريدة، وقام رجال الكرك بالتسلل إلى مواقعها، وأوقعوا فيها خسائر عديدة. ويبدو أن المنصور قلاوون أدرك أن مهمة اقتحام مدينة الكرك وقلعتها بما تمتلكانه من تحصينات أكبر من قدرة القوات المحدودة التي كانت تضمها هذه التجريدة، فأعطى أوامره بالانسحاب بعد أن رعت ما حولهم من الزروع.

ومع أن هذه الحملة لم تكن لها هذه القدرة، إلا أنها ساعدت في معرفة حقيقة الموقف، وإبعاد السياسة التي كان يمارسها آنذاك الملك المسعود، وهو أمر أفاد السلطان قلاوون في تحركاته تجاه مملكة الكرك خلال السنوات التالية.

---

(1) قاسم، عبده قاسم: الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ص178. علي: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مج6، 700.

لقد كانت السبع سنوات من حكم الملك السعيد والملك المسعود (678ــ685هــ/1279–1286م) كافية لكي تضع مملكة الكرك في حالة استهلاك، استنزفت كثيراً من طاقتها، ومخزونها من الأموال والغلال، ذلك أن المملكة صبَّت أكثر جهدها على زيادة إمكاناتها العسكرية، ومواجهة حالات الحصار التي تعرضت لها[1].

ذلك هو واقع مملكة الكرك، عندما تسلمها رجال السلطان المنصور قلاوون من الملك المسعود، فهل تغير وضعها في ظل الإدارة الجديدة؟.

تعكس الإجراءات الأولى التي اتخذها المنصور قلاوون في مملكة الكرك، والتي كان قد خول قائد حملته الأمير طرنطاي بتنفيذها، رؤية واضحة لما كان يريد اتباعه في إدارتها، والذي يتمثل بالعودة إلى ذات الأسلوب الذي سبق أن اتبعه فيها الظاهر بيبرس، أي باعتماد تعيين نواب للسلطنة، من غير أبناء الأسرة الحاكمة، وتجنب إقطاع أراضي المملكة وأعمالها إليهم، وإقامة علاقة وثيقة مع شرائح المجتمع الكركي المختلفة، بما يضمن ولاءها للدولة.

في ضوء هذا التوجه، تم تعيين الأمير عز الدين أيبك الموصلي نائباً للسلطنة في مملكة الكرك، كما عيَّن أميران آخران، أولاهما لولاية المدينة، وهو الأمير عز الدين آيبك النجمي، وثانيهما لولاية القلعة، وهو بدر الدين بكتوت العلائي.

وقد أعقب هذه الإجراءات، قيام الأمير طرنطاي بتقديم الخلع لرجال قلعة الكرك، ولمقدمي المدينة والأمراء العرب، في محاولة لضمان ولاء العساكر المقيمة في القلعة، ولإقامة جسور من الثقة بين الدولة، وبين أهل الكرك والمناطق المجاورة لها من جهة، وأعرابها من جهة أخرى، وهما الشريحتان الأساسيتان في مملكة الكرك، واللتان لا بد لأي حاكم أن يكسبهما، إذا ما أراد وضعاً مستقراً فيها.

لم يكتف المنصور قلاوون بما اتخذه من إجراءات في مملكة الكرك، بل آثر أن يقوم بزيارتها للاطمئنان على سلامة أوضاعها، فتوجه إليها أواخر سنة 685هــ/1286م، واصطحب معه المؤرخ الأمير بيبرس المنصوري الدوادار، وأعلمه وهو في طريقه إليها، بقرار تعيينه نائباً للسلطنة فيها.

---

(1) البخيت: نيابة الكرك في العصر المملوكي، ص99. علي: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مج6، 700.

مع وصول الملك المنصور إلى الكرك، ركَّز على ما يقرِّب أهلها إليه، ويرفع من ذهنهم ما كانوا يتوقعونه من محاسبة لهم، بسبب مشاركتهم في ثورتي الملك السعيد، والملك المسعود، فشمل كل ذي خدمة، وكل ذي حرمة، وكل ذي نعمة باهتماماته، وأراد أن يشعرهم بمدى محبته لمدينتهم، فأمر جميع من كان معه من المماليك، بالعمل على تنظيف وحفر البركة التي بباب النصر، وكانت قد أهملت وارتدمت، بل وساهم هو بالاشراف عل هذا العمل الذي استغرق سبعة أيام، كما اهتم بشؤون القبائل العربية، ورتَّب أحوالها، وجدَّد لأمرائها مناشير إقطاعاتهم.

وأجرى لهم عادات صلاتهم بالصيغة التي كانت عليها من قبل، أما الجانب الآخر الذي أولاه اهتمامه، فهو قلعة الكرك التي هيأ لها أعدادا كبيرة من المماليك السلطانية المنصورية المعروفة بولائها له ونسبتها إليه، وجلب إليها من السلاح ما ملأ خزائنها، كما أعطى أوامره بزيادة تحصيناتها، وترميم أو تجديد ما يحتاج إلى ذلك فيها. غادر المنصور قلاوون الكرك، بعد أن أجرى تغييراً إدارياً نقل بموجبه الأمير عز الدين أيبك الموصلي إلى نيابة السلطنة في غزة، ورسم بتعيين المؤرخ الأمير بيبرس المنصوري الدوادار نائباً للسلطنة فيها، وأنعم عليه بثمانين فارس يكونون معه، وبإقطاع خارج منطقة الكرك، فلما وصل إلى القاهرة أرسل له منشوراً بذلك.

مع هذه الإجراءات، أرسى المنصور قلاوون أساساً راسخاً لمملكة الكرك، كان على النائب الجديد الذي أمضى في حكمها قرابة خمس سنوات 685-690هـ/1286-1291م متابعتها[1].

لم تظهر أية متغيرات سلبية في حياة مملكة الكرك خلال عهد السلطان الأشرف خليل 689ـ693هـ/1290ـ1293م، الذي أعقب أباه المنصور قلاوون في الحكم، ويبدو أن الفضل في ذلك يعود إلى جهود شخصيتين تولتا نيابة السلطنة فيها، وهما الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار، والأمير جمال الدين آقوش.

تولى الناصر محمد، وهو في عمره الصغير هذا، عرش السلطنة سنة 693هـ/1293م، فأذكى ذلك عوامل الصراع بين كبار الأمراء المماليك لانتزاع السلطنة منه، ونجح بعضهم في عزله والحجر عليه في قلعة الجبل بالقاهرة بعد سنة من تعيينه، وذلك في 11 محرم من سنة 694هـ/1294م، ثم بدؤوا يفكرون بمكان آخر يرسلونه إليه، فوجدوا في مملكة الكرك المكان الملائم، فأرسلوه سنة

---

(1) علي: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مج6، 701.

696هـ/1296م مع والدته إليها، ولم يمض على بقائه فيها سنة واحدة حتى طالبه الأمراء المماليك في القاهرة بضرورة العودة إليها لتسلم السلطنة ثانية[1].

4 ـ نيابة غزة:

لموقع غزة أهمية عسكرية، إذ تشكل حلقة الاتصال بين مصر والشام، لذلك كان يتطلع إلى فتحها ملوك مصر إذا تطلعوا لفتح الشام، وكان الاستيلاء عليها يعني السيطرة على طرق الحرب والتجارة بين آسيا وأفريقيا.

وقد بيَّن الأمير كراي المنصوري أهمية غزة للسلطان الناصر محمد قائلاً: «من ملك غزة ملك مصر»[2].

وكانت غزة في العصر المملوكي من النيابات الصغرى التي كانت تابعة لنيابة دمشق، ثم اتخذت صفة النيابة المستقلة في عهد الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة، حيث أرسل الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائباً عليها سنة 711 هـ / 1311م.

وفي بعض التفاصيل:

بقيت غزة تابعة لنيابة دمشق واستمر ذلك حتى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث أفردت 711هـ/1311م، نيابة قائمة بذاتها، وهناك عوامل عديدة جعلت غزة تكتسب مكانة خاصة في هذا العهد يبدو ذلك من قول المؤرخين: ((هي مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود لجيش الإسلام في أبواب الرمل وكل صادر ووارد إلى الديار المصرية والشامية)).

كما أن الأمير كراى المنصوري بيَّن أهمية غزة للسلطان الملك الناصر أثناء وجوده في الكرك 708هـ/1308م، وأن من ملك غزة ملك مصر، زيادة على موقعها الجغرافي الهام بين مصر والشام، كل هذا جعلها تحتل أهمية خاصة عند السلطان الملك الناصر.

---

(1) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م، ص107 وما بعد. شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص236.

(2) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص352، 353.

فبعد معركة عين جالوت قُتل المظفر قطز، وتسلم الحكم الظاهر بيبرس البندقداري، الذي قام بزيارة غزة، وكان سبق له أن عرف غزة لاجئاً إثر مقتل الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، كما اتخذها مركزاً للانطلاق إلى الديار المصرية وذلك بتشجيعه للملك المغيث الأيوبي.

ودخلها بعد سلطنته في 659هـ/1261م بصحبة الخليفة المستنصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر عند توجههما إلى الشام. ونزلها في 661هـ/1263م، فوجد بها والدة المغيث تستعطفه وتستأمن منه لحضور ابنها، فأجابها وأعادها إلى الكرك معززة مكرمة، ونزلها في العام التالي أثناء خروجه إلى قتال الإفرنج بالشام، وعلى إثر عودته من دمشق عام 665هـ/1266م، عائداً إلى الديار المصرية، إذ قصد زيارة الكرك، إلا أن حصانه كبا به قرب بركة زيزة في الطريق إلى الكرك، فعدل عن زيارتها وسار إلى غزة، واستدعى أمراء الطبلخانات بها وأنعم عليهم، ثم توجه إلى القاهرة ونزلها السلطان في العام نفسه، فقدم عليه بها رسل الإفرنج، ومعهم الهدايا، وعدد من أسرى المسلمين، فكسا الأسرى وأطلقهم، ورحل إلى صفد لإعمارها[1].

ومع وصول السلطان قانصوه الغوري للحكم سنة 906 هـ / 1501م، فصلها عن دمشق وأعطاها صفة النيابة التي تتبع السلطان مباشرة، مع إعطاء نائب دمشق إشرافاً أدبياً عليها، وبذلك تصبح غزة النيابة السابعة في بلاد الشام في العصر المملوكي المتأخر[2].

5 ـ نيابة طرابلس:

تقع على شاطئ البحر المتوسط، لذلك هي نيابة مهمة جداً، فتعد من نيابات الثغور القريبة من البحرية الصليبية التي كانت تمارس القرصنة والإغارة الدائمة، وكانت تتحالف مع المغول،

(1) ابن سباط، حمزة بن أحمد: تاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، ط1، لبنان، 1413هـ/1993م، ص397. ابن الدواداري، عبد الله بن أيبك: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخهارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1871م، ص95 . عطا الله، محمود علي خليل: نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الأفاق الجديدة، ط،1،بيروت، 1986م، ص191.

(2) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج3، ص352، 353. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص193. النهار: تاريخ المماليك، ص110. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص332.

حررها المماليك في عهد السلطان المنصور قلاوون عام 688 هـ / 1289م، بعد أن ملكها الفرنج 184 سنة، وبذلك جعلها نيابة، فكانت آخر ولاية كبيرة تنضم للدولة المملوكية[1].

6 ــ نيابة حماة:

تتميز حماة بموقعها على طرف بادية الشام، فعُدت حاضرة بدو بلاد الشام وبادية الشام التي تتصل مباشرة مع بدو شبه الجزيرة العربية، وهي تقع على نهر العاصي وفي موقع متوسط من بلاد الشام على طريق القوافل وشبكة الاتصالات، كما منحها موقعها هذا قيمة عسكرية كبيرة.

ولقد بقيت محتفظة باستقلالها وتبعيتها للبيت الأيوبي لمدة 72 عاماً في إطار الحكم المملوكي زيادة عن مثيلاتها من الممالك الأيوبية، إذ بقيت مملكة أيوبية خاضعة للسلطان المملوكي حتى وفاة ملكها المؤيد آخر ملوكها الأيوبيين سنة 741 هـ / 1341 م، لتصبح نيابة مملوكية في عهد المنصور أبي بكر[2].

7 ــ نيابة صفد:

وهي أول نيابة في العصر المملوكي شُكلت في فلسطين لأغراض عسكرية وأمنية، فقد تشكلت كنيابة من نيابات الشام حين حررها الظاهر بيبرس سنة 764 هـ / 1363م، وكان من أهم مهامها التصدي للصليبيين في عكا والمناطق الأخرى التي ما زالت بأيديهم، لذلك حشدت السلطات المملوكية حامية عسكرية كبيرة فيها، كان لها دورها المؤثر في معارك التحرير[3].

8 ــ نيابة بيت المقدس:

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص235. القلقشندي: صبح الأعشى، (الذخائر)، ج4، ص139، 140. العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص33، 34. النهار: تاريخ المماليك، 108.

(2) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص235. القلقشندي: صبح الأعشى، (الذخائر)، ج4، ص139، 140. العثماني: تاريخ صفد، ص14، 15. سبانو، أحمد: مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، 1984م، ص 92 وما بعد. النهار: تاريخ المماليك، ص108. عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام، ص306.

(3) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص50. العثماني، محمد بن عبد الرحمن، تاريخ صفد، تحقيق سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2009، ص3. النهار: تاريخ المماليك، ص109.

كان من عوامل التقارب الإيلخاني الصليبي الاتفاق على مساعدة المغول للصليبيين للسيطرة على بيت المقدس، وقد قدَّم عدد من خانات مغول فارس الوعود للصليبيين بذلك، وهذا يُبرز أهمية نيابة بيت المقدس.

فكان بيت المقدس من النيابات الصغيرة التابعة لدمشق، خلا بعض الأزمنة حين عومل كنيابة مستقلة، وفي سنة 777 هـ / 1375م قام الأشرف شعبان برفع مرتبة نائبه فجعله طبلخاناة، ولكنه أبقاه تابعاً لدمشق، وكان يتم تعيين نائبه من قبل نائبها، وهذا ما يؤكده ابن تغري بردي في قوله: ((ولما كان الوالي على نيابة دمشق كان يولي نائب القدس والرملة وصيدا وبيروت وبعلبك وغيرها على عادة من تقدمه))[1].

ولكن السلطان قلاوون أورد بيت المقدس بمعاهدة الصلح مع الفرنج على أنها «مملكة القدس الشريف» إذ أصبحت تولية نائبها تتم من قبل السلطان مباشرة[2].

وقد اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي تحولت فيه بيت المقدس إلى نيابة مستقلة مرتبطة بالقاهرة بشكل مباشر، فيرى البعض أن القدس تحولت إلى نيابة في عهد السلطان محمد بن قلاوون سنة 709 هـ/ 1309م. وقال بعضهم سنة 796 هـ/ 1393م وقال غيرهم غير ذلك[3].

إلا أن المؤرخ ابن حجر في حديثه عن سنة 777هـ/ 1375م يقول: ((وفيها استقر تمراز في نيابة القدس وهو أول من ولي نيابتها، وكان قبل ذلك يكون فيها والٍ من جهة وال الولاة بدمشق))[4].

---

(1)ابن تغري بردي، يوسف: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحرير وليم بوبر، الولايات المتحدة، كاليفورنيا، 1930م، ج3، ص545.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، (الذخائر)، ج4، ص199. الحنبلي، مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح عدنان أبو تبانة، عمّان، الأردن، مكته دنديس، ط1، 1999م، ج2، ص282. غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي. النهار: تاريخ المماليك، ص111.

(3)علي، السيد علي: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1986م، ص59.

(4)ابن حجر، أحمد: أنباء الغمر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، المجلس للشؤن الاسلامية ، القاهرة، 1971م، ج1، ص107.

أما أهم عامل شجَّع السلطان الأشرف شعبان على تحويل بيت المقدس إلى نيابة فهو طبيعة حكم سلاطين المماليك الذي اعتمد على القوة العسكرية والواجهة الدينية، فاتخذ السلطان الأشرف شعبان عدة إجراءات احتياطية وقائية لترسيخ تلك الطبيعة كان من جملتها رفع مدينة بيت المقدس من الناحية الإدارية إلى نيابة على رأس نائب للسلطان مسؤول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها، وإذا كان تدخل السلطان المباشر في بعض الأقاليم يرجع لأسباب حربية فإن حرصه على التمسك بحقه في شغل الوظائف الدينية بالقدس يرجع إلى أهميتها الدينية والتي استغلها السلاطين كسند في ظهورهم بمظهر حماة الإسلام والمدافعين عنه وعن مقدساته، ولكي تتمكن بشكل خاص من أن تقف بقوة وحزم في وجه الأخطار والأطماع الصليبية والمغولية معاً[1].

[1]علي : القدس في العصر المملوكي، ص 32-34.

الفصل الخامس
العلاقات المملوكية الإيلخانية
في عهد الظاهر بيبرس
658 – 676هـ / 1260 – 1277م

أولاً _ التطورات على الجبهة المغولية:

تعلقت هذه التطورات بتنصيب أباقا خان، والمشكلات التي واجهته، وحروبه، وتحالفاته مع الغرب.

1_ تنصيب آباقا خان ابن هولاكو خان حاكماً (663–680هـ / 1264 – 1281م):

أباقا خان، أو أباغا خان، هو ثاني ملوك إيلخانات فارس، ابن هولاكو وابن زوجته المسيحية، دخل فارس مع أبيه سنة 654هـ / 1256م، وبعد وفاة هولاكو نصَّبته أمه، وكان يحكم آنذاك خراسان ومازندان، فأنفذت له رسولاً على عجل إلى آران حيث كان يمضي شتاءه، واستدعته إلى معسكر المغول في جغاتو، فارتقى عرش هولاكو رسمياً في الثالث من رمضان 663هـ /1264م.

ويقال لأباقا وقبله هولاكو وأخلاف هولاكو الذين حكموا من تاريخ موت الأخير حتى انهيار أسرتهم في إيران: سلسلة سلاطين المغول الإيلخانيين، وتعد أسرتهم أسرة مستقلة لقلة علاقاتها مع خانات بلاد المغول[1].

2_ المشكلات التي واجهته:

كان معظم حكمه منشغلاً بالحروب الأهلية التي عصفت بإمبراطورية المغول، خاصة مع خانات القبيلة الذهبية.

كما كان عليه مواجهة الخطر المملوكي الذي برز بعد الهزيمة التي مني بها المغول في معركة عين جالوت، للمحافظة على إرث والده والتوسع به وتحصينه كي لا ينهار أمام قوة المماليك.

فبعد أن جلس أباقا خان على عرش إيلخانية فارس عيَّن أخاه الصغير لحكم دربند وشروان وصحراء موغان، وجعل رئاسة جيش المغول في الروم وحدود بلاد الشام لاثنين من قواده، وترك فارس وبغداد إلى سونجاق، وأبقى الأمير عطا ملك الجويني على حكم بغداد، وكانت وزارته من نصيب شمس الدين محمد صاحب الديوان الجويني، كما كان حالها في الجزء الأخير لسلطنة هولاكو، فقام بتدبير أمور الملك في تبريز، وابنه بهاء الدين محمد في أصفهان والجزء الأكبر للعراق العجمي[2].

---

[1] إقبال: تاريخ إيران، ص445. منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص443.

[2] منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص444.

أما خراسان فقد فوضت إلى اثنين من الأمراء المحليين، وكرمان إلى تركان خاتون، وفارس إلى الملكة ابش خاتون، وهراة إلى الملك شمس الدين، وكان علاء الدين عطا ملك الجويني طوال مدة سلطان أباقا خان (663–680هـ / 1264 – 1281م) حاكم بغداد وكل عراق العرب من جانب سونجاق اسما، ولكنه في الحق كان مستقلاً في عمله تمام الاستقلال، وسعى طوال سعيه مدة حكمه في تعمير العراق وترميم ما خرّبه المغول، فأحال الأرض البوار إلى مزارع فيحاء، وتقدم في أعماله العمرانية.

وبنى أباقا في بغداد أريافاً وقرى جديدة كثيرة، شق قنوات الري للزراعة، وحول الأراضي الصحراوية إلى مزارع خضراء جميلة، وحتى أنه تقدم في هذا العمل كثيراً إلى درجة يمكننا القول بأن بغداد في عهده صارت أفضل وأجمل من عهد الخلفاء.

كان شمس الدين الجويني صاحب الديوان وأخوه عطا ملك من أهم من أسهم في ازدهار دولة أباقا خان. وقام صاحب الديوان بجمع الضرائب العامة لبلاد أباقا خان، وإدارة أمورها وإجراء سياستها، فازدهرت بلاد فارس في عهده.

وقد اصطفى أباقا مدينة تبريز عاصمة له، وكان يقضي شتاءه في إيران وبغداد، وصيفه في الاتاغ والجيل الأسود. ولقيت تبريز في عهد حكمه ووزارة صاحب الديوان شمس الدين تصاعداً في الرقي المتزايد، خاصة وأنها لم تبتل في عهد المغول بالكثير من المصائب، ولم تنهب مثل غيرها من بلاد إيران وما وراء النهر.

وهكذا نرى أن أباقا خان أعطى دولته إدارياً وعمرانياً جانباً مهماً من الاهتمام، كما أنه أحسن في اختيار وزراءه وحاشيته، فكان صلاح بطانته سبباً في ازدهار بداية حكمه واستقراره بعض الشيء.

كما اتصف حكمه بالاستقرار وتخفيض الضرائب، وحكم سبع عشرة سنة وأربعة أشهر[1].

3_ حروب أباقا خان:

تكلم عدة مؤرخين على تقريب أباقا المسيحيين إليه بسبب ابنة أحد أباطرة الروم الشرقية متأثراً بنفوذها ونفوذ أمه المسيحية، وجعل منهم وسيلة لقتال الشام ومصر الذين كانوا في قتال مع الصليبيين، وعقد عن طريقهم مع البابا وسلاطين أوروبة مراراً اتحاداً ضد المماليك[1].

---

[1] منصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص444، 445. الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية ، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص138. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص122.

ظهر لأباقا غريمان كبيران إثر غزوات عهد هولاكو الأخيرة، وهما جنود أبيه بوكاى ولدجوجي، فأرسل في أوائل سنة 664هـ / 1265م أخاه لمقاتلة بوكاى، ومع أنه كان منتصراً في البداية، إلا أنه بمجرد أن بلغ جيش بوكاى الأساسي إلى وادي نهر كورا استوحش أباقا من قوة عدوه فآثر العودة، واتفق في هذه الأثناء موت بركاى.

كما زحف براق ملك بلاد جغتاي الذي كان يحكم على التركستان وما وراء النهر بجيوشه لقتال أباقا وقام خلال سنة 667هـ 1268م وسنة 668هـ / 1269م بحروب في خراسان وأذربيجان، فأعاد أباقا السيطرة على خراسان، ولاذ براق بالفرار[2].

4_ أباقا ومحاولة التحالف مع الغرب[3]:

---

[1]انظر

THOMAS TANASE; UNE LETTRE EN LATIN INÉDITE DE L'ILKHAN ABAQA AU PAPE NICOLAS III: CROISADE OU MISSION?, Istituto per l'Oriente C. A. Nallino, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, LES RELATIONS DIPLOMATIQUES ENTRE
LE MONDE MUSULMAN ET L'OCCIDENT LATIN (XIIE-XVIE SIÈCLE) (2008), pp. 333-347 .

وهو بحث يتحدث عن تحالفات أباقا مع الغرب، ويعطي أهمية كبيرة لمراجع ذلك في الدراسات الغربية خاصة.

[2] المنصور: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص445.

[3] يجب الإشارة إلى أن أباقا خان أرسل سنة 664 هـ _ يعني بعد سنة من موت هولاكو واعتلاءه العرش _ سفراءه إلى بيبرس سلطان مصر حاملين رسالة مفادها: إن المصلحة العليا تقتضي السلام بيننا، وهل تسمح لنفسك بتحدي ملوك الأرض؟ اعلم بأنه حتى إذا صعدت إلى السماء أو نزلت إلى أعماق الأرض لن تفلت من أيدينا، فلذلك اعقد السلام عن طيب خاطر مع السلطان أباقا. ولكن بيبرس قال في الجواب: ((أخبروه بأنني أيضاً سوف أطارده حتى تحرير كل مدن أراضي الخلافة والأراضي التي احتلها)). هذه المحادثات الشفهية والكتابية لم تأت بأية نتيجة بل جرّت حرباً كبيرة

قام أباقا بتقوية الدين البوذي واستمر قدماً في تأسيس المعابد البوذية، كما اتبع سياسة التسامح مع المسيحيين للتواصل مع دول الغرب[1].

وكانت الديانة البوذية في عهد أباقا خان في قمة الازدهار، إذ كان الرهبان البوذيون المنتشرون في كل مناطق إيران يعملون بسرعة على نشر عقائدهم ببناء المعابد واكتساب النفوذ والقوة في الجهاز الحكومي، وقمع الإيرانيين[2].

بعد هزيمة عين جالوت اشتد التنافس والخصومة بين الإيلخانيين من جهة وسلاطين مصر والشام من جهة أخرى، وفي هذه الظروف كان الغربيون ينتهزون الفرصة ويقدمون أنفسهم كأصدقاء للمغول، وكان المغول يعدونهم ورقة رابحة في الوقت نفسه، فتواصلوا عدة مرات مع البابا وملوك أوروبا من أجل التخطيط ضد المماليك[3].

ومما يدل على إصرار الغرب على التحالف مع المغول ضد دولة المماليك أن أربعة من البابوات أرسلوا إلى أباقا يطلبون منه الدخول في المسيحية، وهم: كليمنت الرابع وجريجوري العاشر ويوحنا السادس والعشرون ونقولا الثالث.

ويظهر تأثره بهم من خلال تزوجه من امرأة مسيحية هي مارية ابنة الإمبراطور البيزنطي ميشيل باليوغولوس التي عُرفت عند المغول باسم: دسينا، ومن خلال منحه دار الدفتردار الصغير في بغداد للجاثليق النسطوري.

ورائها، وخلال هذه المدة انطلق بيبرس إلى طريق ساحل بلاد الشام حتى يحسم أمور الفرنجة دفعة واحدة. انظر بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص300.

[1]آزند: إيلخانان، ص18.

[2]بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص376.

[3]روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص36.

فأرسل أباقا سنة 665 هــ / 1266م رسالة إلى البابا كليمنت الرابع يبارك له فيها بالانتصار على أحد خصومه ويعرض التعاون العسكري بين الطرفين ضد دولة المماليك[1].

وأرسل سنة 666 هــ / 1267م بعثة إلى البابا كليمنت الرابع وطلب الدعم من العالم الغربي للحرب ضد المماليك، فقدَّم البابا كليمنت الرابع وحكام أوربا وعداً لأباقا خان بدعمه في الحرب ضد المماليك[2].

وفي سنة 666 هــ / 1267م أرسل أباقا بعثة مغولية إلى جيمس الأول ملك أرغون للأسباب نفسها[3]، وفي سنة 669 هــ / 1270م راسل لويس التاسع ملك فرنسا للغايات نفسها، وفعل الشيء نفسه مع ملك إنكلترة إدوارد الأول سنة 670 هــ / 1271م[4].

وفي عام 673 هــ / 1274م عُقد مجمع ليون، فحضره مبعوثان من قبل أباقا، وعرضا على المجتمعين مشروع تحالف صليبي مغولي، وتم تعميدهما مسيحيين دون أن يجابا إلى طلبهما.

وقد أرسل أباقا إلى هذا المجمع تقريراً، مما جاء فيه: ((إن الملك هولاكو هو الذي بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا قدَّس الله سره[5]، كما بعث إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم ... نريد أن نعلن إلى جميع من يعيش تحت الشمس أن ملكنا صاحب العظمة أبغا خان يريد التحالف ويريد السلام مع كل المسيحيين التابعين لكنيسة روما المقدسة)).

وقد بادر أباقا من تلقاء نفسه أيضاً إلى طلب المساعدة من الغرب، فأرسل إلى ملك إنجلترا إدوارد الأول 673 هــ / 1274م في ذلك، وراسل فيليب الثالث ملك فرنسا، وطلب منه التعاون ضد دولة

---

[1] أشار إلى ذلك المؤرخ جون أندرو. وانظر أشتياني: تاريخ مغول، ص245.

[2] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص36. أشتياني: تاريخ مغول، ص245.

[3] أشار إلى ذلك المؤرخ بيتر توراو. وانظر روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص36، 37.

[4] أشار إلى ذلك المؤرخ جون أندرو. وانظر روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص37.

[5] هذه إشارة مهمة تبين مراسلات هولاكو مع الغرب.

المماليك ، وأرسل إلى ملك أرغونة جيمس الثاني لإعداد حمله صليبيه ضد المماليك، وتوجهت هذه الحملة فعلاً، ولكنها فشلت بسبب كبر سن جيمس الثاني، وتحطم سفنه في الطريق.

وبعد هزيمة المغول في معركة البستان سنة 675 هـ / 1276م راسل أباقا البابا وملوك أوروبة محرضاً لهم على غزو الشرق، وفي سنة 676 هـ / 1277م أرسل البابا سفارة إلى أباقا وعده من خلالها بإرسال حملة ضد دولة المماليك مطالباً له باعتناق المسيحية[1].

وقد أدت هذه المراسلات إلى زيادة العلاقات بين حكومة الإيلخانيين والبابوية وسلاطين أوروبا، وزيادة نفوذ رجال الدين المسيحي في بلاد الإيلخانيين، وعلى أثر ذلك راجت التقاليد والآداب المسيحية مرة أخرى في المشرق[2].

ثانياً _ التطورات على الجبهة المملوكية:

تمثلت باعتلاء بيبرس السلطنة المملوكية، وتدبيراته لتثبيت مركزه في الشام، وإجراءاته لمواجهة مغول فارس، وقضية الأرمن والتحالف مع المغول، ثم أعماله العسكرية.

1_ اعتلاء بيبرس السلطنة المملوكية في مصر:

بعد معركة عين جالوت حدثت عدة أمور عكَّرت العلاقة بين قطز وبيبرس، من الممكن تلخيصها في ما يأتي:

_ يقول اليونيني: ((كل منهما يحترس من صاحبه ... ويترقب فرصة))[1]، وهذا يُظهر أنهما (بيبرس وقطز) لا يثقان ببعضهما البعض، ولعل سبب ذلك قديم يتعلق بالمنافسة بين المماليك العزية الذين ينتسب إليهم قطز والمماليك البحرية الذين ينتسب إليهم بيبرس[2].

---

[1] ولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ص67. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص37، 38. عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1112. بدر، مصطفى: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، ص8 وما بعد. هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص117، 281. توراو: الظاهر بيبرس، ص186.

Howorth; history of mangols, P. 280. Andrew; The Mongol world empire, p.p556 – 558.

[2] أشتياني: تاريخ مغول، ص245.

_ ويذكر ابن عبد الظاهر (بعد انتهاء معركة عين جالوت) أن السلطان قطز صار يظهر تكبراً في معاملته لبيبرس، وغيَّر نيته تجاهه[3].

_ وبعد معركة عين جالوت نظَّم قطز شؤون البلاد الإدارية، وعيَّن النواب في النيابات، وهنا تجاهل بيبرس صاحب الأثر الكبير في الانتصار على المغول، مع أنه كان قد وعده قبل معركة عين جالوت بولاية حلب، لكنه أعطاها للملك السعيد علاء الدين صاحب الموصل[4].

وكانت نتيجة ذلك أن دبَّر بيبرس قتل قطز سنة 658هـ/ 1260م وحل مكانه في كرسي السلطنة، إذ اتفق بيبرس مع مجموعة من الأمراء على قتل المظفر قطز، وساروا معه فلما وصلوا إلى القصير وبينه وبين الصالحية مرحلة، فتتبع أرنباً للصيد، فلما ابتعدوا تقدم إليه آنص وسأله حاجة، فأجابه إلى ذلك، فأهوى ليقبل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه وقتلوه بالنشاب، وذلك في يوم السبت 17 ذي القعدة سنة 658هـ/1259م، ثم سار بيبرس وأولئك الأمراء حتى وصلوا الدهليز بالصالحية، فسألهم نائب السلطنة فارس الدين أقطاي من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال أقطاي له: يا خوند اجلس في مرتبة السلطنة، فجلس وحلف له العساكر، وتلقَّب بالقاهر ثم غيَّره إلى الظاهر[5].

وبيبرس هو بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي، وُلد سنة 620هـ/1223م بصحراء القبجاق، وجيء به إلى الشام كرقيق، وبيع للعماد الصائغ، ثم اشتراه علاء الدين أيدكين الصالحي

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج1، ص370.

[2] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص53-55، ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص141- 178. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص287 وما بعد.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص68.

[4] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص82 وما بعد. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص317. النويري: نهاية الأرب، ج2، ص/476، 477.

[5] العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج27، ص388. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص29. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص435. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص67-68، أبو الفداء: المختصر، ج2، ص317، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص 61-63.

البندقداري، ثم انتقل إلى الملك الصالح الذي ألحقه بالمماليك السلطانية، بدأ ظهوره في دوره في الانتصار على الصليبيين في معركة المنصورة بدمياط، ثم أصبح أميراً في الدولة المعزية[1] .

2- أعمال بيبرس لحماية مصالحه في الشام ولمواجهة المغول:

ذكر البعض أن بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، ولقَّبه آخرون بصلاح الدين الثاني، وهذا يدل أنه استطاع توطيد أركان البلاد داخلياً، وتحقيق الانتصارات خارجياً.

ولقد قضى بيبرس طوال حكمه في حركة دائمة بين مصر والشام، يحارب الصليبيين حيناً والمغول أحياناً، حتى قال فيه أحد المعاصرين:

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب[2].

حدثت في بداية حكمه سنة 659هـ/1261م محاولة من قبل بعض المماليك العزيزية والناصرية في دمشق للانفصال، ومنهم الأميران بغدي الأشرفي وشمس الدين البرلي، فلما شعر بيبرس بظهور خطر المغول على البيرة وحلب، طلب من الأمير أيدكين البندقداري نائب دمشق أن يعتقل بغدي والبرلي وعدد من أمراء العزيزية والناصرية، فكان ذلك، فأخاف ذلك العزيزية والناصرية، فتضامنوا مع البرلي وفروا إلى حمص، وهناك حاولوا أن يضموا إلى صفهم حاكمها الأشرف بن موسى من غير نجاح، فتوجهوا إلى حماه ففشلوا أيضاً في إقناع حاكمها الملك المنصور الأيوبي، فتوجهوا إلى حلب، وبالحيلة والدهاء سيطروا عليها، وقام البرلي هناك بتجميع قوة من العرب والتركمان ضد السلطان الظاهر بيبرس[3].

---

[1] المقريزي: السلوك،ج1، ق2، ص437. اليافعي، عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م،ج4، ص132. شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين، ص221.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص57.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص97. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص321. ابن واصل: مفرج الكروب: ج6، ص295-311. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص119-122. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص52، 53.

انتبه بيبرس إلى الخطر الذي من الممكن أن يشكله البرلي على بلاد الشام، فوجَّه إليه جيشاً بقيادة جمال الدين المحمدي، وانضم إليه في الطريق حاكم حلب فخر الدين الحمصي الذي تركها بعد خدعة البرلي، فخاف البرلي وهرب إلى البيرة ليتحصن هناك، ولكنه قرر تسليم نفسه لبيبرس سنة 660هـ/ 1262م، فعفا عنه، ثم قبض عليه سنة 661هـ/ 1263م[1].

وفي بداية حكمه أيضاً واجه الظاهر بيبرس سنة 658هـ/1260م عصياناً من الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي عيَّنه المظفر قطز نائباً على دمشق بعد معركة عين جالوت.

وهنا استطاع بيبرس أن يشق صف الأمير الحلبي لما استطاع استمالة الأمراء الذين كانوا معه في دمشق، فما كان من الحلبي إلا أن تحصن في قلعة دمشق، ثم هرب إلى بعلبك، فدخل الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري إليها نائباً، وقُبض على الحلبي في بعلبك، فعفا عنه بيبرس[2].

وتوجه بيبرس أيضاً نحو فلسطين لتدعيم بلاد الشام ضد المغول والصليبيين، وكانت الكرك والشوبك _ الحصنين المنيعين في جنوب فلسطين _ تحت سيطرة الأمير الوحيد من الأمراء الأيوبيين الذين لم يسلِّموا لبيبرس، وهو المغيث عمر بن الملك العادل، وكانت هذه المناطق ذات أهمية كبيرة في مواجهة المغول والصليبيين؛ فهي قريبة من مواقع الصدام العسكري مع الصليبيين والمغول، وقربها من مصر يهدد استقرار السلطنة، ولاسيما أن المغيث حاول من قبل مهاجمة مصر، إلا أنه أخفق[3].

---

[1] أبو الفداء: المختصر: ج2، ص322-325. ابن أبي الفضائل: النهج السديد: ص439، 452 ويرد لديه أنه قدم الديار المصرية في ي القعدة سنة 660هـ. ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص319. المقريزي: السلوك: ق1، ج2، ص465-466، 475-476. شافع بن علي: حسن المناقب السرية، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط2، 1999م، ص106. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص53.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب: ج6، ص296 - 301. ابن طولون، محمد بن طولون الدمشقي: إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة، دمشق، 1964م، ص4، 5. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص438.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص96. المقريزي: السلوك: ج1، ق2، ص406. ابن طولون: إعلام الورى، ص5. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص92.

وقد تكلم البحث سابقاً عن سيطرة بيبرس على الشوبك والكرك [1].

بدأ بيبرس سياسته بتشديد الضغط على الصليبيين لتقليل دورهم في الصراع بينه وبين المغول، فأرسل قوة سنة 655هـ/1261م للإغارة على أنطاكية ومعاقبة أميرها بوهمند السابع لتعاونه مع المغول، ولما نزل بمنطقة العوجا في جنوب فلسطين أسرع أمير يافا سيرجوان دبلين بإنفاد رسله يسأل الأمان فرحَّب السلطان بذلك.

ثم قام بيبرس بجمع أسرى الصليبيين لمبادلتهم بأسرى المسلمين في بانياس، لكن الصليبيين رفضوا ذلك واشترطوا تسليم منطقة زرعين شمال فلسطين، فرفض بيبرس.

وبفشل المفاوضات أنفد السلطان الأمير جمال الدين المحمدي على رأس قوة عسكرية للإغارة على معاقلهم، وأنفد قوة بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى أنطاكية فنازلها شمس الدين وسيطر على مينائها وأحرق المراكب الراسية فيه، وكادت أنطاكية تقع في يده لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى.

وعاد السلطان الظاهر بيبرس على رأس جيش إلى بلاد الشام سنة 661هـ/1263م، واستمر في اتباع سياسة المناورة مع الصليبيين[2].

والعمل الآخر الذي قام به بيبرس هو إحياء الخلافة العباسية، التي بقي منصبها شاغراً قرابة ثلاث سنين ونصف.

والنظرية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم حراً ولم يرض أهل مصر بسلطان مسَّه الرِّق. وأمر آخر هو أن المماليك ظهروا بمظهر المغتصب للحكم من ساداتهم الأيوبيين، فكان لزاماً عليهم إضفاء الشرعية على حكمهم[3].

---

[1] يمكن مراجعة ذلك في فقرة: نيابة الكرك من الفصل الرابع.

(2)) سليمان، أحمد عبد الكريم: المغول والمماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس، دار النهضة، القاهرة، ط1، 1984، ص80. أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي، ص29-31.

[3] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ج2، ص143 وما بعد. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص100-107. المقريزي: السلوك: ج1، ق2، ص453-457. قاسم، قاسم عبده: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص 11.

3_ تدبيرات بيبرس لمواجهة مغول فارس:

أقدم بيبرس على سلسلة من التدابير التي من شأنها ردع مغول فارس وتحجيم خطرهم، وبقراءة المصادر يمكن رصد التدابير الآتية:

_ أقام بيبرس عشرات المنارات أو أبراج المراقبة على رؤوس الجبال في الجهات الشرقية المواجهة للمغول عند البيرة والرحبة[1]، مهمتها مراقبات تحركات المغول في حال اقتربوا[2]. وكان يتابع البريد لحظة بلحظة، وذُكر أنه كان بالحمام وقت وصول البريد، ومع ذلك فقد أصر على أن يُقرأ عليه حتى يطمئن على الموقف بالنسبة للبيرة، وكان أن قُرأ عليه الكتاب وهو عريان في الحمام[3].

_ رمَّم بعض القلاع على حدود الفرات كقلعة البيرة، وشحنها بالمؤن والسلاح بحيث تتحمل الحصار عشر سنوات[4].

_ ربط جميع أنحاء المملكة بشبكة بريدية براً وجواً (الحمام الزاجل)، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل في القاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط، حتى صار البريد يصل من القاهرة إلى دمشق، وبالعكس في ثلاثة أيام[5].

_ بثَّ عيونه في قلب الأراضي المغولية، فكانت له عيون في الأردو مقر هولاكو، وفي سيس بأرمينيا الصغرى، وفي عكا، وجميعهم كانوا يوافون القاهرة بالأخبار، فعندما أرسل هولاكو على سبيل المثال جاسوسين من قبله إلى القاهرة، أسرعت مصادر السلطان بيبرس في فارس وغيرها بموافاته باسميهما وصفاتهما حتى تم القبض عليهما بمجرد وصولهما إلى دمياط، فوجد معهما كتاباً من هولاكو إلى الأتابك في مصر يرغبه ويستميله ضد السلطان بيبرس[6].

---

[1] تقع بين الرقة وبغداد. الحموي، معجم البلدان، مادة رحبة.

[2] القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص163، 164. العمري، أحمد بن يحيى: التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص200-201.

(3) عاشور: الظاهر بيبرس، ص94.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 226.

[5] القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص418 وما بعد. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص243 وما بعد.

[6] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص195-196.

_ تحالف مع القوى الأوربية، ساعده على ذلك تعطل الطرق التجارية المغولية بسبب النشاط العسكري هناك، فلم يبق إلا الطرق التجارية عبر الموانئ المصرية، فسارعت الدول الأوروبية التجارية كالبندقية وجنوا وبيزا، لقبول التحالف معه.

_ تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الغربية المقدسة، وصقلية، وقشتالة[1]، وهنا تبدو براعة السلطان الظاهر بيبرس وبعد نظره السياسي في أنه حرص دائماً على أن يحيط حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية الخارجية ليضمن تقوية جبهته من ناحية واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومة من ناحية[2].

فلقد اتسمت سياسة المماليك في بداية دولتهم بالطابع السلمي تجاه الصليبيين في الشام وذلك لانصرافهم لمعالجة عدم استقرار الأوضاع الداخلية (النزاع فيما بينهم)، ومنازعات الأمراء الأيوبيين في الشام، واقتراب خطر المغول والذي تزايد مع سقوط بغداد. وبالرغم من أنه بدأت تظهر بوادر المصلحة المشتركة والتعاون بين الصليبيين ومغول إيران، إلا أنه كان لزاماً على المماليك التركيز على الخطر الأكبر أولاً ــ أي المغول ــ، ولكن لم تكن المهادنة والمصالحة لتكفي المماليك عند إدارة صراعهم مع الصليبيين نظراً لتداخله مع الصراع المغولي وخاصة بعد 1260م / 658هـ.

ولذا كان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين مثلما حالفوا أعداء مغول فارس، ومن هنا بدأ بيبرس يسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية وهي العدو التقليدي للصليبيين في الشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. كذلك استمر هذا التقارب بعد عهد بيبرس أيضاً وذلك في الوقت نفسه الذي لم تتغير فيه سياسة الدولة البيزنطية تجاه المماليك (وحتى بدأت أوضاع جديدة مع ظهور العثمانيين)، كذلك تحالف بيبرس ومن بعده مع ممالك متوسطية أي صقلية ونابولي والبندقية التي تسعى وراء مصالحها التجارية. وكان هدف المماليك من هذه العلاقات هو قطع الدعم عن الصليبيين وعدم مساندتهم في وقت كان ما زال خطر المغول قائماً، وفي وقت قرر فيه بيبرس العمل ضد الصليبيين والمغول في وقت واحد نظراً للتعاون بينهم. والجدير بالذكر أنه توافر لدى هذه الأطراف الأوربية دوافعها أيضاً للدخول في هذه التحالفات التي كانت تحقق مصالحها.

---

[1] العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص202–206.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص57.

ولقد اقتصرت جهود بيبرس حتى 662هـ / 1263م على مجرد الهجمات والمناوشات المتقطعة، ثم انتقل إلى الحملات الكبرى المنظمة التي كان يفصل بينها صلح أو هدنة، وسرعان ما كانت تنتهي بعمل عسكري جديد. ولقد امتدت واستمرت عملية التصفية في عهد قلاوون وابنه الأشرف حيث تم تصفية آخر المعاقل الصليبية في عكا وصيدا وصور 690هـ / 1292م. هذا ولقد حققت التحالفات المملوكية الأوربية ضد الصليبيين أهدافها من حيث إحكام الحصار حولهم، كما أثرت على علاقات مغول فارس بهذه الدول الأوربية[1].

_ هاجم أنطاكية سنة 659هـ/1261م بسبب تعاون أميرها بوهيمند السادس مع المغول، وأسر وقتل الكثير من الصليبيين، وأغرق المراكب الصليبية في ميناء السويدية وأحرقه[2].

_ وجَّه حملة تأديبية إلى أرمينية الصغرى سنة 664هـ/1266م لمنعهم من التعاون مع المغول[3].

_ ولمنع المغول من تجميع قواتهم في بلاد الشام، طلب بيبرس سنة 1262/660م من نائب حلب أن يحرق المروج التي كان المغول يستخدمونها مراكز تجمع لهم ولدوابهم[4].

_ استطاع المماليك عامة وبيبرس خاصة استغلال مغول القفجاق لصالحهم، إذا كان مغول إيران قد أدركوا أن أمنهم يتحقق مع الصليبيين ضد المماليك فإن مغول القبيلة الذهبية رأوا أن أمنهم يكمن في التحالف مع المماليك. ولقد كان التحالف مع هذه القبيلة ركن أساسي من أركان السياسة المملوكية لموازنة تحالف الصليبيين مع مغول إيران، ويتبلور ذلك بوضوح في التحالف بين بركة خان وقطز وبيبرس وبين خلفاء بركة خان وبيبرس ثم قلاوون. ولقد كان لكل من الطرفين دوافعهما ومصالحهما المشتركة، فلقد كانت العلاقات السياسية الطيبة مع المماليك نتيجة طبيعية للنزاع بين بركة خان وهولاكو، كما كانت تحقق مصالح اقتصادية وروابط ثقافية ودينية هامة للقبيلة الذهبية، حيث لم تقف

[1] مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص28. محمد علي، وفاء: جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول، القاهرة، ط1، 1985م، ص18 وما بعد.

[2] ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر، 159. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص549. الداوي: أعمال القبارصة، ص50.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 269–271. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص285، 286. رضوي: شهر– سياست واقتصاد در عهد ايلخانان، ص230.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص136. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص63.

العلاقات بين الطرفين عند حد التنسيق والتعاون العسكري في مواجهة مغول إيران والصليبيين بل شملت جوانب أخرى علمية وثقافية كان من شأنها دعم وتعميق تحول المغول إلى الإسلام، وهو الأمر الذي كان يهتم به بركة خان. ولقد ساند هذا التحالف المماليك في التصدي لمغول إيران بأكثر من طريقة قبل وبعد عين جالوت، كان من أهمها شن بركة خان هجمات في أوربا الشرقية حتى ينشغل أهلها عن دعم إخوانهم من الصليبيين في بلاد الشام، والذين كانوا يحالفون المغول في إيران، وكذلك شن بركة خان هجمات على مغول إيران حتى يشغلهم عن بلاد الشام. ولقد كانت هذه الهجمات من أهم العوامل التي ساعدت المماليك في معركتهم الحاسمة في عين جالوت.

كما أدى اهتمام بركة خان ببث الفرقة في دولة المغول الوثنية الثانية (في آسيا الوسطى) إلى شد انتباه هولاكو إلى الشرق واستنفاذ طاقة كبيرة منه في وقت حاسم من المواجهة مع المماليك.

ولقد ظل هذا التنسيق والتعاون قائماً بين القوتين الإسلاميتين في جهاد أعداء الإسلام وهو الجهاد الذي اعترف به قادتهم كدافع للتنسيق بينهم حتى تغيرت في نهاية القرن الأوضاع التي أبرزت من قبل ضرورته، وكذلك ظهرت أوضاع جديدة حالت دون استمراره بنفس القوة والحيوية منذ نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. فمن ناحية تم تصفية الإمارات الصليبية، ومن ناحية أخرى تحول مغول إيران إلى الإسلام مع غازان، وهو الأمر الذي كان نقطة تحول في علاقاتهم مع المماليك، حيث أنه بعد أبقا ابن هولاكو أي منذ 681هـ / 1282م تعددت الاتصالات الإيجابية بين المماليك والدولة الايلخانية وتزايدت هذه الاتصالات، وضعف الخلاف كلما تزايد اقتراب مغول إيران من الإسلام.

كما أن انصراف المماليك في العقدين الأخيرين من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي إلى قتال الصليبيين قد خفف من حدة القتال مع الإيلخانيين وسمح عند نهاية القرن بالبحث عن إمكانات التصالح بينهم وبين السلطان قلاوون، في حين استمر عداء وصدام غازان مع المماليك ولم يتحقق التصالح إلا عام 720هـ / 1320م، وهو الذي يعد نقطة التحول في العلاقات بين الطرفين.

ومن ناحية ثالثة تغيرت صورة التحديات التي تواجهها القبيلة الذهبية منذ بداية نمو إمارة عثمان (مع بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) والتي أضحت تهدد هذه القبيلة ومغول إيران على حد سواء[1].

إذن؛ استغل بيبرس الحالة العدائية بين مغول فارس ومغول القفجاق، وبما أن القبيلة الذهبية (مغول القفجاق) كانت على عداء دائم مع أقربائهم وجيرانهم مغول فارس بسبب خلافاتهم على الأرض وعلى زعامة المغول، فإنه من الطبيعي أن يتعاون القفجاق مع دولة المماليك العدوة الطبيعية لأعدائهم مغول إيران، كما كان من الطبيعي أيضا أن يتحالف مغول إيران مع الصليبيين أعداء المــماليك.

وازدادت الحاجة بازدياد الصراع بين هولاكو وبركة خان عام 661 هـــ / 1262م عندما هزم بركة خان زعيم القبيلة الذهبية هولاكو خان زعيم مغول إيران، فقام هولاكو بالانتقام من تجار القفجاق التابعين لبركة خان وقتلهم في بلاده، فأغضب ذلك بركة خان فأمر أفراد جيشه الذين كانوا يحاربون مع هولاكو أن ينضموا إلى الظاهر بيبرس فانضموا [2].

بل إن بيبرس لم يكد يسمع بإسلام بركة خان حتى كتب إليه يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك[3].

وتبادل الطرفان السفارات، فأرسل بركة خان سفارة للظاهر بيبرس عن طريق الإسكندرية مكونة من الأمير جلال الدين بن القاضي والشيخ نور الدين علي، قدموا خلالها السلام والشكر لبيبرس وطلبوا مساعدته في الحرب على هولاكو.

---

(1) مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص25 – 27. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص19. عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، 146 وما بعد.

(2) ابن شداد، عز الدين بن محمد: تاريخ الملك الظاهر، تح: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، 1983م، ص126. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص137، 138. سرور: دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده، ص110.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص465. عاشور، سعيد: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، 1965، ص 226. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص269.

فأرسل الظاهر بيبرس سنة 661 هـ / 1261م رسالة وسفارة لبركه خان يخبره بأحوال المسلمين، وبمبايعة الخليفة العباسي، وبأنه أمر بأن يُدعى له في خطب مكة والمدينة المنورة والقدس، وحمَّل رسله بالهدايا الثمينة[1].

وبعد وفاة هولاكو خلفه ابنه أبغا، فقاتله بركة خان حتى هزمه، وتوفي بركة خان عام 665 هـ / 1266م وخلفه منكوتمر، فقاتل أبغا بن هولاكو فهزمه وعرض على المماليك المساعدة في قتاله.

وبعد وفاته سنة 680 هـ / 1281م خلفه أخوه تدان منكو، وعرض سنة 682هـ / 1283م على قلاوون أن يقاتل معه، ثم تنازل عن عرشه وانقطع للعبادة، فخلفه سنة 686هـ 1287م ابن أخيه تولا يوغا بن منكوتمر بن طوغان، ولكنه ما لبث أن مات غيلة سنة 690هـ / 1291م على يد طقطاي الذي حكم حتى عام 713 هـ / 1314م وأرسل إلى الناصر ابن قلاوون عام 704 هـ / 1304م لتشكيل تحالف ضد غازان، فاعتذر الناصر لأن خدا بنده أخو غازان قد تولى الحكم وعقد معه الناصر صلحاً، وكرر طلبه عام 713 هـ / 1313م عندما هاجمه خدا بنده وهزمه، فوعده الناصر باستعادة بغداد وإعادة الخليفة العباسي إليها.

وتسلم أزبك الحكم (713- 741 هـ / 1313- 1340م)، وأسهم في نشر الإسلام، فصاهره الملك الناصر محمد[2].

وهنا يلخص المستشرق بيتر توراو الدهاء الدبلوماسي للظاهر بيبرس في مواجهة مغول فارس، فيذكر: ((من أجل ضمان سلامة مشروعاته العسكرية أظهر بيبرس أيضاً نشاطاً دبلوماسياً حثيثاً ينطوي على بُعد نظر سياسي، ففي مواصلة للصداقة التي باتت تقليدية، بين مصر وصقلية، كان السلطان أرسل المؤرخ ابن واصل، وكان ذلك على الأرجح في سياق ارتقائه العرش، في (آب/ أغسطس 1261م/ رمضان 659هـ) إلى الملك منفرد ملك صقلية))[3].

كان في وسع المغول المعادين أن يتحكموا في طرق التجارة عبر القوقاز وآسيا الصغرى، ويفرضوا بذلك حظراً تجارياً، وبذلك هدَّدوا عصب حياة الحكم المملوكي. وقد أبعد بيبرس شبح هذا الخطر بإقامة العلاقات التجارية التي كانت تنطوي على مصلحة اقتصادية وسياسية متبادلة، مع المدن

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 170، 171. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص269.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص716 - 942.

(3) توراو: الظاهر بيبرس، ص121.

الإيطالية، وفي مقدمتها جميعاً: جنوة، فباتت تجارة الرقيق تتم قبل كل شيء على سفن جنويَّة، بين القرم ومصر.

وتتم متابعة العلاقات الدبلوماسية بين السلطان بيبرس والإمبراطور ميخائيل الثامن، الذي كان المؤلفون العرب يسمونه (الأشكري) [1].

على أن ما كان أكثر أهمية من الاتفاقيات مع الملك منفرد، ملك صقلية، والإمبراطور ميخائيل الثامن، بالنسبة إلى بيبرس، علاقاته بالقبيلة الذهبية.

وكان بيبرس عرف كيف يستغل حرب الإخوة المغوليين ببراعة لمصلحته، وبذلك ضيَّق رقعة الخطر الذي كان يهدد دولة المماليك من جهة الإيلخانات إلى حد بعيد[2].

ولكن السلطان كان يرحب أيضاً بحلفاء أقل أهمية من الإمبراطور البيزنطي أو خان القبيلة الذهبية، لكي يطوِّق المغول في إيران أو يقوض مركزهم في الداخل أيضاً. وفي مستهل عام 662هـ / 1263م كتب بيبرس إلى أمراء شيراز ولورستان المرتبطين بإقطاعات هولاكو، وإلى قبيلة بني خفاجة البدو في شمالي الشام، يستحثهم على التصدي للإيلخان[3].

4_ التعاون المغولي الصليبي الأرمني وموقف بيبرس منه[4]:

---

(1) توراو: الظاهر بيبرس، ص123.

(2) توراو: الظاهر بيبرس، ص124، 125.

(3) توراو: الظاهر بيبرس، 130.

[4] أثناء الحروب المملوكية الإيلخانية تم تبادل الرسائل عدة مرات، وفي عام 666هـ / 1268م كانت العلاقة معقدة بين بيبرس وأرمينيا الذين كانوا تابعين للمغول. يناقش البحث الآتي ذكره قضية هذه التبادلات وبعض تحليلاتها، ويحلل اختلاف النصوص العربية أو فهم معانيها أو ترجمتها.

Reuven Amitai-Preiss; An Exchange of Letters in Arabic between Abaγa Īlkhān and Sultan Baybars (A. H. 667/A. D. 1268-69), Harrassowitz Verlag, Central Asiatic Journal, Vol. 38, No. 1 (1994), pp. 11-33.

لا يكاد الباحث في تاريخ السلطان الظاهر بيبرس يتتبع حروبه حتى تواجهه حقيقة كبرى، هي أنه لا يمكن وضع خط فاصل بين حروبه ضد الصليبيين وحروبه ضد المغول، فالواقع أن الظاهر بيبرس كثيراً ما كان يحارب الطرفين في وقت واحد، أو يخرج لحرب أحدهما فيخوض غمار الحرب ضد الآخر، والواقع أن الصراع بين المماليك والمغول كان أمر طبيعياً بين جارين آمن كل منها بفكرة الحرب ومبدأ الغزو، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محوراً لنشاطه ومجالاً لحياته، وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون المغول بوصفهم مسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية وتخريب حاضرتها بغداد، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الأثر القوي الذي تركه صغار أمراء المسلمين الذين استولى المغول على مدنهم وبلادهم في العراق والشام، والذين احتموا بسلاطين مصر وأخذوا يحرضون ضد المغول، عسى أن يكون في ذلك تنفيساً عما تكنه صدورهم من حقد على المغول، وسلوى لما لحقهم من أضرار وبلاء على أيديهم.

هذا كله بالإضافة إلى أن فكرة الوحدة الإسلامية التي ظلَّت قائمة منذ أيام الأيوبيين، أملت على سلاطين المماليك مد يد المساعدة إلى أمراء المسلمين الذين تعرضوا لعسف المغول في الشرق الأدنى، وإذا كان الأيوبيون ثم المماليك من بعدهم قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله، فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي هددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والمغول جمعياً[1].

ولا يخفى علينا أن الظاهر بيبرس بالذات قام وهو أمير – قبل أن يلي السلطنة – بدور بارز في مدافعة المغول، وأبلى بلاء حسناً في محاربتهم عند غزة ثم عند عين جالوت، وبذلك اكتسب خبرة طيبة بأساليبهم وطرقهم، ولابد أن يكون الظاهر بيبرس قد أحاط علماً بما تم من اتصالات بين مغول فارس من ناحية والبابوية ولويس التاسع وملوك أرمينيا الصغرى من ناحية أخرى، وهي الاتصالات التي استهدفت الإجهاز على البلدان العربية في الشرق الأدنى[2].

أ_ تحالف الأرمن المستمر مع مغول فارس ضد دولة المماليك:

شكَّلت أرمينية الصغرى مصدر قلق لبلاد الشام لتحالفها تارة مع الصليبيين وتارة مع المغول لانتزاع بيت المقدس من العرب المسلمين، وبشكل عام تعاون الأرمن مع المغول بسبب موقع بلادهم بين سلاجقة الروم والمماليك، فقدَّم هيثوم فروض الطاعة والولاء ووثَّق علاقته بهم إذ اتصل مباشرة

(1) عاشور: الظاهر بيبرس، ص88، 89.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص89.

بخاقان المغول الأعظم كيوك خان في قراقورم مرسلاً له مختلف أنواع الهدايا، فأعفى كيوك خان بلاده وأديرته وكل المسيحيين من الضرائب المغولية[1].

ومنذ ذلك الوقت أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول وخاصة مغول فارس، وصاروا يحرضونهم ضد جيرانهم العرب، بل اشتركوا بجيوشهم ضد المماليك.

فهذا هيثوم الأول تعاون مع مغول فارس على كافة الأصعدة، ووقف الأرمن إلى جانب هولاكو بحملته على بلاد الشام، وبالتالي نجح المغول في توظيف التحالف مع دولة أرمينيا الصغرى التي أصبحت تابعة للمغول، وتم تعيين ملك أرمينيا مستشاراً لخاقان المغول في شؤون المشرق، وتم إعفاء الكنائس في الإمبراطورية المغولية من أنواع الضرائب كافة[2].

فكانت العلاقات المغولية الأرمينية قبل 707هـ / 1307م متضافرة، وكان الأرمن منحازين لجانب المغول، وهذا ما يتضح من تسليم هيثوم لزوجة كاي خسرو وابنته للمغول بعد هزيمة السلاجقة في معركة (كوس داغ) سنة 641هـ / 1243.

وهذا يُفسر التقارب الأرمني المغولي أيضاً لشعور الأرمن بخطر السلاجقة عليهم، بل إن السلاجقة هاجموهم مرات كثيرة.

وكانت سمعة الأرمن سيئة في المصادر الإسلامية لافتعالهم الحرائق مقابل تحالفهم مع المغول، وطبعاً حلب وشمال سوريا هي أماكن ذات أهمية استراتيجية كبيرة لكل الأطراف وخاصة مغول فارس والمماليك.

وكان التحالف الأرمني المغولي يُعد دائماً هجوماً منسقاً ضد المماليك بالتنسيق مع البابا وقوى الغرب.

---

(1) اسكندر، فايزة نجيب: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1980م، ص29.

(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، سلطنة المماليك ومملكة أرمينيا الصغرى، ص105. العريني: المغول، ص161. الصياد: المغول في التاريخ، ص214.

وقد أدى التحالف الأرمني المغولي إلى خسائر مملوكية في الرجال والموارد مما أثار غضبهم؛ فأطلقوا غزوات كبرى متسلسلة ضد المملكة الأرمنية، مما أجبر الأرمن على توقيع هدنة مذلة مع المماليك، ودفع جزية سنوية.

بل إن مشاكل كثيرة تعرَّض لها الأرمن نتيجة تحالفهم مع المغول إذ لم يحسبوا حساباً لقوة دولة المماليك، ولذلك كانت حماية المغول لهم محدودة تعلقت بحماية حدودهم ضد الاجتياحات المملوكية، مقابل خسائر كبيرة منذ عام 707هـ / 1307م، من فقدان الأراضي والدمار الذي سببته الغارات، ودفع الجزية السنوية، بالإضافة إلى مشكلة أكبر تتعلق بعدم استقرار العرش الأرمني، مثال ذلك أن الملك هيثوم الثاني تنازل عنه مراراً وتكراراً، بل كلَّفه ذلك حياته في نهاية المطاف على يد المغول أنفسهم[1].

ب _ موقف بيبرس من تحالف الأرمن مع مغول فارس:

كان اتصال الأوروبيين بإيلخانات المغول مبكراً، وتمَّت المراسلات وتبادل الهدايا معهم، ودعوهم إلى الإحسان لرعاياهم، واستعدوهم على المماليك، وفي مرحلة دعوهم إلى الدخول في المسيحية[2].

فاتبع الصليبيون دور المرشدين لجيوش مغول فارس المغيرة على بلاد الشام، فكانت حروبه معهم ومع الأرمن في بلاد الشام مستمرة وطويلة وعنيفة، واستمرت ما بين 659 – 669 هـ /1261–1271م[1].

---

(1) Angus Stewart; The Assassination of King Hetum II: The Conversion of the Ilkhans and the Armenians, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 15, No. 1 (Apr., 2005), pp. 45-61.

(2) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1963م، ج2، ص1098.

setton, (k. m.) a history of the crusades,2 vole, (pensylvania, 1958), ll: pp. 722.

فكانت ردة فعل الظاهر بيبرس ذكية جداً حين اتجه لمحالفة القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين والمغول:

فعقد سنة 660 هـ / 1262م حلفاً دفاعياً مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، لعلمه أن الأمبرطورية البيزنطية كانت العدو اللدود للصليبيين في الشام.

وتحالف مع زعيم قبيلة مغول القفجاق بعد أن اشتدت عداوتهم لمغول فارس، فتحرك بيبرس بذكاء ضد مغول فارس عندما تحالف مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية، وذلك لمواجهة تحالف مغول فارس مع الأرمن والكرج وصليبيي أنطاكية، ولكسب شواطئ البحر الأسود التي كانت تحت سيطرة خانات القبيلة الذهبية، فهي المصدر الأساسي للرقيق الذين شكَّلوا عماد الجيش المملوكي، مع العلم أيضاً أن بركة خان كان يعارض بشدة هجمات هولاكو على أراضي المسلمين. ومع العلم أيضاً أن العلاقات ساءت جداً بين الطرفين لأن هولاكو حرم بركة خان من نصيبه من غنائم الحرب[2].

وهنا صار بيبرس يشجع بركة خان على قتال هولاكو ليشغله عن مهاجمة بلاد الشام وهذا ما حدث، فجنَّب بذلك بيبرس الشام من هجمات مغول فارس، على الرغم من أن هولاكو لم يصرف انتباهه عن مهاجمة الشام إذ طلب من ملك أرمينية الصغرى أثناء زيارته لهولاكو القيام بهجوم على حدود دولة المماليك، وكان ذلك، لكن المماليك هزموا الأرمن مرتين في بلاد الشام سنة 662هـ/1263م[3].

وقد استمرت الروابط الوثيقة بين البلاطين المملوكي والقفجاقي حتى وفاة بركة خان سنة 665هـ / 1266م، ومن ثم تولى الحكم بعده منكوتمر.

---

[1] أبو عليان، عزمي محمد: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص27، 28. عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص100.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ، 332/1/2. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج1، ص497، 498. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص52 وما بعد.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص89، 139-140، المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص465. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص195.

ويظهر أن الظاهر بيبرس كان حريصاً على استمرار الروابط الوثيقة التي تربطه بدولة مغول القفجاق، فكتب إلى الملك منكوتمر الذي خلف الملك بركة معزياً إياه بوفاة سلفه.

وليس هناك من دليل أكثر وضوحاً على مدى ما وصلت إليه العلاقات المملوكية – القفجاقية من تقارب ومودة في هذا العهد مما يذكره المقريزي من زواج الظاهر بيبرس من ابنة حسام الدين بركة خان بن دولة خان التتري[1].

ولا شك في أن حرص بيبرس على تقوية الرابطة بينه وبين مغول القفجاق يعد شاهداً على براعة ذلك السلطان السياسية ومهارته الدبلوماسية، فبفضل هذه السياسية الحكيمة تجنَّب بيبرس قيام تحالف بين القوى المغولية الكبرى في الشرق الأوسط ضد دولة المماليك الناشئة في مصر والشام، كما ضمن وجود شاغل لمغول فارس يمنعهم من توجيه كل قواهم وجهوهم ضد المسلمين وبخاصة في بلاد الشام، وهكذا نلمس في غزوات مغول فارس لبلاد الشام على عهد بيبرس، أنها جاءت غزوات سريعة مبتورة تنقصها قوة الاندفاع الكبرى التي ميزت غزوات المغول نفسها، فضلاً عن انشغال مغول فارس بأمر مغول القفجاق حلفاء بيبرس.

وقد ظلّ مغول فارس منذ موقعة عين جالوت لا يكفون عن التطلع إلى بلاد الشام والطمع في العودة إليها وامتلاكها، الأمر الذي ترتب عليه قيامهم بعدة غارات على تلك البلاد في عهد بيبرس وخلفائه من سلاطين المماليك، ولم يكن السلطان الظاهر بيبرس بالرجل الذي يرتضي ذلك الوضع، أو يقبل مسالمة مغول فارس بعد أن طعنوا العالم الإسلامي طعنة دامية في قلبه، ولذلك حرص على الوقوف لهم بالمرصاد، ورصد غاراتهم عن بلاد الشام، وتتبع محاولتهم للتحالف مع القوى الأخرى في الشرق الأدنى – صليبية كانت أو غير صليبية– ضد سلطنة المماليك في مصر.

وهذا هو السر في أن حروب بيبرس لم تقتصر في ذلك الدور على الصليبيين في الشام ومغول فارس في العراق، وإنما امتدت إلى أرمينيا الصغرى فضلاً عن سلاجقة الروم بآسيا الصغرى[2].

5_ الأعمال العسكرية للظاهر بيبرس:

---

(1) الحجي، حياة ناصر: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1981م، ص12.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص92، 93.

في سنة 660هـ/ 1261 م أرسل جيشاً للسيطرة على حلب ومضايقة أنطاكية، فاستنجد ملك الأرمن هيثوم بهولاكو، وتوجَّه بقوات مغولية وأرمينية لإنقاذ أنطاكية.

وفي سنة 662هـ/ 1263م، توجه بيبرس نحو سواحل بلاد الشام الجنوبية واقترب من مدينة عكا، فشعر الصليبيون بالخطر فأرسلوا إليه ينشدون الصلح مقابل إطلاق سراح أسرى المسلمين، فلم يستجب بيبرس لذلك، وأغار على مناطقهم فسيطر على الناصرة وحرر حصن الكرك[1].

ثم أعلن بيبرس عمليات عسكرية واسعة ضد الإمارات الصليبية الساحلية، فسيطر على قيسارية وأرسوف سنة 663هـ/1265م، وعلى صفد سنة 664هـ/ 1266م، فاضطرت ملكة بيروت إيزابيلا بنت الملك جون الثاني بالإسراع بطلب الهدنة سنة 667هـ/ 1268م.

ثم سيطر بيبرس على مدينة يافا ثم أنطاكية كبرى إمارات الصليبيين بالشام، فلم يبق لهم من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس[2].

وقد شمل قتال بيبرس مملكة أرمينيا إذ دخل ملكها هيثوم في حلف مع مغول فارس ضد المماليك، وأخذ يحرضهم على غزو مصر وبلاد الشام، كما حالف الإمارات الصليبية في بلاد الشام، بالإضافة إلى محاولته فرض حصار اقتصادي على دولة المماليك، وظل الظاهر بيبرس يتحين الفرص للانقضاض على مملكة أرمينيا، وجاءت الفرصة حين استغل انشغال أبغا بن هولاكو في الحروب مع مغول القفجاق ومغول التركستان، فجهَّز جيشاً كبيراً جعل على قيادته الأمير سيف الدين قلاوون والملك الأيوبي المنصور الثاني ملك حماه، فدارت معركة كبيرة بالقرب من أنطاكية سنة 664هـ /1266م، انتصر فيها المماليك وقُتل الملك توروس ابن الملك هيثوم في هذه المعركة[3].

وفي سنة 668هـ/ 1269 م، حدث تحالف صليبي مغولي، فهادن بيبرس الإسماعيليين.

---

[1] العريني: المغول، ص267. الدجاني، زاهية: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1، 2003م، ص63، 64 .

[2] المنصوري: التحفة الملوكية، ص53. العريني: المغول، ص270. أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص33 وما بعد.

[3] أبو عليان: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص 43. الدجاني: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، ص72.

وفي سنة 669هـ /1270م، رسم خطة لمهاجمة إمارة طرابلس بالاستيلاء على الحصون المحيطة بها: الأكراد صافيتا والمرقب وعكا، وكادت طرابلس أن تسقط لولا ورود أنباء بقدوم حملة صليبية ثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا يريد مصر انتقاماً لهزيمته في الحملة السابعة، ولكن هذه الحملة تحوَّلت إلى تونس فاطمأن بيبرس وتفرغ لقتال الفرنج الصليبيين في طرابلس سنة 670هـ/1271 م، لكنه فضَّل قبول الصلح معهم لوصول حملة صليبية جديدة إلى عكا بقيادة الأمير إدوارد الأول ملك انكلترا، فعقد صلحاً مع بوهيمند صاحب طرابلس وعقد هدنة مع عكا.

وشملت أعمال بيبرس القتالية جزيرة قبرص، وكانت تُحكم من قبل أسرة صليبية هي أسرة لوزجنان، وكان لها دور مهم في الحروب الصليبية إذ كانوا يقدمون المساعدة للصليبيين ضد المماليك في بلاد الشام، ويهددون السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط، فأرسل الظاهر بيبرس ضدهم قواته البحرية سنة 668هـ/1270م، لكنها لم تنجح[1].

ثالثاً – معارك المماليك والمغول في عهد بيبرس:

كان لما ورد في الفقرات السابقة علاقة كبيرة ومباشرة وأساسية بأعمال مغول فارس والمماليك في تنافسهما على بلاد الشام، وفيما يأتي تفاصيل هذه المواجهات العسكرية.

1- الهجوم المغولي على البيرة ودخول حلب بعد معركة عين جالوت:

استغل مغول فارس ما حدث من اضطرابات بعد معركة عين جالوت ومنها مقتل السلطان قطز، فجمع قائدهم بيدرا قوة كبيرة من المغول الموجودين في حران والجزيرة، ومن نجا من معركة عين جالوت، وتوجه بهم نحو البيرة أواخر سنة 658هـ/ 1260م[2].

استنجد صاحب البيرة بنائب حلب الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، فوافق، ولكن المغول هزموهم وتوجهوا نحو حلب، فوصلوها وشرعوا بمهاجمتها، فانسحب نائبها الأمير حسام الدين

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص33- 36. المنصوري: التحفة الملوكية، ص70. شبارو، عصام: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1999م، ص227 – 228 . الدجاني: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، ص68.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص89، 90. ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، 302. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص104.

لاجين مع عساكره إلى حماه، ودخل المغول حلب في ذي الحجة سنة 658هـ /1260م، وارتكبوا فيها مجازر رهيبة[1].

2- هزيمة المغول في حمص سنة 659هـ/1260م:

سار المغول بقيادة بيدرا إلى حمص بقوة يبلغ عددها ستة آلاف مقاتل (وكان سلطان المماليك الظاهر بيبرس 658 – 676هـ / 1260 – 1277م)، في حين كان قوة المماليك تتألف من حوالي ألف وأربعمئة فارس[2].

ثم التقى الطرفان في الخامس من محرم سنة 659هـ/ كانون الأول سنة 1260م، فحقق المماليك نصراً سريعاً وساحقاً وقتلوا أعداداً كبيرة من المغول.

تفرقت جموع المغول بعد هذه الهزيمة، ثم تجمعت في سلمية لمهاجمة حماه، فنازلوها يوماً واحداً ثم انسحبوا إلى أفاميا، وكان قد أقام في قلعتها الأمير سيف الدين الديبلي الأشرفي فأخذ يهاجم المغول حتى أجبرهم على ترك أفاميا[3].

وفي التفاصيل: بعد هزيمة حلب انسحب الأمير حسام الدين لاجين إلى حماه لاستدراج المغول، ثم تم حشد عدد كبير من القوات المملوكية في حمص التي كانت تحت حكم الملك الأشرف موسى الأيوبي[4].

لم يتوجه المغول نحو حماه، وإنما وجهوا جيشهم (ستة آلاف مقاتل) نحو حمص، وهناك كانت قوام جيش المماليك ألف وأربعمئة فارس، بقيادة الملك المنصور نائب حماه، وحسام الدين لاجين نائب

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص302. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص105، 106. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص319. العريني: المغول، ص 264، 265.

[2] المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق2، ص440، العيني: عقد الجمان، ج2، ص270، 271. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص89.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص305. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص319. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص97.

[4] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص319، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص89.

حلب، والأشرف نائب حمص، مع العلم أن الظاهر بيبرس لم يتمكن من إرسال قواته لصد الهجوم المغولي بسبب انشغاله بتوطيد الأمور الداخلية وإخماد بعض الثورات[1].

وانضم إليهم أمير بني ربيعة زامل بن علي حتى بلغ عدد فرسان المماليك ما يقارب (1400) فارس، وكان المغول قد تجاوزوا الرستن، والتقوا بفرقة من الصليبيين أرسلتها الإسبتارية لتقاتل معهم، وتابعوا تقدمهم حتى قرب أسوار حمص حيث كان الملك الأشرف قد عسكر بقواته شمال قبر خالد بن الوليد[2].

وضع المغول خطة عسكرية تقوم على تكتيك الصدم والخرق بالعمق، حيث رتَّب الجيش مستفيداً من قوة اندفاعه، ومن تفوقهم العددي الكبير حيث لديهم (6000) فارس، وكان تقسيم جيشه هو التقسيم المغولي المعتاد حيث تنظيم كل ألف مقاتل في فرقة وجعل الفرق خلف بعضها لتشكل قوة صدم كبرى تتمكن من اختراق دفاع المسلمين، ومن ثم الالتفاف عليهم وتطويقهم.

أما الملك الأشرف فقد وضع خطة لمواجهة التفوق العددي لصالح المغول، وتقوم على الصمود أمام الصدمة الأولى للمغول بأي ثمن، فجعل صاحب حماه بالميمنة، وعسكر حلب بالميسرة، أما هو وعسكره فبقي بالوسط، فكان ترتيب الجيش أشبه ما تكون بالمطرقة والسندان فإن سحق المغول المسلمين بالضربة الأولى فقد نجحت المطرقة، وإن صمد المسلمون نجح السندان[3].

التقى الطرفان يوم الجمعة الخامس من محرم 659هـ/كانون الأول 1260م في حمص، ومن البداية استطاع المماليك تحقيق انتصار كبير، وقتلوا من المغول أعداداً كبيرة، واضطر قائدهم بيدرا إلى الهروب. ثم حاولت قوة من المغول كانت قد تجمعت في سلمية مهاجمة حماه، ثم انسحبت إلى أفاميا، ثم هربوا منها وساروا إلى حلب، وحاصروها أربعة أشهر، وهنا تفرغ بيبرس للمغول لما استطاع الانتهاء من المشاكل الداخلية وبعد أن تمكن من توطيد حكمه والقضاء على بعض الثورات التي قامت ضده، وجهَّز جيشاً كبيراً للتوجه إلى حلب ليطردهم منها، وكان بقيادة ثلاثة من الأمراء هم: حسام الدين لاجين، وفخر الدين الحمصي، وحسام الدين العينتابي، فلما وصل الجيش إلى غزة أرسل

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص89، 90. ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص304. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص40. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص440.

[2]– ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، 1986، ص 319.

[3]– ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 234 – 236.

فرنجة عكا رسالة إلى المغول يخبرونهم بتحرك هذه العساكر نحوهم، فرحلوا عنها مسرعين بعد حصار دام أربعة أشهر، ودخل المماليك حلب فانسحب جيش المغول من أمام حلب في أوائل جمادى الأولى سنة 659هـ/1261م، ودخلها جيش المماليك[1].

ولا بد من ذكر أنه وخلال هذه الأحداث حصل تقارب بين بيبرس وبركة خان زعيم القبيلة الذهبية، بسبب العداء المشترك ضد هولاكو وحلفاءه من الأرمن والصليبيين، وتم تبادل السفارات بينهما منذ سنة 660هـ/ 1261 م فقاتل بركة خان ابن عمه هولاكو وأشغله عن معاودة الهجوم على بلاد الشام[2] .

3_ تهديد الحدود الشرقية لبلاد الشام (محاولة السيطرة على الموصل):

لعل المغول أرادوا الضغط على دولة المماليك من جهة الشرق ضمن السعي للسيطرة على بلاد الشام، فأرسل هولاكو سنة 660هـ/ 1262م جيشاً للموصل بقيادة قائد اسمه صندغون رداً على قيام حاكم الموصل الملك الصالح ركن الدين إسماعيل علاقات جيدة مع الظاهر بيبرس، فحوصرت الموصل حصاراً شديداً. ولما خرج الأمير شمس الدين البرلي من حلب لنجدة الموصل هُزم أمام المغول الذين خرجوا له عند جبل سنجار[3].

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص89-93، أبو الفداء: المختصر، ج2، ص320. ابن واصل: مفرج الكروب، ج6، ص305 - 307. ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ج2 ، ص302، 303. ابن عبد الظاهر: الروض، ص97. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص42. حومد، أحمد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ط1، 2002 م، ج2، ص349.

[2]ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر، ص35، 36. العريني: المغول، ص272 وما بعد. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص349.

[3]رشيد الدين: جامع التواريخ، 327/1/2. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 114، 115. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص475. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: ج2، ص157. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص 88.

ومع اشتداد الحصار، خرج الملك الصالح للمغول في النصف من شعبان سنة 660هـ/ حزيران 1262م بعد أن أعطوه الأمان، ولكنهم كعادتهم نقضوا العهد وقبضوا عليه وخربوا المدينة واستباحوها ثم قتلوه[1].

4_ الهجوم على البيرة سنة 663هـ / 1264م:

قدَّم الصليبيون مشورة للمغول بضرورة مهاجمة البيرة لأنه يصعب جمع الخيول المملوكية وتجهيزها بسرعة في فصل الربيع لتفرقها في المراعي، وتأيد ذلك بمساعدة الجيش الأرمني لهم، فسار الملك هيثوم الأول إلى البيرة، ولكنه اضطر إلى العودة بعد أن علم بأنه رُزق بحفيد. فحاصر المغول البيرة في ربيع الأول سنة 663هـ/1264م، ومعهم سبعة عشر منجنيقاً. ولكن الظاهر بيبرس كان يقف دائماً بالمرصاد لمغول فارس، فلم يكد يسمع بحصار البيرة القلعة الهامة على الفرات والتي تمثل مركزاً مهماً بين العراق والشام، حتى أرسل حملة سريعة لردهم[2].

فأرسل السلطان الظاهر بيبرس الرسائل إلى بلاد الشام لتجهيز القوات، فاستطاع تجميع اثني عشر ألف فارس؛ أربعة آلاف فارس من بلاد الشام، وثمانية آلاف من مصر.

ثم أمر نائبي حماه وحلب بتوجيه قواتهما نحو الفرات، وطلب من أمير العرب عيسى بن مهنا أن يتوجه إلى حران.

وبعد كل هذه التجهيزات والتكتيكات خرج بيبرس على رأس القوات السلطانية في مطلع ربيع الآخر سنة 663هـ/1265م. ولم يذهب للبيرة بل تمركز بالقرب من أراضي الصليبيين، فوصل غزة في العشرين من ربيع الآخر، وهناك ورد عليه كتاب من دمشق يقول إن المغول المقيمين على البيرة عندما شاهدوا العساكر الإسلامية هربوا، فأمر بتحصين البيرة أفضل تحصين[3].

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص159. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص89، 90. رشيد الدين: جامع التواريخ، 330/1/2.

[2] الأرمني: تاريخ سمباط، ج36، ص340. ابن عبد الظاهر: الروض، ص221 – 223. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص524. ابن أيبك، الدرة الزكية، ص107.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص222–224. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص262، 263. الأرمني: تاريخ سمباط، ج36، ص340. المنصوري: مختار الأخبار، ص29.

ثم استغل بيبرس فرصة وجوده في بلاد الشام لتأديب الصليبيين، واستطاع تحرير قيسارية وأرسوف وغيرهما، وهاجم حيفا وعثليت[1].

استغل المماليك بعد ذلك موت هولاكو في ربيع الآخر 663هـ/ شباط 1265م وتسلم ابنه أبغا خان الذي انشغل بالقتال مع القبيلة الذهبية وبلاد ما وراء النهر، استغلوها بتكثيف عملياتهم العسكرية في سواحل بلاد الشام، فنجحوا بتحرير صفد ويافا والشقيف وأنطاكية، وهاجموا طرابلس وعكا وحصن الأكراد.

وحقق المماليك ضربة أخرى لحليف للصليبيين والمغول، فوجهوا جيشاً كبيراً ضد أرمينية الصغرى سنة 664هـ/ 1266م بقيادة الملك المنصور صاحب حماه، فهزموا الأرمن هزيمة قاسية، فاضطر هيثوم الأول إلى عقد معاهدة مع المماليك سنة 666هـ/ 1268م تنازل فيها عن كل القلاع الإسلامية التي كان قد تسلمها من المغول أثناء اجتياحهم لبلاد الشام، مقابل إطلاق سراح ابنه الذي أسره المماليك أثناء هذه الأعمال العسكرية[2].

5_ فشل التحالف الغربي المغولي بين سنتي 664هـ/1266م و 666هـ/1268م ومحاولة الصلح بين مغول فارس والمماليك:

راسل أبغا روما يعرض خدماته ضد المماليك، وذلك بين سنتي 664هـ/1266م – 666هـ/1268م، في وقت كان الغرب الأوروبي يستعد فيه للانتقام من سقوط أنطاكية وكان لويس التاسع يجهز حملة صليبية جديدة ضد تونس[3].

ويظهر أن هذا الاتفاق النظري قد تحقق عملياً ودخل حيز التطبيق من خلال ما يأتي:

_ جرى تنسيق سنة 668هـ/1269م بين جيمس الأول ملك أراغون وأبغا للهجوم على المماليك[1].

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص230 – 235. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص265–268.

[2]رشيد الدين:جامع التواريخ، 11/2/2 وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج2، ص434 وما بعد. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص340.

[3] هلال، عادل: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، 1997م، ص112.

_ هنا هاجم مغول فارس الساجور في ربيع الأول 668هـ/ تشرين الأول 1269م.

_ تعذر وصول مساعدات جيمس الأول بسبب عاصفة بحرية[2].

_ فشلت حملة لويس التاسع في الهجوم على تونس لوفاة لويس التاسع، وتعرض جنوده للأمراض[3].

_ ولما علم – الذي كان قد اتفق مع لويس التاسع على المسير معاً إلى الشرق، وقد خرج بأسطوله من أجل ذلك – ما آلت إليه حملة لويس التاسع، عرج نحو الشرق، طالب إدوارد ولي عهد انكلترا (الذي وصل عكا سنة 670هـ/1271م،) بالهجوم على دولة المماليك، فأرسل أبغا القائد صمغار مع قوات الروم في حوالي عشرة آلاف فارس، فهاجموا عينتاب وحارم وبدؤوا بالإغارة على البلاد الحلبية[4].

وهنا استنفر بيبرس قواته في الشام ومصر واستعان بقوات العربان، واستطاع رد هذه المحاولة والانتصار على مغول فارس.

ومن أكبر الأدلة على فشل هذا التحالف الغربي المغولي تخلي إدوارد الأول عن مشروعه الصليبي، فعقد هدنة مع الظاهر بيبرس وعاد إلى دياره[5].

وهنا حاول مغول فارس والسلاجقة الصلح مع المماليك، فأرسلوا سفارة سنة 670هـ / 1271م إلى الظاهر بيبرس (وكان موجوداً في دمشق)، باسم صمغار قائد المغول المقيم في آسيا الصغرى،

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، 362. رنسيمان: الحروب الصليبية، ج3، ص567، 568.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص361. المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص584.

(3) جوانفيل، جين: حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، تر: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ج36، ص262.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض، ص395. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص 113. Howorth: A history of the Mongols. Part 3. P. 242-243. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص73، 74.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص395–396. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص165. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص113.

ومعين الدين البرواناه[1]وزير السلطان السلجوقي في بلاد الروم، اللذين قدما نفسيهما وسطاء أبغا وبيبرس لتحقيق الصلح[2].

التقى بيبرس بالوفد، وأرسل وفداً وحمَّله رسالة إلى أبغا، وبالنتيجة لم يتحقق الصلح للأسباب الآتية:

_ شك مغول فارس بوجود اتصالات سرية بين بيبرس ومعين الدين البرواناه، إذ حمَّل بيبرس _ سراً _ الوفد المرسل إلى أبغا هدية للبرواناه وهي عبارة عن قماش فاخر، وهذا ما دفع أبغا _ فيما بعد _ إلى قتل البرواناه سنة 676هـ/ 1277م[3]. وهذا ما سيتحدث عنه البحث بعد أسطر.

_ ذكر بيبرس في الرسالة أن منكوتمر خان القفجاق طلب منه القيام بهجوم مشترك على أراضي مغول فارس، ولكل منهما من الأراضي ما وصلت إليه خيولهما، فعدَّ أبغا ذلك تهديداً[4].

_ واشترط بيبرس أيضاً لقبول الصلح أن يُعيد أبغا له جميع أراضي المسلمين التي تحت يده[5].

_ بعد أن شاور أبغا كبار قادته أرسل سفراءه إلى القاهرة سنة 671هـ/ 1272م لبدء المفاوضات، فاقترح سفراءه أن يذهب بيبرس بنفسه أو من يليه في المرتبة إلى مغول فارس لتوقيع الصلح، فرفض بيبرس واشترط أن يأتي أبغا أو أحد إخوته إلى القاهرة لتوقيع الصلح[6].

6_ الوساطة البيزنطية الأرمنية لعقد صلح بين المماليك ومغول فارس:

قامت محاولات بيزنطية وأرمنية لعقد الصلح بين مغول فارس والمماليك، أما البيزنطيون فيبدو أن سعيهم هذا سببه وجود عدو مشترك بين الطرفين وهو صليبيو الشام، وأما الأرمن _ حلفاء مغول فارس _ فقد تعرضوا بسبب ذلك لهجوم متكرر من قبل المماليك، وبسبب ذلك وقَّعوا هدنة سنة

---

[1] لقب كان السلاجقة يستخدمونه بمعنى الوزير الأكبر، انظر، دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص33.

[2] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 34.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص399. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص183. رشيد الدين: جامع التواريخ، 65/2/2.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص400.

[5] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص35.

[6] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص400-404. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص20.

664هـ/ 1268م مع المماليك فيها الكثير من التنازلات والخضوع لإرادة دولة المماليك، وعقد صلح مع حلفائهم مغول فارس والمماليك من الممكن أن يخلصهم من كل ذلك.

على كل حال أورد ابن عبد الظاهر نصوص مراسلات من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس سنة 667هـ/1268م إلى الظاهر بيبرس يعرض عليه مشروع صلح مع المغول، لكن بيبرس رد عليه بحزم بقوله: ((أما أبغا فما له إلا السيف))[1].

وأورد ابن عبد الظاهر أيضاً بأن الملك الأرمني هيثوم الأول حاول أيضاً أن يكون وسيطاً للصلح بين المماليك والمغول، إذ أرسل أبغا سنة 667هـ/ 1268م رسالة قاسية إلى بيبرس عن طريق أرمينية الصغرى، يطلب عقد معاهدة بين الطرفين، فأجابه برسالة أقسى، ولمَّح لأبغا بما آل إليه كتبغا قائد المغول في معركة عين جالوت، وشرط عليه أن مقابل الصلح أن يعيد جميع الأراضي التي احتلها المغول في العراق والشام والجزيرة و بلاد الروم، فلم تنجح محاولة الصلح هذه[2].

وقبل المتابعة، وبما أن الأسطر المتقدمة قد أشارت إلى أوائل محاولات الصلح بين المماليك والمغول، يُستحسن الإشارة إلى بحث تناول الرسائل المتبادلة بين الغرب الأوروبي وخانات المغول، والتي تشير إلى الدور الريادي للمسيحيين الشرقيين، وأملهم في التحالف.

في هذه الرسائل أكد المغول الحماية للمسيحيين، بل أعادت هذه المراسلات أسطورة الكاهن يوحنا وإمكانية عودة القدس للفرنجة.

تم تحليل عدد من الرسائل سواء ردود الخانات العظمى على الرسائل التي كتبها إنوسنت الرابع وملك فرنسا لويس التاسع، أو الوثائق التي تحتوي على الرسائل التي وجهها الإيلخانات إلى البابوات: غريغوري العاشر، هونوريوس الرابع، نيكولاس الرابع وبونيفاس الثامن، ولملك فرنسا فيليب.

تُظهر هذه الرسائل كيف أن خانات فارس كانت تسعى إلى إقامة علاقات مع الغرب اللاتيني بهدف تشكيل تحالف ضد سلطنة المماليك، وذلك بعد الهزائم التي لحقت بجيش المغول من قبل قوات المماليك في عين جالوت.

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص335.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص339–342. المقريزي: السلوك،ج1، ق2، ص574.

ومن الأمور الملفتة في هذه المراسلات مسألة الكاهن يوحنا والشائعات حول تحويل الخانات للديانة المسيحية.

وظهر في هذه المراسلات عبارات واضحة عن أن المغول قوة الله على وجه الأرض، وبالتالي فإنهم يتمتعون بالتفويض الإلهي، وأنه يجب على جميع الشعوب أن تقدم لهم الطاعة.

وظهر في هذه المراسلات أيضاً كيف أن البابا كان يعد الكنائس الشرقية هرطقة، وأن من أهم أهداف المسيحية اللاتينية وضع هذه الكنائس تحت سلطة البابوية[1].

ويُظهر بحث آخر كيف كانت والرسل لا تنقطع بين الغرب اللاتيني وإيلخانات فارس، بل يثبت هذا البحث الاتصالات الدبلوماسية المباشرة بين الطرفين، بهدف هجوم مشترك ضد دولة المماليك.

وأهم سبب دفع أوروبا لذلك هو ((شعورها بفقدان الأراضي المقدسة)) ومحاولة السيطرة على القدس مرة أخرى وإعادتها إلى أيدي المسيحية، بالإضافة لسبب آخر سموه بـــ (المعجزة) هو تحويل المغول إلى المسيحية.

من هذه المراسلات مراسلات مغول فارس للإنكليز، مثل ما حدث في منتصف سنة 659هـــ / 1260م إذ أرسل المغول إلى الملك هنري الثالث.

ومن ذلك رسالة فرسان الهيكل لملك إنكلترة يخبروه فيها عن استيلاء المغول على بغداد وإعدام الخليفة، وأنهم الآن يتقدمون داخل سوريا. وأن المغول وضعوا في الخطوط الأمامية لجيوشهم الأسرى والنساء.

كما تلقى هنري الثالث خطابات من أسقف بيت لحم، يخبره فيها بأن المغول صاروا بين حلب والقدس، وأن الأماكن المقدسة صارت في خطر.

وهنا دعا البابا إلى اجتماع المجلس العام في روما في عيد الفصح 660هـــ / 1261م.

وكتب البابا حول هذه المسألة إلى رئيس أساقفة كانتربري، وإلى الملك هنري الثالث، وغيرهما، لاتخاذ إجراءات أمام خطر المغول هذا.

---

(1) DENISE AIGLE; Eljigidei, Hülegü, and Abaqa: Mongol Overtures or Christian Ventriloquism? BRILL, Inner Asia, Vol. 7, No. 2 (2005), pp. 143-162.

وخلال خريف 660هـ / 1261م، أرسل أسقف عكا مبعوثين الى البابا في روما، وطلب منه تنظيم حملة ((ضد أعداء الله)).

أعقب ذلك خمسين عاماً من الاتصالات الدبلوماسية والمشاريع المشتركة بين مغول فارس والغرب لتنظيم حملات ضد المماليك.

بعث البابا كليمنت الرابع رسالة بتاريخ 20 أغسطس 1267م / 666هـ للإيلخان أباقا يبلغه فيها بحملة صليبية جديدة، توجهت بقيادة لويس التاسع إلى تونس، لكن العاصفة دمَّرت أسطول الصليبيين.

وفي 26 يناير 1275م / 674هـ، أبلغ الغرب الإيلخانات أنه يُجهز لحملة صليبية[1].

7_ هجوم مغولي جديد على البيرة سنة 670 – 671 هـ /1271 – 1272م :

قبل الحديث عن الهجوم على البيرة، لا بد من ذكر أن مملكة أرمينيا الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الضربة التي أنزلها بها بيبرس، حتى اضطر هيثوم الأول أن يتخلى عن العرش لابنه ليون الثالث سنة 668هـ / 1269م، ويبدو أن ليون الثالث هذا حاول أن يثأر من مصر والشام، فاستأنف سياسة أبيه الخاصة بمحالفة المغول ضد المسلمين، وقد عد السلطان بيبرس تلك التصرفات من جانب ليون الثالث نقضاً للعهد بين الطرفين، لذلك لم يكد يفرغ من إنزال الهزيمة بالمغول على الفرات سنة 672هـ / 1273م حتى أرسل جيشاً بقيادة الأمير قلاوون الألفي والأمير بيليك الخازندار إلى أرمينيا الصغرى، فهاجموا سيس والمصيصة وقتلوا كثيراً من الأرمن، ثم عادوا ومعهم كميات ضخمة من الغنائم[2].

---

[1] Jacques Paviot; England and the Mongols (c. 1260-1330), Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3 (Nov., 2000), pp. 305-318.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص104، 105. أشتياني: تاريخ مغول، ص211.

بكل الاحوال؛ انشغل مغول فارس في ذلك الوقت بمشاكلهم الداخلية عن غزو بلاد الشام، وما كان من أبغا إلا أن طلب الصلح مع المماليك، وبعد تفكير رفض الظاهر بيبرس هذا الطلب لأن هدفه هو استعادة كل المناطق التي بيد المغول، عندها توجه أبغا للتحالف مع الفرنج الصليبيين[1].

ومع دخول سنة 670 هـ/1271م، بدأت مرحلة جديدة تمثلت بمعاودة غزو المغول لمناطق بلاد الشام، فهاجموا أولاً عين تاب والروج وقسطون وأفاميا، وظهر التحالف المغولي الفرنجي الصليبي من خلال مهاجمة الصليبيين لقاقون للتخفيف على المغول من هجوم المماليك، لكن الظاهر بيبرس هزمهم وهاجم عكا فاضطر الصليبيون لطلب الصلح.

ويبدو أن أبغا أدرك في هذه المرحلة أن لا طائل من محاولة التحالف مع الصليبيين ضد المماليك، يدل على ذلك عدم تجاوبه بشكل كاف مع سفارة الأمير الانكليزي إدوارد للتعاون ضد المماليك، بل إنه أرسل للسلطان بيبرس يطلب الصلح ثانية، ومع أن بيبرس استقبل هذه السفارة المغولية أحسن استقبال لكنه لم يوافق على الصلح، فكانت ردة فعلهم بتجديد الهجوم على البيرة سنة 670 – 671 هـ /1271م بقيادة مقدمهم أقطاي، وفتوجه بيبرس من دمشق إلى القطيفة فوجد أن المغول قد غادروا، فتابع مسيره إلى حلب لاستطلاع أحوالها[2].

إذن؛ ابتدأت الحركات العدوانية من جانب مغول فارس، فأغاروا على الساجور، ثم تحالفوا مع الصليبيين للقيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام، كان الظاهر بيبرس في الاسكندرية فأرسل الأمير علاء الدين البيرقدار على رأس قوة عسكرية، وأمره أن يرابط في المناطق الحدودية، ويترصد أخبار المغول وتحركاتهم، ثم خرج بنفسه إلى دمشق ليكون قريباً من مجرى الأحداث، ويبدو أن المغول علموا بخروجه فانسحبوا من المنطقة.

---

[1] الدجاني: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، ص70، 71. أشتياني: تاريخ مغول، ص211-213.

[2]– حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص250. الدجاني: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين، ص71.

ثم حدث أن أغار المغول في عام 670هـ / 1271م على عنتاب وعمق حارم، فأرسل بيبرس قوة عسكرية اصطدمت بالقوة المغولية المغيرة، وانتصرت عليها عند الرها وحران[1].

وعندما رأى أباقا أن المماليك أصبحوا قوة من الصعب التغلب عليها مال إلى الدبلوماسية، ويظهر أن القضايا الجديدة التي استجدت على الساحة هي التي دفعته إلى ذلك، ومنها:

_ تحقيق المماليك الانتصارت تلو الانتصارات.

_ انتعاش جهاز الخلافة العباسية من جديد، وإضافتها صبغة الجهاد على الحروب، وإشراقها بنور الأمل على قلوب المسلمين.

_ خضوع زعماء بلاد الشام تحت سلطة بيبرس، وتحقق الانسجام بين القوى المختلفة تحت لواء واحد يستمدون القوة من الدين والدولة.

_ توصل القوى المحلية إلى نتيجة مفادها بأنه بالاتحاد يمكن تحقيق المستحيل وإلحاق الهزيمة بمن لا ينهزم، والذي شكل العامل الأهم للانتصارات والذي تغافله الخوارزمشاهيون والعباسيون في بغداد، في الوقت الذي توصل أهل الشام والمصريون إلى تحقيقه.

_ كان بيبرس قد استطاع بحملاته المتلاحقة أن يستعيد ويحرر المناطق التي كانت تحت سيطرة الصليبيين في ساحل المتوسط في بلاد الشام، وفي بعض حروبه المهمة أخرجهم من المنطقة بشكل كلي أو أعادهم إلى الوراء كثيراً.

فبظهور هذه المستجدات على الساحة كان يتوجب على الخان المغولي الجديد أن يتعامل مع القضية بحذر تام، وإذا لم يكن على ثقة تامة من قدراته فعليه عدم الإقدام على شن الحرب[2].

ولكن تبين فيما بعد أن الخان المغولي يخادع لكسب الوقت، وانتظار فرصة مناسبة للاصطدام بالمماليك، فأمر بالفور بالتجهيز للحرب[1].

---

[1]– المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص73. العيني، محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ج2، 1988م، ص 92 – 93. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص21.

[2]انظر بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص299 وما بعد.

وبالتالي كان ذلك مقدمة لوقوع معركة البيرة بين المماليك والمغول.

فعاد المغول في جمادى الأولى سنة671هـ/1271م وهاجموا البيرة، وكانوا بقيادة درباري الذي حاصرها ونصب عليها المنجنيقات، فجمع بيبرس العساكر من مصر والشام وجعل الأمير قلاوون عليهم[2] .

إذاً وصلت أخبار تحركات مغول فارس للظاهر بيبرس وأنهم نزلوا على البيرة، و نصبوا عليها المنجنيقات، فسار إلى حمص، وبعد أن بلغه اجتماع المغول على شط الفرات الشرقي وتحصنهم هناك، وكانوا خمسة آلاف يتقدمهم جنقر، فتوجه لهم، واقتحمت قواته الفرات، وصدم الأمير قلاوون المغول صدمة فرّقهم بها ومزّقهم، وهنا يصف ابن شداد كيف أن القوات المملوكية ألقت نفسها في الفرات، وساقوا فيها عوماً الفارس إلى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة، ومجاديفهم رماحهم، وعليهم وعلى خيولهم الحديد، فوقعوا على التتار، فاستلوا أرواحهم من جسومهم طعناً وضرباً، وأسروا منهم تقدير مائتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل، وقتل مقدمهم جنقر. أما بالنسبة للمغول الذين نزلوا على البيرة بقيادة درباي، فقد هاجم البيرة جيش مغولي سلجوقي مشترك قوامه ما يقارب ثلاثين ألف مقاتل، وكان خمسة عشرة ألف من المغول بقيادة نالشي وأقطاي توين، وخمسة عشرة ألف من السلاجقة بقيادة معين الدين بروناه، وهاجموا البيرة عام 671هـ / 1272م بهدف الاستيلاء على قلعتها، وحاصروها حصاراً مركزاً، ونصبوا حولها ثلاثة وعشرين منجنيقاً، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع الجيش المملوكي من الوصول إليهم، وفك الحصار عبر الفرات.

وصمدت حامية المدينة، وكانت تخرج بالليل في غارات وتقوم بمهاجمة القوات المحاصرة، وتحرق لهم المناجيق، ومن ثم تعود مع وجه الصباح[3].

---

[1]– العيني، محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ج2، 1988م، ص 92 – 93. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص21.

[2]ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص55، 56. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص420. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص350.

[3] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص55– 56، 124، 125. ابن عبد الظاهر: الروض، ص 405 – 408. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص 169، 170. النويري: نهاية الأرب، ج30، ص333–334. المنصوري: التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص 75. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص76، 78.

ولما علم بيبرس بنزول المغول على البيرة، خرج إلى حمص، وصادر مراكب الصيادين، وحملها على الإبل لعبور الفرات عليها، ثم وصل إلى الشاطئ فوجد الجيش المغولي مرابطاً هناك، فأنزل المراكب في الفرات، ثم عبر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيبرس، وتبعهما بيبرس بنفسه ثم بقية الجيش.

ويبدو أن البيرة استعصت على المغول بسبب هطول الثلوج وتراكمها واشتداد البرد، مما اضطرهم إلى فك الحصار، وعادوا إلى بلاد الروم، وأحرقوا معداتهم كي لا تقع في أيدي الجيش المملوكي، لكن مؤخرتهم اصطدمت بالقوات المملوكية التي عبرت النهر وتعرضت للدمار، ولم ينج منها إلا القليل[1].

وإن خبر انتصار المماليك في الفرات هو من الأسباب التي جعلت المغول يرحلون عن البيرة بعد أن أشرفوا على أخذها، وتركوا ما عندهم من العتاد والمنجنيقات والأمتعة.

ودخل بيبرس قلعة البيرة، وخلع على نائبها، ووزع النقود على أهلها تعويضاً لهم لما لاقوه من شدة أيام الحصار، وأنعم عليهم ببعض الغنائم مما تركه المغول، ثم غادرها عائداً إلى مصر عن طريق دمشق[2].

وطارد بيبرس فلول المغول سنة 672 هـ/1273م، فأمَّن بذلك الحدود الشرقية لدولة المماليك.

أمام هذه الهزائم فكَّر أبغا بالتحالف مع سلاجقة الروم، فأعد بيبرس حملة كبيرة لغزو سلاجقة الروم سنة 674هـ/1275م، وهنا استغل بيبرس تذمر السلاجقة من المغول فاتصل بوزيرهم البراوناه سراً، ولما توجه أبغا إلى البيرة سنة 674هـ / 1275م، وطلب مساعدة البراوناة اعتذر عن ذلك، ثم خرج الظاهر بيبرس من الديار المصرية في 15 من شهر رمضان سنة 675هـ/1275م، ووصل إلى صحراء الأبلستين واصطدم مع المغول في 10 ذي القعدة سنة 675هـ/1275م وهزمهم، ثم توجه إلى قيسارية وسيطر عليها.

وعاد أبغا أدراجه إلى بغداد، وعاد بيبرس إلى دمشق، وكانت تلك آخر مواجهة للظاهر بيبرس مع المغول[1].

---

[1] ابن تعزي بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، القاهرة، ج7، ص159. أشتياني: تاريخ مغول، ص212، 213.

[2]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص408.

_ ومن أهم نتائج معركة البيرة:

بعد معركة البيرة أضحى بإمكان الظاهر بيبرس تنفيذ مشروع ضم بلاد الروم، إذ إن الأوضاع السياسية أصبحت ملائمة، فالسلطان السلجوقي كيخسرو الثالث لا يزال صبياً، أما بروناه الحاكم الفعلي للبلاد فإنه لم يستطع بالرغم مما بذله من جهد أن يضبط الأوضاع الداخلية المتدهورة وقيام ثورات مؤيدة للمماليك.

أما الأرمن في قليقيا فقد ضعفوا بسبب تواصل غارات المماليك عليهم منذ عام (664هـ / 1265م).

أما أنطاكية فقد تم إخضاعها، وتدميرها عام 667هـ / 1268م ولم تنهض بعدها مطلقاً، ولم يعد لها مكانة سوى أنها أضحت قلعة في العالم الإسلامي[2].

أما الصليبيون فقد انكمشوا في إمارات متباعدة نجح بيبرس في عزلها، وراح يهاجمها واحدة إثر واحدة، كما عقد هدنة في قيسارية مع حكومة عكا عام 670هـ / 1272م مدتها قرابة أحد عشر سنة، بهدف منع أي تدخل يؤثر على خططه في أمور الشرق[3].

8_ المفاوضات بين السلطان الظاهر ومعين الدين البروناه:

كان سلاجقة الروم في ذلك الوقت تحت سيطرة مغول فارس، يتدخلون في شؤون بلادهم، فأراد معين الدين البروناه التخلص من ذلك بتحقيق اتفاق مع المماليك[4].

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص55، 56. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م3، ص2، 3 .- العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص420. حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص137 – 138. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص350. عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص103.

[2]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص80. أشتياني: تاريخ مغول، ص213.

[3]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص81، 82.

[4]-تذكر رواية فارسية أن معين الدين البروناه كان ينطلق من وزارته باستمرار لزيارة مقر المغول في تبريز، وهذه الزيارات أدت إلى عقد روابط حسنة بين المغول والسلاجقة في قونية، وعلى الرغم من كون البروناه من رجال الدولة السياسيين والإداريين، وليس من العسكريين، ولكنه ألزم بالعمل في الأعمال العسكرية، فقد كان في معظم الأحيان

بدأت المراسلات سراً بدءاً من سنة 672هـ/1273م، إذ عرض البرواناه تبعيته للمماليك، فلاقى ذلك قبولاً عند بيبرس فوافق، ولما قفلت رسل البرواناه إليه حدث تطور لصالحه إذ قام أبغا بسحب قادته (أجاي وصمغار) من بلاد البرواناه، فبدأ هذا الأخير يتلكأ بإجابة السلطان بيبرس[1].

في سنة 673هـ/ 1275م خرج بيبرس بالقوات المملوكية يريد آسيا الصغرى حسبما وعد البرواناه، فكتب البرواناه للسلطان بيبرس يطلب منه مهاجمة سيس وهو يملكه البلاد بعد ذلك، فاستغل بيبرس هذا الخروج لمهاجمة أرمينية لإبعادها عن محالفة المغول، فرد المغول بالهجوم على البيرة، وحاصروها سنة 674هـ/1275م. ثم قرروا الرحيل بعد حصار دام تسعة أيام فقط[2].

9_ معركة أبلستين[3] 675هـ/1276م:

قبل الدخول إلى تفاصيل هذه المعركة لا بد من الإشارة إلى قضية تحالف المغول مع الغرب ضد دولة المماليك، هذه المحاولة المتكررة، وتجلت هنا بمجمع ليون 673 – 674هـ / 1274 – 1275م؛ إذ دعا إلى عقده البابا جريجوري العاشر، وهو مجمع صليبي شهده عدد كبير من أساقفة الشرق، يتصدرهم أسقف طرابلس، ومقدم الداوية وليم بوجيه.

وقد سعى البابا لإقناع أوربا بتنفيذ قرارات ذلك المجمع، فبادر ملك فرنسا فيليب الثالث إلى المساهمة في حملة صليبية بالتعاون مع رودلف هابسبرج، مقابل الحصول على وعد بأن يتوجه البابا في روما إمبراطوراً. وفي نفس الوقت حاول البابا أن يهيئ الأرض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية فأمر

يحارب كتفاً إلى كتف إلى جانب المغول. وليس من المستبعد بناءً على هذه الأدلة أن يكون معين الدين قد فكر باستثمار قوة بيبرس السلطان المملوكي القوي لإضعاف سلطة المغول؛ ولهذا السبب كان يفكر بتعيين حارس شخصي لنفسه. انظر حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص129 – 132.

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 78–79. اليونيني: ذيل مرآةالزمان، ج3، ص34. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص78.

[2] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 106 وما بعد. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص 177–178. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص432. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، بيروت، ج7، ص29–41. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص82.

[3] تقع شمال شرق تركيا، اسمها حالياً ألبستان.

بإصلاح الحصون في الشرق وعمارتها وإرسال أعداد كبيرة من العساكر المأجورة والمدربة تدريباً عالياً إلى الشرق.

وقد حضر هذا المجمع مبعوثون من المغول، تنصر اثنان منهم على يد كاردينال أوستيا البابا انوسنت الخامس لاحقاً.

وقد تلقى المغول ردوداً ودية من البابا والمجلس البابوي حول تنسيق الجهود بين الطرفين ضد قلاوون ودولة المماليك.

وقد وصل وفد المغول إلى إنكلترا سنة 675هـ / 1276م وسلَّموا ملكها إدوارد الأول رسالة من سيدهم أباقا.

ولم يحبط هذا التحالف الصليبي المغولي إلا شارل أنجو الذي قال إن المغول يحالفون أعداءه البيزنطيين، وكان لدوره أثر كبير في فشل مجمع ليون الذي كان أقرب إلى المجامع العسكرية منه إلى المجامع الدينية[1].

أ_ المراسلات بين السلطان بيبرس والوزير معين الدين البرواناه **والأمراء السلاجقة:**

عندما أدرك المغول أنهم في حاجة إلى حليف ضد بيبرس، وأن الصليبيين ببلاد الشام صاروا على درجة من الضعف والتفكك لا تساعد على الاعتماد عليهم، فكَّر أبغا في استخدام سلاجقة الروم وزعيمهم معين الدين البرواناه في مهاجمة المماليك، وكانت بلاد سلاجقة الروم مشمولة في ذلك الوقت بالحماية المغولية[2].

كان معين الدين البرواناة قد التقى المغول في معسكرهم بناحية همذان من قبل أبغا مرتين، فلما عاد سنة 674هـ/ 1275م إلى آسيا الصغرى أرسل إليه أبغا يطلب منه حصار البيرة بمساعدة القائد تقو نوين، وحدث أمر مريب خلال الحصار إذ أمسك المغول رسلاً من الظاهر بيبرس إلى البرواناه

---

(1)آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1969، م3، ص582 – 593.

(2) عاشور: الظاهر بيبرس، ص100، 101. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125.

يحملون رسائل تتضمن التحالف والتنسيق بين الطرفين، فأنكر معين الدين هذه الرسائل وادعى أنها مكيدة من صاحب سيس، فتظاهر المغول بتصديقه، ووضعوا أبغا في صورة هذه القضية[1].

وهنا يشير ابن شداد إلى إدراك معين الدين لعدم جدوى المتابعة مع المغول وخاصة مع فشل حصار البيرة فبدأ يفكر بالتحالف مع المماليك[2]، وفعلاً اجتمع مع الأمراء، وقرروا مراسلة بيبرس وأرسلوا إليه يطلبون المساعدة ضد المغول، وطلبوا أن يبقى السلطان السلجوقي في مكانه حاكماً مقابل الجزية التي كانوا يدفعونها للمغول.

وهنا تأنَّى الظاهر بيبرس، مؤجلاً التعاون العسكري لعام متحججاً بقلة مياه الآبار، فصار البرواناه في موقف لا يحسد عليه إذ استدعاه أبغا وسار إليه وهو يتمنى على بيبرس تفعيل التعاون العسكري قبل أن يصل لأبغا. فكتب أمراء السلاجقة لبيبرس يشرحون الموقف ويطلبون منه التوجه إلى آسيا الصغرى، فأرسل بيبرس في محرم 675هـ/1276م الأمير بكتوت ومعه رسائل إلى أمراء السلاجقة، فوصل بكتوت إلى الأبلستين حيث اجتمع بأمراء السلاجقة الذين أبدوا طاعتهم لبيبرس[3].

وهنا استعجل السلاجقة الهجوم على المغول دون التنسيق مع المماليك، ولما شعروا بتورطهم أرسلوا إلى بيبرس يستعجلوه في المسير _ وكان في حمص _ فلامهم وطلب منهم التحصن بقلاعهم.

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص122-126. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص112-115. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 266.

[2] تذكر رواية فارسية أن معين الدين كان رجلاً مسلماً وذكياً ومتطلعاً إلى المنصب الرفيع والسلطة، وكان يعد المغول في وجدانه من الأعداء فيتعامل معهم في الظاهر خوفاً من بطشهم، ويميل في باطنه إلى بيبرس، إذ كان يتآمر في الخفاء مع المماليك في بلاد الشام على المغول، واتبع سياسة مزدوجة حتى آخر حياته حتى أصبح ضحية لها. انظر حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص139.

[3] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص128 وما بعد. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص116، 117. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، 82. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص42، 43، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص188-189.

وتنقَّل بيبرس بين مصر وحلب ودمشق للاستعداد للقاء المغول. ثم علم بقدوم البرواناه مع منكوتمر أخو أبغا ومعهم ثلاثون ألف فارس، فدخل بيبرس دمشق ومنها توجه إلى مصر[1].

ب – استعدادات السلطان، والمسير إلى آسيا الصغرى:

لم يكن من عادة المماليك مهاجمة المغول في أراضيهم، فما الذي دفع بيبرس للتوجه نحوهم.

_ ربما أراد بيبرس أن يقطع الطريق الرئيسي الذي كان المغول يهاجمون منه بلاد الشام دائماً، وهو شمال بلاد الشام، وعبر أراضي آسيا الصغرى، فيتم بذلك حرمان المغول من الاستفادة من هذه الأراضي كمعبر استراتيجي وبالتالي حماية بلاد الشام. وهذا يعني أن بيبرس أراد نقل المعارك مع المغول إلى أراضيهم وتجنيب أراضي دولة المماليك ذلك.

_ ويتصل بذلك حرمان المغول من الاستفادة من اقتصاد أراضي سلاجقة الروم وتحويله لصالحه.

_ وعندما نقرأ عن معاناة دولة المماليك من أرمينية الصغرى وغدرهم المتكرر بالتحالف مع مختلف القوى ضد المماليك، فهذا يعني أن بيبرس أراد أيضاً ضربهم بهذا التوجه، لأن إن سيطر على أراضي سلاجقة الروم فإنه يقطع الاتصال بينهم وبين مغول فارس ويجعلهم في عزلة ويُسرع القضاء عليهم.

على كل حال: وصلت القوات المغولية إلى أراضي سلاجقة الروم، فأثار ذلك مخاوف بيبرس، وهنا قرر المواجهة، واتخذ الإجراءات الآتية:

_ قام بمشاريع ومناورات عسكرية تدريبية شارك فيها بنفسه.

_ ترك الأمير آق سنقر الفارقي نائباً عنه، ومعه خمسة آلاف فارس لحماية مصر.

_ كلَّف بيبرس نائب حلب الأمير نور الدين بن مجلي وأمير العرب عيسى بن مهنا بالتوجه لحماية حدود العراق خوفاً من هجمات المغول.

---

[1] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 154–164. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص190 –197. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص169–173. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص67–42. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص79 وما بعد.

_ توجه إلى بلاد الروم، إذ خرج من مصر من قلعة الجبل في 20 رمضان 675هـ/ شباط 1277م، ووصل دمشق في 17 شوال/ آذار، وفي 20 شوال توجه إلى حلب، ومنها في 2 ذي العقدة/ نيسان سار إلى جيلان شمالي حلب، وتوجه من هناك في يوم الجمعة 3 ذي القعدة باتجاه بلاد سلاجقة الروم[1].

بكل الأحوال

كان الأرمن في قليقيا أول من رصد تحركات المماليك، فأرسل ملكهم ليون الثالث رسلاً إلى أباقا يخبره بتحركات المماليك وليكون على بينة من الأمر.

وتحرك بروناه من جهة ضمن دائرة مصلحة بلاده، فأرسل إلى الزعيم المغولي رسالة يكذب إدعاءات ليون فصدق أباقا كلام بروناه.

ويبدو أن توغل القوات المملوكية في بلاد الروم وصلت إلى مسامع أباقا، فقرر مواجهة الموقف ووضع خطة للتصدي للمماليك من شقين:

الأول: استغلال خروج بيبرس من الشام، فيغير على الشام بهدف التخفيف من الضغط عليه في بلاد الأناضول، فأرسل قوة عسكرية لإزاحة القوة المملوكية المقيمة على المعابر.

الثاني: أصدر أوامره إلى القوات المغولية والسلجوقية بالتحرك إلى ألبستان للتصدي للقوات المملوكية، وقد اشترك الكرج بثلاثة آلاف فارس[2].

ج- استعدادات مغول فارس:

_ رتَّب المغول قواتهم على نهر جيحان، بقيادة تتاون ومقدم سلاجقة الروم البرواناه.

_ جعلوا عساكرهم أحد عشر طُلُباً، في كل طُلُب أكثر من ألف فارس، بينهم عسكر من الكُرج انتظموا في طُلب واحد.

---

[1] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص195 – 198. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص175–176. المقريزي: السلوك، ج1، ص626–628. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص170–171. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص166–168. أشتياني: تاريخ مغول، ص213. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص598.

[2] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص335.

_ عزلوا عسكر الروم المسلمين خوفاً من أن يكون بينهم وبين المماليك اتفاق[1].

د _ أحداث المعركة:

وصلت قوات المماليك إلى أرض المعركة، فرأى الظاهر بيبرس جموع المغول متأهبة، فنزل وعبأ عساكره لمقاتلتهم، وحدثت المعركة يوم الجمعة 10 ذي القعدة عام 675هـ / 1277م في يوم بارد جداً.

بدأ القتال عندما هجمت ميسرة المغول على السنجقية أي الفرسان الذين في الوسط ويحملون رايات السلطان، ثم تعرضت ميسرة المماليك لهجوم عنيف من قبل ميمنة المغول، فحمل بيبرس عليهم حملة واحدة كانت قاسية إذ قُتل منهم الكثير، وعلى حد تعبير ابن أيبك ((فطحنوا التتار طحناً))[2].

وحمل تودان وتوغو حملات متواترة فرّقت صفوف المماليك، إلا أن الكفة رجحت للمماليك، وتضعضعت القوات المتحالفة، وبدأ أفرادها يفرون، وانجلت المعركة عن هزيمة قاسية للقوات المتحالفة، ويقال أنه قتل ممن المغول ما يقارب (6770)، فقتل بينهم القائدان تودان وتوغو كما قتل (2000) فارس من الكرج، بالإضافة إلى عدد من أمراء السلاجقة[3].

هنا ترجل المغول عن خيولهم وقاتلوا بكل شراسة، لكن جيش المماليك قاتل بشراسة أكبر، ونجح بهزيمتهم هزيمة كبيرة[4].

ونهب المماليك المعسكر المغولي، وقتلوا الأسرى، ويقال عن ابن العبري أن بروناه قدم للفرسان المغول قبل بدء المعركة لحماً وخمراً، وعندما بدأت المعركة لعبت الخمرة في رؤوس هؤلاء، ولم تجعلهم يتوازنون على الحصان، ولم يتمكنوا من التركيز في المعركة مما أثَّر في النتيجة النهائية للمعركة[5].

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 458–459. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 172.

[2] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص199. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص84.

[3]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص460، 461. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص304.

[4] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 459.

–460.أبو الفداء: المختصر، ج2، ص340، 341. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص95.

[5] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص336. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص598.

ولما رأى بروانان ما حل بالجيش المغولي فرَّ هارباً، ونزل الظاهر إلى أرض المعركة، وأمر بالعفو عن الأسرى، وأرسل الأمير سنقر إلى قيصرية على رأس قوة عسكرية تطارد فلول الهاربين، وتوجه إلى قيصرية ومعه كتاب الأمان إلى سكانها، وأمر بالتعامل بالدراهم الظاهرية[1].

إذاً هرب البرواناه وتوجه إلى قيصرية[2]، ونصح من فيها من المسلمين بالخروج خشية انتقام المغول، وتوجه السلطان بيبرس إلى قيصرية فدخلها في 17 ذي القعدة 675هـ/ 22 نيسان 1277م، وهناك جلس على تخت آل سلجوق، وجُعلت الخطبة له وكذلك السكة.

وعندما سمع أبغا بما فعله بيبرس في الأناضول أسرع إلى أبلستين سنة 676هـ / 1277م حيث شاهد عسكره صرعى ولم يجد أحداً من عسكر الروم مقتولاً، فاستشاط غضباً، وقرر الانتقام، لكن أمراء المغول نصحوه بأن يؤجل هجومه إلى الخريف أو الشتاء، فقبل مشورتهم، وأمر بنهب بلاد الروم وقتل من صادفه من المسلمين، ويروي مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني أن أبغا لم يتمالك نفسه عندما شاهد جثث المغول الذين قتلهم بيبرس، فبكى وحزن على رجاله حزناً عميقاً[3].

ودخلت بعض مدن الروم تحت طاعة بيبرس، وأقبل السلاجقة عليه يهنئوه بالنصر والجلوس على العرش، وبعدما رتَّب الأمور الإدارية في البلاد[4].

أما البرواناه فإنه هنأ بيبرس الذي طلب إليه الحضور ليوليه مكانه، ولكنه كان ينوي أن يضرب أبغا ببيبرس، دل على ذلك أنه طلب من بيبرس مهلة خمسة عشر يوماً حتى يأتيه، وبذلك يبقى السلطان في آسيا الصغرى حتى يدركه أبغا، لكن بيبرس لم يفته ذلك فغادر قيصرية باتجاه دمشق في 7 محرم 676هـ/حزيران 1277م.

---

[1]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص462. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص20.

[2] تقع شمال شرق تركيا.

[3]ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص464–467. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص177– 186. ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 174– 181. رشيد الدين: جامع التواريخ، 62/2/2، 64. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص341. عاشور: الظاهر بيبرس، ص100، 101.

[4] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص630. حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص136. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص305.

وكان أن انتقم أبغا بأن أباح أراضي سلاجقة الروم لجنوده، فعاثوا فيها فساداً وقتلاً وتدميراً، وأمر بقتل البرواناه[1] متهماً إياه بالخيانة[2].

ويذكر البرزالي أن ما قتل من أهلها في عمليات الانتقام التي قام بها أبغا بلغ حوالي مئة ألف، وقيل خمسمئة ألف من أهالي المنطقة الممتدة فيما بين قيصرية و أرزن الروم، وقام بإعدام الكثير من الضباط والمسؤولين الذين كانوا في المعركة.

ثم جعل بلاد سلاجقة الروم أشبه بولاية مغولية تتبع لهم مباشرة بعد أن كانت دولة مستقلة[3].

أقام بيبرس مدة عشرة أيام في قيصرية، وعلم أثناءها بمراسلات برواناه لأباقا، فقرر الخروج لأن عساكره كانت منهكة، ونفذ الطعام والمؤن لديه ثم رحل عائداً إلى الشام[4].

وقد أرسل أباقا بعضاً من قواته للتوغل في الأراضي الشامية، لكنها لم تستطع، ولما عادت أخبرت القائد المغولي بأن القوات المملوكية تغير على المخافر الأمامية في غزوات خاطفة ثم تلتجئ إلى القلاع[5].

---

[1] رواية فارسية تقول أنهم قطَّعوه إرباً إرباً وطبخوه في قدر، من أجل إظهار غضبهم، ص125. انظر آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125. حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص141.

[2] ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص177-184. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص206-207. رشيد الدين: جامع التواريخ، 62/2/2-65. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص99، 100. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص341. المنصوري: مختار الأخبار، ص57-59. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص85. حلواني: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، ص140.

[3] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص464-467. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج3، ص177- 186. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص341. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125.

[4]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 183. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص599.

[5]- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 18 185.

ولما رجع الظاهر بيبرس من معركة الأبلستين دخل دمشق ونزل بالقصر الأبلق، فأصابته الحمى، ثم ما لبث أن توفي يوم الخميس 27من محرم سنة 676هـ/1277م، بعد حكم دام أكثر من سبع عشرة سنة قدم خلالها إنجازات عسكرية وسياسية وإدارية وحضارية[1].

كتم نائب بيبرس ومملوكه بدر الدين بيليك الخازندار خبر موته، ولم يعلن ذلك حتى تأكد من دخول العساكر مصر، فجمع الناس عند القلعة وبايع لمحمد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس ولقَّبه بالسعيد، ولم تشهد مدة حكمه أحداثاً مهمة مع المغول، وبعد سنتين تقريباً اتفق الأمراء على خلع السعيد بركة في ربيع الأول من سنة 678هـ/1279م وهو بالقطيفة ينتظر الجيش الذي أرسله لمهاجمة بلاد سيس مع الأمير سيف الدين قلاوون، وتم نفيه إلى الكرك، وجعلوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش ولم يكن قد تجاوز سبع سنين ولقَّبوه بالعادل، وجُعل الأمير سيف الدين قلاوون الألفي أتابك العسكر وصياً عليه، فاستأثر قلاوون بالسلطة وتخلَّص من المماليك الظاهرية، وعزل بدر الدين سلامش بعد ثلاثة أشهر من تعيينه وحل محله[2].

ولا بد من الإشارة أخيراً _ قبل الانتقال إلى عهد قلاوون _ إلى محاولة الإيلخان أباقا خان استغلال وفاة الظاهر بيبرس سنة 676 هـ / 1277م ومهاجمة بلاد الشام، وقبيل وفاة بيبرس أرسل أباقا رسالة له، قال فيها: ((إن كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام ... وإن امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلا ريب سوف تأتي على ما لكم من أخضر ويابس))، واستطاعت القوات المغولية دخول بعض مناطق بلاد الشام، لكن سرعان ما انسحبت منها[3].

---

(1) تذكر رواية فارسية: ((ارتاح المغول من منافس قوي بوفاته)). أشتياني: تاريخ مغول، ص215.

(2) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص223 وما بعد. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج27، ص423 – 427. اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص142. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص315. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص103. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص227.

(3) الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تح: فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم، العراق، وزارة الثقافة، ج21، ص71.

الفصل السادس
العلاقات المملوكية الإيلخانية في عهدي المنصور قلاوون والأشرف خليل
678 – 693هـ / 1279 – 1293م

أولاً _ المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي 678-689هـ/1279-1290م:

كان من القفجاق، جُلب إلى مصر صغيراً فاشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر العادلي بألف دينار فعُرف بالألفي، ثم صار للملك الصالح نجم الدين أيوب بعد وفاة علاء الدين سنة 647هـ/1249م في عدة من المماليك عُرفوا بالعلائية، وجعله نجم الدين أيوب من جملة المماليك البحرية، ولما تولى المعز أيبك السلطنة وقتل الفارس أقطاي خرج قلاوون من مصر مع من خرج من البحرية [1].

وبعد وفاة الظاهر بيبرس وعزل ولديه السعيد بركة وسلامش، حاول أكثر من أمير أن يقبض على السلطنة حتى انتهى الأمر إلى إقرار تنصيب قلاوون الذي كان أتابكاً للسلطان سلامش وكان ذلك سنة 678هـ/1279م ولقب السلطان قلاوون بالمنصور.

والواقع أن شخصية المنصور قلاوون كانت الأقوى منذ أيام الظاهر بيبرس، لكن يظهر أنه ادعى أنه لم يخلع الملك السعيد طمعاً بالسلطنة بل حفظاً للنظام وللصالح العام، وقام بتمليك الأمير بدر الدين سلامش الابن الأصغر للظاهر بيبرس، ويبدو أن كل هذه الخطوات كانت ليقفز إلى منصب السلطنة، وهذا ما حدث[2].

وفي أيام سلطنة سلامش كان قلاوون يصول ويجول، وعلى حد تعبير النويري: ((كان يدير الأحوال ويفرق الأموال، ويؤسس الممالك ويمهد لنفسه المسالك))[3].

ثانياً _ خروج الأمير سنقر الأشقر في الشام والاستنجاد بمغول فارس:

واجه السلطان المنصور قلاوون مع بداية حكمه بعض المشاكل الداخلية، أخطرها خروج الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق، إذ حاول الانفصال ببلاد الشام عن مصر، وخُطِبَ له على منبر الجامع الأموي، وكاتبه بعض الأمراء الصالحية والظاهرية [1].

---

[1] العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص427. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ، ق3، ص 663 .

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص116 وما بعد. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص657. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص148.

[3] النويري: نهاية الأرب، ج30، ص400.

فما إن تسلم قلاوون زمام الحكم حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام، الذي رأى أنه يساويه فهو زميله بل كان يرى أنه أعظم منه عند الظاهر، وبالتالي هو يستحق السلطنة أيضاً، فلم يبايع، وبدأ يحرض أهل الشام على الخروج عن طاعة المنصور قلاوون، ونجح باستمالة العسكر إلى جانبه، ولقَّب نفسه بالكامل، وأعطى الأوامر بالقبض على الأمراء الذين لهم صلة بقلاوون، كالأمير حسام الدين لاجين نائب قلعة دمشق[2].

ويظهر أن أهل الشام لم يميلوا للأمير سنقر الأشقر، فجهز المنصور قلاوون جيشاً إلى الشام جعل عليه علم الدين سنجر الحلبي – الذي تسلطن من قبل بدمشق عقب وفاة قطز– وبدر الدين بكتاش أمير سلاح وبدر الدين الأيدمري، فانتصروا عليه قرب غزة، فهرب سنقر إلى الرملة، لكن هذه الهزيمة لم تفت بعضده، فقد استمال بعض الأمراء، وأتته النجدات من حمص وحماة وحلب وبعض أمراء العربان (الأمير عيسى بن مهنا، والأمير ابن حجي)، ومع هذا فقد حلَّت به هزيمة أخرى في ظاهر دمشق على يد عساكر السلطان قلاوون بقيادة سنجر الحلبي في 16 صفر 679هـ/1280م بعد أن تخلى عنه العسكر الحموي والحلبي والشامي وانضموا إلى العسكر المصري، ففر إلى الرحبة شمال بلاد الشام، وبعد أن عجز عن أخذها حدث تطور خطير حين راسل سنقر الأشقر وعيسى مهنا أبغا بن هولاكو ملك مغول فارس يطمعانه بتسليم الشام ومصر، ويظهر أن سنقراً كان جاداً في التوسع وفي التحالف مع المغول، إذ سيطر على مناطق عديدة: برزية وبلاطنس والشغر وصهيون وبكاس وعكا وأفاميا وشيزر[3].

تنبَّه قلاوون لذلك فأرسل العساكر مع عز الدين الأفرم لحصار شيزر، في الوقت الذي استجاب أبغا لمراسلة سنقر وعيسى وبدأ بزحفه إلى الشام للانتقام لهزائم المغول في عين جالوت والبيرة والأبلستين، وزاد الطين بلة أنه بعد مدة تآمر بعض الأمراء الظاهرية على السلطان قلاوون واتصلوا

---

[1] ابن حبيب، الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط2، 2010م، ج1، ص52.

[2] – ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص560. ابن عبد الظاهر، محي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، محمد علي النجار، الشركة العربية المتحدة ،الجمهورية العربية المتحدة، ط1، 1961م، ص43 وما بعد.

[3] النويري: نهاية الأرب، ج3، ص17–21. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص57، 58. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص675، 676. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص288. ابن الفوطي، عبد الرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1987م، ص197. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص676.

بالصليبيين سراً، وهذا ما دفعه لإنشاء عصبة من المماليك تُخلص له، فأكثر من شراء المماليك وأنشأ فرقة جديدة منهم وأنزلهم بأبراج القلعة وعُرفوا بالمماليك البرجية، فصاروا نواة للدولة المملوكية الثانية (دولة المماليك الجراكسة) فيما بعد[1].

وكان الخلاف الذي وقع بين المماليك منذ وفاة الظاهر بيبرس حتى ارتقاء المنصور بل حتى استتباب الأمر له فرصة طيبة للمغول الذين كانوا يجاورون الأراضي المملوكية ويتطلعون إلى السيطرة على الشام ومصر منذ أيام هولاكو حين هُزم قائده في معركة عين جالوت، فقام أبغا بإرسال جيش خبير بأحوال الشام[2].

وافترق هذا الجيش إلى ثلاث فرق:

_ فرقة سارت من جهة بلاد الروم (آسيا الصغرى).

_ وفرقة من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاي بن هولاكو وبصحبته صاحب ماردين.

_ وفرقة فيها معظم العسكر و(شرار المغول) مع منكوتمر بن هولاكو.

وأمام هذا الهجوم المغولي الشرس وما أحدثه من خوف في بلاد الشام، لدرجة أن سكانها عزموا على الرحيل إلى مصر، بدأت الاستعدادات، فخرج من القاهرة جيش بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش

---

[1] ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص197، 198. اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص143. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص61. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص328 وما بعد.

[2] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص44. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص681. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص185. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص347. ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، ط3، 1992م، ص288. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص92.

النجمي، وتم الاجتماع في حماه. ثم نزل جيش من صهيون وشيزر وخيمت تحت قلاعها استعداداً لقتال المغول[1].

وتجمعت العساكر الشامية والعساكر المصرية المجردة من قبل لقتال سنقر الأشقر ومعهم والعساكر التي كانت تحاصر قلعة شيزر الخاضعة آنذاك لحكم الأمير سنقر الأشقر، تجمعوا تحت قيادة الأمير ركن الدين إياجي الحاجب[2].

ومع وصول أخبار قدوم المغول، مال سنقر الأشقر إلى الصلح أذ وصلت إليه رسائل التعنيف والتخويف والترهييب والترغيب، عندها خرج السلطان المنصور قلاوون بجيشه من مصر في أواخر جمادى الآخرة[3].

أما المغول فكان منهم الآتي:

_ بدؤوا بهجوم كبير على حلب، وكان ذلك بمشاركة الأرمن، ففي 21 جمادى الآخرة 679هـ/ 1280م، هاجمت قواتهم أعمال حلب فسيطروا على عينتاب وبغراس ودربساك، ثم دخلوا حلب، وقاموا بأعمال التخريب والقتل والتدمير.

انسحب المغول بعد ذلك فجأة في 23 جمادى الآخرة عائدين إلى بلادهم، بعد ما بلغهم من اتفاق كلمة المسلمين واجتماعهم على قتال المغول، وبذلك تكون فرصة استغلال الانقسام قد سقطت وذهب المسوغ لهجومهم، وعندما انسحبوا عاد السلطان من غزة إلى مصر بعد سماعه بانسحابهم[4].

لذلك من الممكن القول أن أعمال المغول هذه لم تكن إلا استكشافية، إذ أسرعوا في العودة إلى قواعدهم في العراق عندما علموا بأن السلطان قلاوون وصل غزة في طريقه إليهم.

---

[1] ابن أيبك: الدرة الزكية، ص238. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص186. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص682.

[2] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص185. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص45.

[3] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص190. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص239.

[4]المقريزي: السلوك، ج1، ص682 وما بعد. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص186. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص45. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص 134. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص92، 93.

ومن جهة أخرى: نبهت هذه الأعمال المنصور قلاوون إلى الخطر الذي يحيق به نتيجة لتحالف أعداءه الثلاثة: المغول والصليبيين والأمير سنقر الأشقر، لذلك أخذ يتبع سياسة جديدة تستهدف التفرقة بين خصومه وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ليتمكن من منازلتهم كل على حدة، وأراد أن ينزل ضربته الأولى بالمغول بعد أن وصلت إليه أنباء حملتهم المقبلة:

_ فعَقد صلحاً بينه وبين سنقر الأشقر في حزيران سنة 680هـ /1281م.

_ وعقد في سنة 680هـ/ أيار 1281م هدنة مع القوى الصليبية الرئيسية في بلاد الشام وهم الداوية والإسبتارية وبوهيمند أمير طرابلس لمدة عشر سنوات[1].

ولا بد من ذكر ما آلت إليه الأمور بين السلطان قلاوون والأمير سنقر الأشقر سبب معظم الأحداث السابقة، إذ أرسل سنقر إلى قلاوون ينشد الصلح، فوافق قلاوون وفق الآتي:

_ يُعين سنقر أميراً على ستمئة فارس إضافة إلى من عنده من الأمراء.

_ يتنازل سنقر الأشقر عن شيزر، ويسلم الشغر وبكاس وأفامية وكفر طاب وأنطاكية، وأن يقيم على الضياع الآتية: صهيون وبلاطنس وبرزية واللاذقية.

_ وطلب سنقر أن يُعطى لقب: ملك، فلم يقبل قلاوون إلا لقب: أمير [2].

_ بعد هذا الصلح هاجم المنصور قلاوون سنة 684هـ/1285م حصن المرقب، وطلب من سنقر المساعدة، فاكتفى هذا بإرسال ابنه فقط، مما أزعج السلطان قلاوون، فصبر عليه حتى سنة 686هـ/ 1287م حين وجه إليه جيشاً بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة، فاضطر سنقر إلى طلب الأمان، فقبل حسام الدين طرنطاي وذلك، وأخذه معه إلى القاهرة، فرضي عليه السلطان ولم يفعل معه شيئاً[3].

ثالثاً _ معركة حمص 680هـ / 1281م:

---

[1] العمري: مسالك الأبصار في ممالك، ج27، ص 429 وما بعد. العريني: المغول، ص298، 299 .

[2] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص21، 22. المقريزي: السلوك، ج1، ص687. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص98. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص94، 95.

[3] النويري: نهاية الأرب، ج3، ص23، 24. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص357.

كان للصراع المغولي المملوكي أسبابه الكثيرة، ولكن أبرزها التنازع على بلاد الشام بسبب الموقع الجغرافي وقربها من البحر المتوسط، وغناها بكل مايجعلها هدفاً عسكرياً وعلمياً وتجارياً وثقافياً وحضارياً، وصار من يسيطر عليها يسيطر على العالم الشرقي تقريباً.

وهو صراع كان له آثاره الزمانية والمكانية، وكانت له آثاره على المنطقة آنذاك .

وتداخل مع ذلك علاقات المغول بالقوى الأخرى غير المماليك من صليبيين وأرمن.

وعلاقاتهم مع المماليك قبل دخول المغول الإسلام ثم بعد اعتناقهم له.

وتأتي معركة حمص ضمن المعطيات السابقة لتقدم رؤية عن العلاقات العسكرية بين الطرفين المملوكي والمغولي ومحاولة تثبيت الأركان في بلاد الشام.

وقد سبقتها _ كما مر في عهد بيبرس _ قبل عشرين عاماً معركة حمص الأولى.

1 – أسباب المعركة:

بقراءة المصادر يتبين لنا ثلاثة أسباب مباشرة قريبة أدت لهذه المعركة المهمة، وهي كالآتي:

1_ تحجج المغول بأن الأمراء الموالين لدولة المماليك اعتدوا عليهم.

2_ خيانة الأمير سنقر الأشقر، الذي كاتب أبغا محرضاً إياه على القدوم إلى الشام واحتلالها.

3_ وذكر رشيد الدين الهمذاني أن سبب هذه المعركة هو مهاجمة أهالي الشام لأراضي الروم التابعة للمغول واستيلائهم على القوافل والمحاصيل[1].

ولا شك أن هذه تعد أسباباً مباشرة وقريبة، إذ تُشكل الأسباب البعيدة غير المباشرة الأسباب الحقيقية لهذه المعركة، والمتمثلة في الصراع على بلاد الشام.

2 – جيش المغول والمسير:

---

[1] الهمذاني: جامع التواريخ، أسرة هولاكو، 82/2.

أرسل المغول سنة 679 هـ / 1280م بداية قوة استطلاعية استطاعت أن تسيطر على عينتاب وبغراس ودربساك وحلب[1].

ثم زحف جيشان مغوليان:

_ الأول: قاده ملك المغول أبغا خان ابن هولاكو (664 – 681هـ / 1266 – 1283م) ومعه ثلاثة آلاف فارس، ويرافقه صاحب ماردين، فأخضع المعاقل الإسلامية على نهر الفرات وسار إلى الرحبة وبقي في نواحيها ورابطوا هناك على شاطئ الفرات ينتظر ما يكون من الملتقى[2].

_ الثاني: قاده أخوه الأصغر منكو تمر بن هولاكو ومعه قوات المغول الرئيسية، وقد اختلفت بعض المصادر في تقدير عددهم، فمنها ما ذكر أنهم كانوا مئة ألف جندي، ومنها ذكر أنهم ثمانين ألف[3].

وهنا اتصل منكو تمر بملك قليقية ليو الثالث، ثم مضى إلى وادي نهر الأوراند بعد أن اجتازه إلى عينتاب وحلب واتجه إلى حماه[4].

3 – جيش المماليك:

عمل قلاوون بداية على إيجاد تلاحم في الجبهة الداخلية عندما ألقى القبض على الأمير كوندك الساقي وجماعته وأمر بإعدام كبيرهم وثلاثة معه هم: أيدغمش الحكيمي، وبيبرس الرشيدي وساطلمش الظاهري، واعتقل بقية المتآمرين في صفد[5].

---

(1) المنصوري: زبدة الفكرة، ص196 – 201. المنصوري: مختار الأخبار، ص72. ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص130.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص91. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص347.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص690–692. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص347. الهمذاني: جامع التواريخ، 83/2.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4 ص93. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص32.

(5) المنصوري: مختار الأخبار، ص88. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125.

كما عمل قلاوون على تأمين الاستخبارات من مصر وغيرها، إذ ذكر كاتبه شافع بن علي أنه عندما توجه السلطان إلى دمشق لملاقاة المغول أقام ابنه عليّاً في السلطنة، وسلَّمه كتاباً فيه جميع التعليمات التي تكفل سلامة الدولة في غيبة السلطان، ومن هذه التعليمات:

_ على المسؤولين عن الحمام الرسائلي لأجل البطاقات ألا يسيِّروا إلا الطيور الجيدة، ومحطتها الأولى غزة، ولا يسمح لأحد بتجاوز هذه المحطة قبل تبديل الطيور.

_ ولا يجوز أيضاً لفرس البريد أن يتعدى المحطات المعينة له، أو يقطع منزلتين معاً، بل يجب تبديل الخيل عند كل محطة.

_ وعلى والي الشرقية ووالي الغربية، حفظ الطريق من جهة غزّة والكرك، بحيث لا يفوتهم الطائر إن طار، وكذلك من تعمّد ترك الطريق السالك وسار في طرق ملتوية، فيجب مراقبته ومعرفة حقيقة أمره.

_ وعلى الخفراء حفظ طريق السويس، وإقامة الخفراء في كل المواقع، واستطلاع الأخبار من جهة الثغور وما يتجدد من جهة البحر من الأمور.

_ ويؤكد على والي الإسكندرية في حفظ فنادق الفرنج، وحفظ مفاتيحها في الليل، وفي وقت صلاة الجمعة، وفي حفظ الأماكن المجاورة لها، وفي حفظ الموانئ. وهذا يعني أنه لم يكن يُسمح للأجانب بالخروج من فنادقهم ليلاً، ولا حتى نهاراً أثناء صلاة الجمعة لخوف السلطان من أن يقوموا بعمل ضار في تلك الساعة.

_ ويؤكد على والي قطيا في حفظها، وقطيا هذه من المحطات المهمة على الطريق الدولي بين القاهرة وفلسطين ودمشق[1].

ثم إن قلاوون عندما توجه نحو دمشق سنة 680هـ / 1281م لملاقاة المغول، وصلته عند منزلة الروحا _ وهي بلد بالساحل من فلسطين قرب عكا _ رسالة سرية من عميل له في عكا يقال له (جوان) جاء فيها: «يا سلطان الإسلام، لقد سيَّر (كوندك) إلى قادة عكا كتاباً مضمونه أنكم أي قادة عكا، لا تسمعوا لقلاوون ولا تطيعوه، فإنا عازمون على قطعه وقتله، فتكونوا معنا، ونحن نرد لكم كل القلاع التي فُتحت، حتى بيت المقدس نفسه، ونرد لكم صليب الصلبوت وكنيسة القيامة، فاحفظوا ما

---

[1] ابن علي: الفضل المأثور، ص118. .ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ترجمة أبو القاسم حالت، ص130.

معكم، وانتظروا نُجح القصيد». فتم كتمان خبر هذا الكتاب، وعند منزلة بيسان تمَّت تصفية كوندك بعدما اعترف بكل ما نُسب إليه[1].

وذكر ابن عبد الظاهر: « في سنة 681 هــ / 1282 م بلغ المنصور قلاوون أن ملك الكرج – جورجيا _ حليف المغول قد ركب من ساحل البحر الأسود بنية الوصول إلى القدس الشريف سراً، وقد علم السلطان قلاوون به قبل أن يتحرك، بواسطة عيونه في جورجيا، فأمر الولاة بحفظ الطرق عليه، ولم يكن يصل إلى مكان حتى يُطالع السلطان بأخباره، وعندما وصل مع صحبه إلى القدس الشريف أُلقي القبض عليهم وأُحضروا إلى القاهرة وأُدخلوا إلى السجن»[2].

وهنا بادر السلطان المملوكي المنصور قلاوون إلى التحرك من القاهرة متوجهاً إلى الشام، ثم دخل دمشق في المحرم من سنة 680هــ / 1281م وهو أول دخوله سلطاناً إليها، واحتفل به أهلها احتفالاً خيالياً، ومنها كاتب الأمراء والحلفاء لإرسال العساكر والاستعداد للمعركة.

فكتب إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بالمسير إلى الرحبة .

وكتب إلى الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر بإرسال من عنده من العساكر إلى دمشق، فدخل الملك المسعود دمشق يقود عساكره بنفسه، وطلب من عرب بني عقبة الحضور إلى دمشق .

وفي يوم السبت 18 جمادى الآخر 680هــ / 1281م وصل إلى دمشق عدد من العربان بقيادة الأمير أحمد بن حجي .

وظهرت حنكته العسكرية لما حالف الصليبيين في عكا وطرابلس لفصلهم عن مغول فارس وتحييدهم[3].

وكان الرأي أن تكون المعركة في مرج الزنبقية قرب دمشق، ثم عُدِّل لأن معظم القوات العسكرية كانت قريبة من حمص، ولذلك قرَّر السلطان التوجه شمالاً نحو حمص وذلك في 3

---

[1] ابن علي: الفضل المأثور، ص123.

[2] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص34.

[3] المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص196 – 201. المنصوري: مختار الأخبار، ص72. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج1، ص515. طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر والشام، بيروت، دار النفائس، ط1، 1997م، ص190– 193.

رجب التي أصبحت مركزاً عاماً لتجمع الجيوش العربية الإسلامية والعربان والمتطوعين، وخرج إليها بجيوشه من دمشق، وعندما وصلها راسل منها سنقر الأشقر بمن عنده من الأمراء واستطاع أن يستتيبه ويستميله إليه[1].

واستطاعت فرقة من كشَّافة المماليك القبض على أحد قادة المغول لما كانوا في عينتاب، كما استطاعوا معرفة ما عليه الجيش المغولي من عدد وعُدة [2].

4 – ترتيب قوات الطرفين المملوكي والمغولي:

بالنسبة للمغول: سلك الجيش المغولي في مسيره إلى بلاد الشام الطريق التقليدي من آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد الشام جنوباً، ويمكن تفسير ذلك بخوفهم من قوة عرب بادية الشام كآل فضل وآل مهنا التابعين للسلطنة المملوكية.

ونزل أبغا أولاً بين قيسارية والأبلستين، ومن هناك سار بفرقة بلغ قوامها ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة، في حين سار أخوه منكوتمر مع بقية الجيش إلى عينتاب ثم إلى أطراف حلب ثم إلى حماه فحمص[3].

أما بالنسبة للمماليك: جمع السلطان الأمراء واستشارهم، فتم الاتفاق على مسرح القتال وهو مرج حمص، وانطلق الجيش المملوكي يترأسه السلطان المنصور قلاوون في جمادى الآخرة 680هـ/

[1] المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص196 – 201. ابن علي، شافع الكاتب: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا، 1998م، ص67 . ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص195 – 225. سليمان، أحمد عبد الكريم: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1984م، ص17.

[2] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص 30–31. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص691.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص690–691. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص125.

تشرين الثاني 1281م على رأس القوات من دمشق إلى حمص، فنزلها في رجب/ كانون الأول، وراسل الأمير سنقر الأشقر فسار سنقر ومن كان معه إلى السلطان[1].

وفي هذا الوقت وصلت معلومات من أحد عساكر المغول المتعاملين سراً مع السلطان، وفيها أن عدد جيش المغول قارب ثمانين ألف مقاتل، ومعلومات عن القلب والميمنة والميسرة[2].

عندها بدأ السلطان المملوكي بتوزيع قواته التي بلغت خمسين ألف مقاتل على النحو الآتي:

_ في المقدمة: الأمراء والعسكر المصري ومقدمهم نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي.

_ في الميمنة: العسكر الشامي وعربان البلاد الشامية، بقيادة الأمير عيسى بن مهنا، ويكون معه الملك المنصور صاحب حماه وعدد من الأمراء.

_ في الميسرة: جزء من العسكر الشامي وعسكر حصن الأكراد والمماليك الظاهرية ممن كانوا مع سنقر الأشقر، والمماليك والأمراء الذين بايعوه من قبل، وكانت هذه الميسرة بقيادة سنقر الأشقر.

أما السلطان فقد وقف تحت السناجق ومعه مماليكه[3].

5 – وقائع المعركة:

حدثت المعركة زمانياً الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس 14 رجب 680هـ /30 تشرين الأول 1281م، وجرت مكانياً بظاهر حمص عند مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن والعاصي[4].

---

[1] ابن أيبك: الدرة الزكية، ج8، ص242. ابن علي: الفضل المأثور، ص71. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص214، العيني: عقد الجمان، ج2، ص271، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص92.

[2] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص692، العيني: عقد الجمان، ج2، ص272، النويري: نهاية الأرب، ج31، ص32.

[3] المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص196 – 202. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص215، 216. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص692، 693. العيني: عقد الجمان، ج2، ص272، 273. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص97.

(4) المنصوري: التحفة الملوكية، ص 100. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، ص297، 298. العريني: المغول، ص300.

بدأت المعركة بهجوم المغول على ميسرة المماليك، إلا أن المماليك ثبتوا، وردوا بصدم ميسرة المغول بقوة شديدة أوصلتهم إلى قلب الجيش الذي كان بإمرة منكوتمر بن هولاكو الذي لم يجد حلاً إلا بالهروب.

ثم ما لبثت أن انكسرت ميسرة المماليك أمام ميمنة المغول.

ونظراً لطول خط المواجهة لم يعلم كل طرف ما حل بصاحبه من نصر وهزيمة، فميسرة المماليك المنهزمة ظنت أن الهزيمة نزلت بالجيش كله، لذا تفرقت في البلاد حتى وصل بعضهم إلى صفد وغزة، وميمنة المغول تطاردهم ظناً بأن النصر كان حليف الجيش المغولي، فنزلوا يرعون خيولهم في مروج حمص، لكن عندما أخبرتهم كشافتهم بحقيقة الأمر ركبوا خيولهم وولوا عائدين إلى أرض المعركة.

لم يبق في هذه الأثناء على أرض المعركة إلا السلطان بجمع قليل من قواته، فالميسرة المملوكية انكسرت وانهزمت، والميمنة تجني ثمرات النصر في مطاردتها للعدو المنهزم أمامها، ولما شقت ميمنة المغول طريقها إلى الشمال مروا على مكان السلطان قلاوون دون أن ينتبهوا، ولم يكادوا ينصرفوا حتى لحق بهم وفاجأهم من الخلف فكانت هزيمة للمغول ما بعدها هزيمة بالإضافة إلى إصابة منكو تمر، فأمر الجيش بالارتداد فتكبَّد جيشه خسائر فادحة في الأرواح وتجاوز المغول نهر الفرات الذي أضحى الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين المغولية والمملوكية[1].

يذكر اليونيني عن هذه المعركة _ وكان وقتذاك في دمشق _: «وصلت إلى دمشق بعد صلاة يوم الجمعة 15 رجب بطاقة من القريتين فيها أخبار الظفر والنصر وانهزام العدو، فضربت البشائر على قلعة دمشق، وزينت القلعة والمدينة، وأوقدت الشموع، فلما كان ليلة السبت 16 رجب بعد منتصف الليل، وصل إلى ظاهر دمشق جماعة كثيرة من جيش المسلمين، منهم جماعة من الأمراء والأعيان، وأخبروا بما شاهدوه من الكسرة، ولم يعلموا ما تجدَّد بعدهم، فحصل لأهل البلد قلق عظيم وخوف شديد، وتجهَّز منهم خلق للفرار، وفتحت بعض أبواب المدينة، فوصل في تلك الساعة بريدي من جهة السلطان يخبر بالنصر وذلك عند أذان الفجر، فقرئ كتابه في الجامع، فطابت قلوب الناس، ثم

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص93. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص44، 45 . المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص98، 99. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص18، 19. العريني: المغول، ص300، 301.

جاء بريدي آخر مؤكداً أخبار النصر، فتكامل السرور وتمَّ الأمن وفرح الناس، وفي الكتاب أن المغول كانوا أزيد من 100000، وأن الذين استشهدوا من المسلمين كانوا دون المائتين»[1].

انتهت المعركة مع حلول المساء، وجرح منكوتمر، وقُتل جمع غفير من المغول، وقُتل منهم أثناء الهزيمة أكثر مما قُتل أثناء المعركة:

_ فالبيرة أغلقت المعابر والمخائض على الفرات، فغرق معظم عسكرهم أثناء العبور من معابر ثانية.

_ ولما اختبأ بعضهم في أزوار الفرات، أمر السلطان بحرقها، فهلك أكثرهم حرقاً.

_ سلكت فرقة طريق سلمية، فكان مصيرها الهلاك[2].

_ الملك الأرمني الذي شارك مع المغول ضد المماليك في هذه المعركة، كان من المطاردين للميسرة المملوكية، وفي أثناء عودته إلى بلاده تعرض لكمين من قبل الأمير شجاع الدين السناني، قُتلت فيه معظم قواته وأُسر ما تبقى منهم، ولم يفلت إلا عدد قُدِّر بأقل من عشرين[3].

أحزنت هذه الأخبار أبغا الذي وصله خبر هذه الهزيمة وهو على الرحبة يحاصرها، فرحل عنها منهزماً حتى وصل إلى بغداد ومنها إلى همذان، وصبَّ غضبه على أخيه منكو تمر، وتوفي إثر هذه المعركة سنة 681هـ/ 1280م كما مات بعده بقليل منكو تمر مقهوراً من هذه الهزيمة[4].

عاد السلطان إلى دمشق ودخلها في يوم الجمعة 22 رجب 680هـ / 1282م منهياً بذلك أعماله العسكرية ضد المغول، وأقام في دمشق عشرة أيام يصرف أمورها، ثم غادرها يوم الأحد ثاني شعبان

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص95.

[2] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص34- 36. العيني: عقد الجمان، ج2، ص275-280. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص93، 94. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص347، 348. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص 243، 244.

[3] ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص221، 222. المقريزي: السلوك، ج1، ص698. أشتياني: تاريخ مغول، ص215.

[4] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، ج4، ص178. .ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ترجمة أبو القاسم حالت، ص130. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص305.

سنة 680هـ / 1281م، ووصل القاهرة يوم 22 شعبان من نفس العام، ودخلها وسط احتفالات كبيرة لم يسبق لها مثيل[1].

6 – رؤية المصادر الأخرى عن هذه المعركة:

تحدث البحث قبل قليل عن معركة حمص بالاعتماد على المصادر العربية الإسلامية، وبالعودة إلى بعض المصادر الفارسية نجد أنها توافقت مع المصادر العربية في كثير من التفاصيل والنتائج[2].

ولو أخذنا مثالاً من المصادر الأرمنية فسنجد كتاب (خلاصة تواريخ الشرق) للراهب هيثوم، وهو حفيد الملك هيثوم الأول، يعترف بالنصر المملوكي وهزيمة الجيوش المغولية والأرمنية[3].

ومثالنا عن المصادر الصليبية كتاب (أعمال القبارصة) للفارس الداوي الصوري الذي عبَّر عن الانطباع العام للصليبيين عن معركة حمص، وهو مشابه لما ورد في المصادر العربية الإسلامية، ويتفق معها في أن ملك أرمينية الصغرى تعرض أثناء عودته لبلاده إلى كمين، لم يفلت منه إلا ثلاثون فقط من رجاله[4].

ونأتي إلى وثيقة صليبية؛ فهناك رسالة محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية في بريطانية، ضمن مجموعة تعرف باسم (الرسائل الملكية)، والرسالة تحت عنوان: (أخباراً من سورية).

وتلفت هذه الوثيقة الصليبية النظر إذ تشير أن السلطان لم يحقق نصراً حقيقياً، وإنما جاء نصره

---

[1] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص97. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص348. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص44، 45 . العيني: عقد الجمان، ج2، ص283. العريني: المغول، ص300، 301.

[2] الهمذاني: جامع التواريخ، 2/83-84.

[3] دي كانسي، جوزيف: أخباراً من سورية، تر: سهيل زكار، رسالة منشورة ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم يُنشر بعد، ص22-23. نقلاً عن المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص104.

[4] الداوي: أعمال القبارصة، ص98.

بالمصادفة[1].

هذه الوثيقة هي رسالة من شخص اسمه (جوزيف دي كانسي) أحد فرسان الإسبتارية المقيمين في عكا، كان معاصراً للمعركة، وربما كان شاهداً عليها، أرسلها إلى إدوارد الأول ملك انكلترا، ويتبين من نص الرسالة أن الملك عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات حول الأحداث التي تجري في الأراضي المقدسة، وفي هذه الرسالة شيء من التعاطف مع المغول، لا محبة بهم، بل كراهية بالمماليك الذين أذاقوا الإسبتارية مرارة الهزيمة مرات عدة.

تبين من خلال دراسة نص الرسالة أنه لم يكن هناك أية مشكلة عند الصليبيين في تقديم المساعدة أو الاشتراك في المعركة إلى جانب المغول، لو أن المغول طلبوا منهم ذلك، أي لم يكن للهدنة التي عقدها السلطان معهم قبل أشهر أي قيمة، وكانت المشاركة الأرمنية والجورجية واضحة، فالرسالة تجعل لشجاعة ملك أرمينيا واستبساله الفضل الأكبر في كسرة ميسرة المسلمين وهزيمتها، بل ومطاردتها مع ملك جورجيا، وهذا ما لا تنكره المصادر الإسلامية، لكنها كلها تجمع على أن ميسرة التتار تلقت هزيمة منكرة من قبل ميمنة المماليك، وأن هذه الكسرة قصمت ظهر المغول وحسمت المعركة لصالح المسلمين، أما دي كانسي صاحب هذه الرسالة فإنه يقول العكس وبأن ميمنة المسلمين تعرضت هي الأخرى لهزيمة، ولكنها لم تكن بالدرجة نفسها التي كانت عليها هزيمة الميسرة، وذلك بفضل شجاعة السلطان وصموده[2].

وحسب ما أورده، لم يتمكن أحد من الطرفين من حسم المعركة لصالحه، وحصد نتائجها، فبعد الضربة التي تلقاها الجيش الإسلامي بدأ المغول بجمع الأسلاب والغنائم، ولم يبق حول السلطان سوى ستمئة مقاتل ساق بهم نحو الغبار الذي أحدثه المغول من جمع الغنائم، ظناً أن هذا الغبار كان سببه تراجع المغول، وهناك تواجه مع منكوتمر الذي كان في ستين من رجاله، إذ كان قسم من جيشه يلاحق المسلمين، والآخر مشغول بجمع الغنائم، فعرفه السلطان من خلال شاراته، وظن أن هذا كمين، أما منكوتمر فإنه تراجع بعد أن أدرك ضعف إمكاناته أمام إمكانات السلطان المملوكي، وعزز تراجعه

---

[1] قام مؤخراً الدكتور سهيل زكار بترجمتها ونشرها ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم ينشر بعد، ص 20 وما بعدها. المحمد: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، ص101.

[2] دي كانسي: أخباراً من سورية، ص 23–24. المحمد: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، ص102.

هذا شكوك السلطان بأنه كمين، وأنه عاد لحث بقية الجيش على التقدم، فعاد السلطان مسرعاً، وفرَّق الليل بينهما، وعلى هذا يقرر دي كانسي أن المعركة لم تحسم لأي طرف.

وبالنسبة للملك الأرمني الذي كان يطارد ميسرة المماليك؛ فيذكر دي كانسي أنه بعد عودته لساحة المعركة لم يجد أحداً فعاد إلى بلاده، ولم يذكر تعرضه لكمين كما تذكر المصادر الإسلامية، غير أنه يقول: إن تعبه وهلاك بعض جنوده كان بسبب مشقة الطريق القاحلة[1].

وهكذا نجد أن كثيراً مما جاء في هذه الوثيقة مخالف لما ورد في المصادر العربية الإسلامية والمغولية والأرمنية والصليبية المعاصرة على حد سواء.

7 – نتائج المعركة:

يمكن القول أن نتائج هذه المعركة كانت كبيرة ومؤثرة وخاصة على المدى البعيد، وهي كالآتي:

_ تعد معركة حمص إحدى المعارك الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى ومصيره، إذ لو انعكست نتيجة المعركة لوقعت مصر في أيدي المغول[2]. ويقول المقريزي عن طرفي هذه المعركة: «لم يعتدوا منذ عشرين سنة مثل هذه العدة، ولا جمعوا مثل جمعهم هذا»[3].

_ كانت هذه المحاولة المغولية لغزو الدولة المملوكية الأخيرة من نوعها، إذ انتهى الأمر بين دولتي المماليك والمغول إلى هدنة لسبعة عشر عاماً، ولم يمض عام على عقد الهدنة حتى تولى عرش المغول في فارس تكودار خان الذي اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد تكودار، فاتبع سياسة المهادنة مع العالم الإسلامي[4]، بل أرسل إلى المنصور قلاوون يعلن له رغبته في حماية الإسلام والذود عنه، وأظهر رغبته في السلام وعلاقات الود والصداقة، فرد السلطان المنصور قلاوون بالموافقة[5].

---

[1] دي كانسي: أخباراً من سورية، ص 27–28. المحمد: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، ص103.

[2] المنصوري: زبدة الفكرة، ج9، ص196 – 201. المنصوري: مختار الأخبار، ص72. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج7، ص195 – 225. طقوش: تاريخ المماليك، ص190– 193.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ص693.

[4] سيأتي الحديث عن هذه السياسة بعد أسطر.

[5] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص93. ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص44، 45 . سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص18، 19. عاشور، فايد محمد: الجهاد

تولى أحمد تكودار السلطة عام 681 هـ / 1282م، ولم يكن كسابقيه في الميل للتحالف مع الغرب ضد المماليك، فلم يلبث بعد توليه الحكم أن أعلن إسلامه، رغم أنه كان مسيحياً منذ طفولته، وأنه سبق أن عُمد باسم نقولا، وأرسل رسله إلى بغداد وسلطان مصر المملوكي، يخبرهم بإسلامه ويعرض عليهم التحالف وإنهاء العداء التقليدي بين المغول والمسلمين، ولكنه لم يبق في الحكم سوى ست سنـوات حين ثار عليه قادة المغول وقتلوه لأنه حاول نشر الإسلام بينهم[1].

_ تتمثل أهم نتائج معركة حمص على الإطلاق في إسكات جبهة المغول مدة من الزمن قضوها في استرداد قوتهم، ناهيك عن المشاكل التي أحدثها إعلان الخان الجديد أحمد تكودار (681 – 683هـ / 1283 – 1284م) عن إسلامه، هذا ما أعطى السلطان قلاوون فرصة ذهبية للعمل بحرية تامة ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام، وضد الأرمن في كيليكية، فكان تحرير طرابلس سنة 688هـ /1289م ثمرة هذه الأعمال، فلم يبق للصليبيين في ساحل الشام سوى عكا التي تولى فتحها ابنه الأشرف خليل (689– 693هـ/1290–1293م) سنة690هـ/1291م، لتطوى بذلك صفحة الوجود الصليبي في بلاد الشام[2].

_ أعقب معركة حمص فتور على جبهة المغول، فلم يقع صدام يستحق الذكر بين المماليك والمغول في عهد السلطان قلاوون، وفي عهد ابنه الأشرف خليل، وجل ما قام به المغول للانتقام لما حل بهم في حمص هي مجموعة من السفارات تم إرسالها إلى الغرب الأوروبي والبابوية أملاً في عقد تحالف عسكري ضد المماليك[3].

وهذه كله يُظهر الأهمية الاستراتيجية الكبيرة للنصر المملوكي في هذه المعركة، والتغيرات الجذرية التي حدثت بعدها.

الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1995م، ص 305-306.

[1] آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص127. اليوسف، عبد القادر: علاقات بين الشرق والغرب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص223. أشتياني: تاريخ مغول، ص225.

[2] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص714، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص3، 4. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص102، 103.

[3] هلال، عادل: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، 1997م، ص 118 وما بعد. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص103.

_ حاول أحمد تكودار أن لا يدخل في صراع مع المماليك، وقد أرسل سفارتين للسلطان قلاوون الأولى في 681هـ / 1282 والثانية في نهاية 683هـ / 1284م[1].

ففي عام 681هـ / 1282 _ أي بعد وقت قصير من توليه _ أرسلت تكودار قطب الدين محمود الشيرازي، والقاضي سيفاس وغيرهما على رأس سفارة سرية إلى قلاوون، حتى عندما مكثوا عنده مكثوا في مكان لم يُعلن عنه، وقد أخبر أصحاب الوفد قلاوون برغبة تكودار بالانفتاح على المماليك واتباع سياسة سلمية بين الطرفين، لدرجة أن البعض وصف ذلك بأنه ((تغيير شامل في السياسة الخارجية)) [2].

بينما قرأ آخرون بأن هذه السفارة لم تكن سوى تهديد من أحمد تكودار للمماليك، وعرض الخضوع والطاعة عليهم أو الحرب، واستدلوا على ذلك من خلال ورود آية بشكل متكرر في رسالة تكودار، وحي ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)).

ردَّ قلاوون على هذا الوفد، وظهر في رسالته التوبيخ للدولة الإيلخانية.

ونأتي إلى رسالة تكودار الثانية لقلاوون (ربيع الأول 682 هـ / 1283)، إذ أرسل رسالة مع وفد رفيع المستوى برئاسة الشيخ عبد الرحمن مرشده الديني[3].

---

[1] بيَّن المؤرخ اليونيني أن سبب السياسة السلمية التي اتبعها تكودار تجاه دولة المماليك هو ضعف الجيش الإيلخاني ومقتل كثير من رجاله في المعارك. انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، 213. وانظر بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص413 وما بعد.

[2]وضَّح أحمد تكودار في هذه الرسالة للسلطان قلاوون حبه للإسلام وإيمانه بالله تعالى وشهادته بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإيمانه بالأولياء الصالحين. انظر روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص21.

[3] المنصوري: زبدة الفكرة، ص218 – 222. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص707 وما بعد. عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، ص183. وفي رواية فارسية: ((استمر السلطان أحمد تكو دار في إرسال الرسائل للتأكيد على الصداقة وإرسال المندوبين والممثلين عنهم لإبراز حسن النوايا إلى سلطان المماليك، وكان أحد المرسلين باسم الشيخ عبد الرحمن برفقة أكثر من مئة نفر من ضمنهم صمد آغا والأمير شمس الدين محمد وزين الدين والي ماردين)). انظر روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص22.

تتميز هذه الرسالة عن سابقتها بما يأتي:

_ فيها تشديد على الوحدة والاتفاق بين جميع أمراء المغول في دعمهم لسياسة أحمد تكودار فيما يتعلق بالعلاقة مع المماليك.

_ أُغفلت كلمة (تقديم الطاعة) في هذه الرسالة.

_ فضّل تكودار تسوية عن طريق التفاوض.

_ تأخر هذا الوفد عند المماليك مدة ستة أشهر، توفي خلالها أحمد تكودار.

والخلاصة أن عهد حكم أحمد تكودار قد شهد تغيراً في الأسلوب فقط فيما يتعلق بالعلاقات مع المماليك، ولم يكن تغيراً بالجوهر[1].

ومع ذلك فإن مدة حكمه القصيرة جداً لم تسمح له بإقامة علاقات مع الغرب أو مراسلتهم، وربما ردعه عن ذلك اعتناقه الإسلام كما يرى المؤرخ الغربي جون أندرو[2].

لذلك فإن أحمد تكودار غيَّر في السياسة الداخلية في بلاده أكثر من توجهه نحو السياسة الخارجية، ومن ذلك:

_ أصبح شرب الخمر ممنوعاً.

_ بالنسبة إلى تجهيز قوافل الحج صدرت أحكام وتعينت مقادير من الأموال لمكة ولبيت الله الحرام من أجل أن ترسل كل سنة من طريق بغداد إلى مكة ولتأمين مصاريف الحج والحجاج. وهذا الأمر كان من شأنه أن يقوي النفوذ الإيراني في شبه جزيرة العرب، وهذه القضية بذاتها كانت دقيقة وحساسة ومثيرة للمنافسات بين الدول الإسلامية.

_ صدرت أوامر إلى أنحاء البلاد المختلفة تقضي بتبديل معابد الأصنام والصوامع إلى مساجد.

---

(1) Adel Allouche; Teguder's Ultimatum to Qalawun, International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press, Vol. 22, No. 4 (Nov., 1990), pp. 437-446

أشتياني: تاريخ مغول، ص225.

(2) Andre; The mongol world empire 1206 – 1370, p.559.

_ تم إرسال المسؤولين من الرتب العالية إلى كل المدن من أجل التواصل والتعاطف مع المشايخ ورجال الدين لإظهار الاهتمام بالمؤسسات الدينية وأمور الأوقاف.

_ تم إصدار أمر بخصوص بغداد لإظهار الشعائر الدينية ورفع أصوات الأذان من كل المنارات، وبناء مساجد جديدة في هذه المدينة.

_ تم إصدار أمر يقضي بوجوب احترام القضاة.

_ تم إصدار أمر يقضي بحذف أسماء المنجمين والأطباء غير المسلمين الذين كانوا يتقاضون حقوقاً مالية[1].

_ تُظهر هذه المعركة ذلك التعاطف والتحالف المغولي الصليبي، مثال ذلك ما ذكره المؤرخ شافع بن علي، إذ يقول: ((أثناء المعركة وقعت بطاقة في الجيش الإسلامي على جناح طائر مضمونها: إنه وصل الخبر من داخل طرابلس أن التتار سيَّروا جمعاً كبيراً منهم إلى طرابلس ليكونوا من وراء جيش المماليك، ثم تبين أن جماعة من الفرنجة في حصن طرابلس لبسوا لباس التتار وخرجوا ليوهموا الناس أن التتار وصلوا إلى طرابلس))[2].

_ ظهر في هذه المعركة أثر (الاستخبارات) المملوكية، إذ وصلت إلى السلطان المنصور قبيل المعركة أخبار من مجهول على جناح الطائر، خلاصتها أن المغول قد علموا بأمر الخزينة السلطانية التي مع الجيش، وأنها محملة على مائة بغل، وعلى كل بغل صندوقان في كل واحد 5000 دينار ذهب عيناً، وأن التتار قرروا الاستيلاء عليها، فعمد السلطان مباشرة إلى تفريغ الأموال في أكياس ووزعها على الأمراء وكتب أسماءهم[3].

رابعاً _ تحركات قلاوون بعد معركة حمص:

تدل تحركات قلاوون بعد معركة حمص على عبقرية كبيرة وفهم لمسرح الأحداث وإدراك للمتغيرات على الساحة، وأبرز ما عمل عليه هو استغلال هذه الظروف لإنهاء الوجود الصليبي في

---

[1] بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص413.

[2] ابن علي: الفضل المأثور، ص73.

[3] ابن علي: الفضل المأثور، ص74.

بلاد الشام، إذ أدرك انشغال المغول خارجياً بقضية التحالف الأوربي، وداخلياً بالثورات كثورة نوروز بن أراغون آقا في خراسان ضد أراغون[1].

وتبرز هذه العبقرية أو الاستراتيجية في النقاط الآتية:

1_ مر قبل أسطر كيف اشترك أرمن كيليكية في معركة حمص ضد المماليك، فاستغل قلاوون الظروف الآنية وهاجم في صفر سنة 682هـ/1283م الحدود الجنوبية لأرمينية الصغرى، ووصلت جيوشه إلى أبواب الاسكندرونة (الحدود الجنوبية لأرمينيا الصغرى) وانتقم منهم شر انتقام عقاباً على ما فعلوه ببلاد الشام إبان الغزو المغولي لها سنتي 679-680هـ/1280-1281م، ولهذا فإن ملكها ليون الثالث أرسل سفرائه لطلب الهدنة من المماليك، ولكن المنصور قلاوون سجن السفراء ولم يفرج عنهم إلا بعد تدخل مقدم الداوية في عكا وقبول ليون الثالث لمعاهدة مع المماليك من شروطها أن يدفع جزية سنوية للسلطان المملوكي وإطلاق حرية التجارة في بلاده وألا يعتدي أو يساعد أحداً ضدهم على المسلمين[2].

2 _ أجبر الأرمن في سنة 684هـ/ 1285م على توقيع هدنة تضمنت:

- يطلق الأرمن أسرى المسلمين عندهم.
- التزام الأرمن بعدم القيام بأية تحصينات عسكرية.
- يدفع الأرمن جزية سنوية لدولة المماليك مقدارها مليون درهم.
- إطلاق حرية التجار المسلمين في بلادهم.
- مدة الهدنة عشر سنوات[3] .

3 _ أشعر الصليبيين بقوته وخطره لإجبارهم على التنازل عن الحصون، فمثلاً هاجم الإسبتارية في حصن المرقب، لأن أهل المرقب فعلوا الأفاعيل مع عسكره في السنين الماضية، وهنا لم يتدخل

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، 149/2/2 - 156.

[2] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 30-50. هلال: العلاقات بين المغول وأوربة،ص120.

[3]ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص92-93.

أحد من إخوانهم الصليبيين لنجدتهم، فاضطر رسل الإسبتار أن يسألوا السلطان المنصور الصلح، فلم يقبل، وفي ربيع الأول سنة 684هـ/1285م، استولى على الحصن بنجاح.

كما جهَّز السلطان المنصور جيشاً كبيراً مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي باتجاه قلعة صهيون واستطاع السيطرة عليها سنة 686هـ/1287م[1].

وأدى ذلك إلى ما يأتي:

_ بادر صاحب طرابلس بتسليم حصن مرقية للسلطان المنصور على الساحل، وبذلك حصل الاستيلاء في هذه الغزوة على المرقب وأعماله ومرقية.

– اضطر حاكم طرابلس الصليبي للتنازل عن حصن مرقية تفادياً لخطر المماليك رغم حصانة موقعه.

كما لجأت مرجريت صاحبة صور إلى التماس الصلح من السلطان المنصور، فعُقدت معاهدة مدتها عشر سنوات مقابل تقديم نصف دخل صور، وعدم تجديد حصون المدينة.

4 _ عزز العلاقات سنة 680هـ/1281م مع تدان منكو خان القبيلة الذهبية كي يقطع أي محاولة تحالف أوربي صليبي.

5_ يبدو أنه رغم تغير حكام دولة مغول القفجاق وسلطنة المماليك، فإن ذلك لم يغير من رغبة كل من يتولى الحكم في أي من البلدين في ترسيخ العلاقات مع الدولة الأخرى، حسب المنهج الذي درج عليه الأسلاف، ويشير ابن عبد الظاهر إلى قدوم سفارة قفجاقية سنة 682هـ / 1283م إلى المنصور قلاوون، تنقل إليه عزم الملك الجديد تدان منكو أو تنامنكو على توطيد العلاقات مع سلطنة المماليك، وتسأل مباركة خليفة المسلمين لجهود تنامنكو في محاربة أعداء الإسلام، أو بعبارة أدق مغول فارس.

وهكذا استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين. ونجد أن من أهم أسباب دعم هذه الروابط الوثيقة عاملين:

---

[1]– اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج4، ص240. – أبو الفداء : تاريخ مختصر الدول، ج7، ص27، 28. العمري: مسالك الأبصار، ج27، ص444.

الأول: اعتناق ملوك مغول القفجاق الإسلام، وتفانيهم في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والتقرب من خليفة المسلمين في مصر.

الثاني: ويتعلق برغبة كل من الدولتين في القضاء على بيت هولاكو حكام مغول فارس.

ومن جانب آخر كان العداء مستفحلاً بين بيت بركة حكام دولة مغول القفجاق وبيت هولاكو حكام مغول فارس، وفي الوقت نفسه كان بيت هولاكو يطمع في السيطرة على الشام ومصر، بعد أن تم له الاستيلاء على العراق.

وقد أدت هذه الظروف إلى تفاقم مشاعر العداء بين مغول فارس وسلطنة المماليك، الأمر الذي أدى من ناحية أخرى إلى تقارب سلاطين المماليك وملوك دولة مغول القفجاق.

إذن، كان لكل من العامل الديني والعامل السياسي دور كبير في توثيق العلاقات بين دولتي المماليك ومغول القفجاق، وكانت السفارات تنتقل بين البلاطين المملوكي والقفجاقي تحمل الرسائل الودية والهدايا السنية.

إضافة إلى ذلك كان سلاطين المماليك حريصين على مد دولة مغول القفجاق بالمساعدات المادية لبناء المساجد، ودعم صرح الدين الإسلامي في تلك البلاد[1].

6_ تبادل الهدايا مع بعض الممالك المسيحية في إسبانيا، فأرسل صاحب قشتالة سنة 681هـ /1281م رسولين إلى السلطان المنصور قلاوون فأحسن السلطان استقباله، وكانت إمارة أراغون من بين الإمارات المسيحية التي ارتبطت مع مصر بعلاقات المودة والصداقة، فحرص جيمس الثاني ملك أراغون على إقامة صداقة قوية مع السلطان المنصور من أجل رعاية شؤون المسيحيين في الشرق.

7_ كما حرص السلاطين المماليك في مصر على تنشيط تجارة مصر، فأقاموا علاقات ممتازة مع الجمهوريات الإيطالية (البندقية – جنوا – بيزا) وأصبح لهم قناصل في الإسكندرية ودمياط

(1) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص14، 15.

والرشيد، كما عقدت معاهدات صداقة بين المنصور وفيليب الرابع ملك فرنسا وجيمس ملك صقلية والإمبراطور رودولف إمبراطور النمسا[1].

8 _ انتهز المنصور قلاوون فرصة انشغال الأساطيل الإيطالية بالحروب فيما بينها، وجرد حملة بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي اتجهت من صهيون إلى اللاذقية، فاستولى على المدينة في نيسان سنة 686هـ / 1287م.

9 _ خطَّط لتحرير طرابلس مستغلاً:

_ استغل الاضطرابات والانقسامات التي حصلت فيها.

_ غضبه من طرابلس منذ أن قام ملكها بوهيمند السادس سنة 659هـ/ 1260 م بالتحالف مع مغول فارس ونقض الفرنج للصلح مع المماليك وإغارتهم على البلاد.

هنا جمع المنصور قلاوون الجيش في مصر والشام وسار إلى طرابلس في محرم سنة 688هـ /1289م وحاصرها، وحاول أهلها الاستنجاد بملك قبرص هنري دون جدوى، وتم فتحها عنوة في أول ربيع الآخر بعد حصارها لأربعة وثلاثين يوماً، وقد كان لسقوط طرابلس أثر على الصليبيين فقد أخلوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس مثل بيروت وجبلة وجبيل ولم يبق لهم سوى عاصمتهم عكا ومدينة صيدا وصور وعثليث[2].

وكانت هذه الانتصارات سبباً في أن يكتب إمبراطور الروم ميخائيل الثامن رسالة إلى السلطان المنصور قلاوون يعرض فيها مودته، فردَّ عليه المنصور بإرسال الهدايا.

10- استطاع في ربيع الآخر 688هـ/1289م تحرير طرابلس عندما قام أهلها بنقض الهدنة والقبض على مجموعة التجار المسلمين.

11- سيطر على جبلة وبيروت، ومجموعة مهمة من القلاع.

---

[1] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص45 - 52. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص708-711، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج7، ص277، الحجي، حياة: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، الحولية الثانية من حوليات مجلة كلية الآداب بالكويت، 1981م، ص14.

[2] المنصوري : التحفة الملوكية، ص117 -120. عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص 106، 107 .

12 _ وقَّع اتفاقيات تجارية مع القوى الأوروبية، فعقد سنة 689هـ/1289م اتفاقية تجارية مع ملك أراغون ليورد له الخشب إلى مصر، بعد أن منعت البابوية ذلك لكي لا تسمح للمماليك بصناعة السفن، وفي سنة 690هـ/1290م عقد معاهدة تجاريه مع الجنوية الذين كان لهم النفوذ الأقوى في طرابلس، ناهيك عن رسائل ووفود كل من ملك فرنسا وقشتاله وصقلية[1].

خامساً _ **وفاة السلطان المنصور قلاوون:**

قدمت بعض الجموع الصليبية من إيطاليا إلى عكا سنة 689هـ/1290م واعتدوا على الناس خارج أسوارها، مخالفين بذلك الهدنة، فبلغ ذلك المنصور قلاوون ورأى دماء الضحايا، فأقسم أن ينتقم من الصليبيين، فخرج في السادس من ذي القعدة سنة 689هـ/1290م على رأس جيش ضخم وفي نيته تحرير عكا، وفي الطريق أصابه المرض، ثم توفي في نفس اليوم السبت السادس من ذي القعدة سنة 689هـ/20 تشرين الثاني1290م، عن عمره ناهز السبعين سنة، بعد حكم دام إحدى عشر سنة وثلاثة أشهر، تاركاً لابنه الأشرف خليل مهمة تحرير عكا[2].

سادساً _ الملك الأشرف خليل ابن المنصور قلاوون (689-693هـ/1290-1293م):

قلَّت الأحداث المتعلقة بالصراع المملوكي الإيلخاني في عهد الأشرف خليل، لذلك لم يشهد هذا العهد معركة كبرى كتلك التي حدثت من قبل.

1_ توليه السلطنة المملوكية:

توفي السلطان المنصور قلاوون أثناء استعداده للمسير لتحرير عكا، واعتلى عرش السلطنة من بعده ابنه الأشرف خليل، وكان المنصور قلاوون قد جعل خليلاً سلطاناً في حياته بعد موت أخيه الملك

---

[1] ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 156-169. Land Pooles(s):A History Of Egypt in the Middle Ages، London، 1925، P.281 .

[2] – المنصوري: التحفة الملوكية، ص122. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح إيمان شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2002م، ص29. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص353، 354. عاشور: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ص307 .

الصالح علي بن قلاوون سنة 687 هـ/1288م، فتسلطن يوم وفاة أبيه في يوم الأحد 7 ذي القعدة سنة 689 هـ /1290م، وكان عمره في حدود الثالثة والعشرين عندما جدد له العسكر اليمين[1].

2_ الإيلخان أرغون والتحالف مع الغرب:

كان أرغون من المتعصبين للديانة البوذية، ولكنه لم يعمل على تقوية دولته مالياً، وأطلق يد سعد الدولة اليهودي. وقام بتقليد الصين في إصدار عملة، وحصل على إثر ذلك لقب (شاو الصيني) ولكنه لم يفلح لقلة تجربته في هذا المجال[2].

كان أبناء ملوك المغول والقادة المغول يتوجسون خوفاً من خلق العلاقات مع مصر، فلذلك ثاروا على أحمد تكودار وأزاحوه عن العرش، واستلم أرغون البوذي مكانه، وكان على عداوة مشهورة مع الإسلام[3].

وقد تولى أرغون السلطة بعد أحمد تكوادر[4] سنة **(683-690هـ/1284-1291م)** عن طريق الجيش، فقرَّب المسيحيين، وأبعد المسلمين عن بلاطه وعن المراكز الهامة في الدولة، بل أعلن بتأثير من وزيره اليهودي سعد الدولة أنه سيعمل على جعل مكة معبداً وثنياً.

واتصل بالملك إدوارد الأول ملك إنجلترا مقترحاً عليه شن هجوم مشـــترك على الشرق، ولكن الملك الإنجليزي اعتذر إليه بانشغاله بالحروب الاسكتلندية[5].

---

[1] المقريزي: السلوك ، ج1 ، ق3 ، ص755 – 756 . العلبي، أكرم: الملك الأشرف خليل بن قلاوون فاتح عكا ومحرر بلاد الشام من الصليبيين، دار المأمون، دمشق، بيروت، ط1، 1987 م، ص10 . اليافعي: مرآة الجنان،ج4، ص157. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص31 .

[2]آزند: إيلخانان، ص18، 19.

[3]روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص24.

[4]أثار إسلام أحمد تكودار البلاط المغولي، ووجدوا في ذلك خروجاً عن نظمهم وأعرافهم القبلية، في ظل طغيان الشامانية والبوذية على معظم العناصر المغولية، فتحالفوا مع أرغون بن أباقا، وقتلوه. انظر إقبال: تاريخ إيران، ص450. المنصوري: زبدة الفكرة، ص226. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص70.

[5]مصطفى بدر: مغول إيران، ص12، 13. بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص421 – 425.

ويظهر _ من خلال قراءة المصادر والمراجع _ إصرار أرغون على التحالف مع الغرب[1]، فمنذ سنة 684 هـ / 1285م بدأ بمراسلتهم، فأرسل سفارة إلى البابا هونوريوس الرابع عارضاً عليه التعاون العسكري ضد دولة المماليك[2].

وفي سنة 686 هـ / 1287م أرسل سفارة برئاسة الراهب رابان سوما _ أحد كبار رجال الكنيسة في آسيا _ إلى البابا هونوريوس الرابع وإلى ملكي إنجلترة وفرنسا، ومع وصولهم توفي البابا هونوريوس الرابع، فاطلع البابا الجديد نيقولا الرابع على رسالة أرغون، ووافق على التعاون ضد المماليك واستعادة القدس منهم، وتقديم ثلاثين ألف فارس في حملة مشتركة ضد دولة المماليك كان من المقرر أن تكون سنة 689 هـ / 1290م، وأكد على ضرورة اعتناق أرغون للمسيحية[3].

ويؤكد المؤرخ الغربي بيرتولد سبولار أن تعاوناً حدث كنتيجة لهذه السفارة، تجلى بإرسال الغرب لمئات الجنود إلى بغداد للقيام بالهجوم المشترك المتفق عليه[4].

بينما أكد المؤرخ الغربي الآخر جون أندرو أن أرغون وعد الغرب الأوروبي بتوفير المؤن والخيول، وضمن لهم المساعدة من أرمينية وجورجيا[5].

Howorth; history of mangols, p. 260-286.

(1) ((لقد قام بعقد المعاهدات مع المسيحيين في الغرب، وفتح باب الزيارات مع ملوك أوروبا وبابا الفاتيكان حتى يستطيع الشماتة بمماليك مصر والشام، ولكن مساعيه لم تجلب مساعدات الأوروبيين له)). انظر روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص24. وانظر أشتياني: تاريخ مغول، ص244، 245.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية م3، ص673. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص38، 39.

Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, p. 558.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص673 – 679. هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص122 – 128.

Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, p. 559.

(4)

Spuler, Bertold; history of mangols, London, 1972, p. 142.

(5)

Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, p. 561.

وفي عام 688 هـ / 1289م عرض أرغون على فيليب الرابع ملك أرغون التعـاون في غزو مصر، ووعده بمنحه دمشق وكثير من الخيول والإمدادات[1].

وفي سنة 689 هـ / 1289 م أنفذ أرغون رسولاً آخر وهو جنوي يدعى بوسكارد كان قد أقام طويلاً في بلاد المغول و زودَّه برسائل إلى البابا وملكي فرنسا وانكلترا .

وقد أعلن في رسالته إلى ملك فرنسا باسم الخان الأعظم قوبلاي، أنه بعون الله سوف يصل إلى دمشق في فصل الربيع من عام 691 – 692هـ / 1291 م –1292 م، فإذا أرسل الملك قوات إضافية استولى غازان على القدس وجعلها ملك لفرنسا. كما أرسل رسالة مشابهة إلى ملك انكلترا الذي أحاله على البابا، واقترح أن تجتمع القوات الصليبية والمغولية في مدينة أياس، تمهيداً للإطباق على المماليك، غير أن أحداً لم يهتم بهذه النصيحة[2].

وبناء على كل كذلك يمكن أن نعد أرغون خان من أكثر المرتبطين بالغرب في تاريخ الإيلخانيين، فقد كان اقتراح الخان إلى العالم المسيحي هو أن يهجم المغول من جهة الشام والصليبيون من جهة عكا أو دمياط، وبعد الانتصار تتحول حلب ودمشق إلى السلطة الإيلخانية، وبيت المقدس إلى السلطة الصليبية[3].

وأمام فشل أرغون في التحالف مع قوى الغرب؛ توجه إلى سياسة أخرى يستفز من خلالها المماليك، عندما قرر إرسال حملة عسكرية لمهاجمة الحرمين الشريفين وتحويل الكعبة إلى معبد بوذي، لكن مرضه ثم وفاته حال دون ذلك[4].

3_ الصراع المملوكي الإيلخاني في عهده:

وقد قلَّت الأحداث التي حدثت بين دولة المماليك ودولة إيلخانات فارس في عهد الأشرف خليل، ويرجع ذلك للأسباب الآتية:

---

(1)مصطفى بدر: مغول إيران، ص12، 13.

Howorth; history of mangols, p. 260-286.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص675.

Saunders, J; The history of the mongol conquests, London, 1971, p9.

(3)روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص39.

(4) إقبال: تاريخ إيران، ص454. عبد المنعم، صبحي: العلاقات بين مصر والحجاز، القاهرة، العربي للنشر، ص309.

_ رغم محاولات أرغون الكثيرة للتحالف مع الغرب ضد دولة المماليك، فإن ذلك لم يترجم كثيراً على أرض الواقع، ويظهر أن سبب ذلك يعود إلى انشغال أرغون بجمع المال ورعاية العنصرين المسيحي واليهودي والاشتغال بالكيمياء وغيره، وفي الطرف المقابل كان سلاطين المسلمين في الشام ومصر أيضاً مشغولين بمشاكلهم ولاسيما الأشرف خليل وقبله قلاوون الذي كان في مواجهات مع أتباع الملك الظاهر بيبرس ومع سنقر الأشقر ومع الصليبيين والأرمن[1].

_ عندما رقد أباقان على فراش المرض، أرسل أمراء وكبار المغول إلى أرغون الابن البكر له والذي كان قائداً لمنطقة خراسان بأن يحضر إلى المركز فوراً، ولكن بعد المسافة والموت السريع للخان لم يوفقاه لذلك، وبالنسبة إلى وفاة أباقا تدور الشكوك حولها، لأنه كان في همدان تحت ضيافة واحد من الأشراف الإيرانيين يحمل اسم (بهنام)، وبعد يومين من استضافته تغيرت حاله وتوفي[2].

_ تسلَّم بعده أخوه كيخاتو أباقا (690-694هـ/1291-1295م)، فلم يكن بقوة وبراعة أخيه، بل حكم أربع سنوات امتلأت بالإسراف والتبذير والخمر والنساء.

_ حدوث ضائقة مالية كبيرة في عهد كيخاتو، وحدوث قحط وانتشار الأوبئة والأمراض.

_ حدوث ثورة ضد كيخاتو على يد عدد من الأمراء الذين قادهم بايدو حفيد هولاكو وابن عمه لكيخاتو، وأدت هذه الثورة إلى مقتل كيخاتو نفسه في جمادى الأولى 694هـ/ نيسان 1295م، واعتلاء بايدو عرش مغول فارس.

_ حدوث ثورة أخرى ضد بايدو بعد ثمانية أشهر من حكمه قادها غازان بن أرغون[3]، وأدت هذه الثورة إلى مقتله أواخر سنة 694هـ/ تشرين الأول 1295م، وتسلم غازان حكم مغول فارس.

---

[1] أشتياني: تاريخ مغول، ص244. موركان: مغولها، ص221.

[2] بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، ص403.

[3] رشيد الدين: جامع التواريخ، 2/2/ 160 – 188. البدليسي، شرف خان: شرفنامه، تر: محمد علي عوني، القاهرة، دار إحياء الكتب، 1962م، ج2، ص15. بياني، شيرين: دين ودولة در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني، مركز نشر دانشكاهى، جاب جهارم، 1389، ص468. إقبال: تاريخ المغول، ص256-259.

وأمام هذه الاضطرابات المتتالية التي عانتها دولة مغول فارس كان لا بد للأشرف خليل أن يستغلها، فتابع السير باتجاه عكا، وتمكن من فتحها في جمادى الآخرة 690هـ/1291م، وقام بتصفية الساحل الشامي من الصليبيين[1].

استغل الأشرف خليل هذه الظروف السيئة لمغول فارس أحسن استغلال إذ تفرغ لقتال الصليبيين والمغول حلفاء الإيلخانيين، ويمكن القول أن أعماله هذه لا تخرج من دائرة صراع المماليك مع مغول فارس.

وقبل الدخول إلى تفاصيل تحرير المماليك لعكا، يشير البحث إلى الرسالة التي أرسلها كيخاتو للأشرف خليل معرباً فيها عن رغبته بالإقامة في مدينة حلب، فعلى الرغم من كون العلاقات مع المماليك في عهد كيخاتو كانت جيدة وبعيدة عن العنف، ولكننا يمكن أن نلاحظ بعض عبارات التهديد وطلب النزال والحرب في بعض الرسائل، فمثلاً: كتب كيخاتو رسالة إلى الأشرف خليل يطالبه فيها بمدينة حلب لأن أباه هولاكو خان هو الذي سيطر عليها سابقاً، وأخبره في حال إذا لم يقم بإعادة مدينة حلب إليه، فإنه سوف يقوم بتنظيم هجوم إلى بلاد الشام، وقام الملك الأشرف خليل في الرد عليه بأنه مستعد للحرب ويطالبه بإعادة بغداد إليه لأنها كانت تحت إدارته سابقاً[2].

ومما جاء في رد الأشرف خليل على ذلك: ((إني كنت على عزم من أخذ بغداد .. وسننظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه))، أي لم يستجب الأشرف لمطلب كيخاتو بل هدده بأخذ بغداد[3].

وكان سبب فتح عكا نقض الصليبين لمعاهدة سنة 680 هـ/ 1280م، ففي سنة 689هـ / 1290م وفد على عكا متطرفون صليبيون من أوربة وقتلوا بعض المسلمين المسافرين وهم تجار، فأدرك الصليبيون في عكا خطورة الموقف فأرسلوا في صفر سنة 690 هـ / شباط 1291م سفارة يرأسها فيليب ماينيف بصحبة أحد فرسان الداوية وآخر من الإسبتارية، واجتمع هؤلاء بالأشرف خليل يلتمسون العفو

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ، تارخ غازان خان، تر: فؤاد الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000م، ص121-127. البدليسي: شرفنامه، ج2، ص15. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص41، 42. فهمي: تاريخ دولة المغول في إيران، ص188-189.

[2] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص25.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص786.

ويتبرؤون ممن قتل المسلمين ويعلنون استعدادهم للتعويض، فرفض الأشرف خليل أعذارهم وألقى القبض عليهم وعزم على الانتقام.

وأخذ الملك الأشرف في التجهيز للسفر للبلاد الشامية وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وخرج من الديار المصرية في 3 ربيع الأول سنة 690 هـ / 5 نيسان 1291م، وسار لحصار عكا وضرب عليها الحصار ورماها بالمنجنيقات(1).

وبذل الصليبيون كل ما يستطيعون لإنقاذ عكا من السقوط، فجمعوا قواتهم في الشام وعكا فضلاً عن البحارة الإيطاليين، كما جاء ملك قبرص هنري الثاني وحاول التفاهم سلمياً مع الأشرف خليل بعقد الصلح معه، ففشل بذلك، فتابع الأشرف خليل حصاره للمدينة إلى أن سيطر عليها يوم الجمعة 17 جمادى الآخرة 18 أيار 690هـ/1291م، وأمر بهدم المدينة وأسوارها، فلما بلغ الخبر الصليبيين بصور وصيدا وعثليث وحيفا تركوها هاربين، فدخلها السلطان الأشرف خليل وأمر بهدمها جميعاً وعاد إلى دمشق(2) .

كما دانت بيروت للأمير الشجاعي في 2 شعبان وقرر هدم أسوارها، وفي اليوم نفسه سقطت حيفا بدون مقاومة أيضاً، ولم يبق للصليبيين في بلاد الشام سوى موضعين هما أنطرطوس وعثليث التابعتين للداوية، فاستسلمت أنطرطوس في5 شعبان / 3 آب من العام نفسه، واستسلمت عثليث في 16 شعبان 690هـ / 14 آب 1921م، ولم يعد بحوزة الصليبيين إلا أرواد التي سقطت بأيدي المسلمين بعد ذلك باثني عشرة عاماً وذلك سنة 702هـ / 1303م، وخلت بلاد الشام بذلك تماماً من الصليبيين.

وظلت الجيوش المملوكية بعد طرد الصليبيين تجوب الساحل بضعة أشهر في خطوة وقائية وتدمر ما تعده صالحاً لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى والتحصن فيه من جديد، وبذلك ختمت صفحة الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي بعد أن مضى عليها قرنان من الزمن.

---

(1) المقريزي : السلوك ،ج1، ق3، ص753 . العلبي: الملك الأشرف خليل بن قلاوون فاتح عكا ومحرر بلاد الشام من الصليبيين، ص26 – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3 ، ص 694. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج8، ص 4، 5 .

(2) ابن الجزري، محمد بن إبراهيم: تاريخ ابن الجزري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط11، 1998م،ج1، ص 45، 46. أبو الفداء : المختصر، م2، ج7، ص32. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص207. عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص 108، 109.

أما ما تبقى من الصليبيين فهربوا إلى قبرص وتجمعوا فيها، فاستغل الأشرف خليل ذلك كما استغل انشغال المغول في مشاكلهم الداخلية، ليهاجم الأرمن، فاستطاع سنة 691هـ / 1292م السيطرة على قلعة الروم الحصينة على شط الفرات، وأسماها قلعة المسلمين[1].

ومع سقوط قلعة الروم اضطر ملك الأرمن سنة 692هـ / 1293م للتنازل عن عدة حصون مهمة: بهنسة ومرعش وتل حمدون، مقابل توقيع هدنة مع المماليك[2].

ومع ضعف مغول فارس والأحوال السيئة التي كانوا يمرون بها، وعجزهم عن نجدة حلفائهم الأرمن، فإن إيلخانهم لم يستطع أن يسكت أمام نجاحات الأشرف خليل، فوجَّه إليه تهديداً بأنه سوف يستولي على حلب عادًّها من أراضي أبيه هولاكو، وإلا فسيستولي على بلاد الشام، فرد الأشرف خليل بذكاء مخبراً كيخاتو أنه هو أيضاً يستعد لاستعادة بغداد والخلاص من المغول.

لقد انتهى عهد السلطان الأشرف خليل دون وقوع حدث كبير بينه وبين المغول، باستثناء غارة سلب قامت بها مجموعة من مغول فارس على الرحبة سنة 691هـ/1292م، فتصدت لهم قوات دمشق[3].

وبقراءة المصادر في المدة بين 680 – 695 هـ / 1281 – 1295م يظهر توقف التوجه الإيلخاني باتجاه بلاد الشام، ومرد ذلك يعود للخلافات الداخلية الحادة والتنافس على العرش الإيلخاني، وهذا أدى إلى مقتل الإيلخان كيخاتو والإيلخان بايدو[4].

4_ الأوضاع في السلطنة المملوكية، والصراعات التي أعقبت مقتل الأشرف خليل:

تميزت هذه المدة بالاضطرابات، إذ تآمر كبار الأمراء على الأشرف خليل لاستخفافه بهم وخصوصاً بعد نجاحه في استرداد عكا، الأمر الذي جعله يتمادى في كبريائه وتعاظمه على الأمراء،

---

[1] طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ص208، 209 . العلبي: الأشرف خليل، ص46، 47.

[2] ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، ج1، ص 101 . ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص647. المقريزي: السلوك ،ج1، ق3، ص784. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، ص209.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص800 وما بعد. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون،ص34 وما بعد.

[4] المنصوري: زبدة الفكرة، ص260 وما بعد. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص780 وما بعد.

وكان قد هالهم ما فعله بنائبه طرنطاي الذي قُتل في بداية حكمه، فخشوا على أنفسهم، وتزعم حركة التآمر الأمير بدر الدين بيدرا، إذ نشبت العدواة بينهما نتيجة دسيسة من الأمير شمس الدين بن سلعوس الذي أخذ يوغر صدر السلطان ضد بيدرا وأوهمه أن أملاك بيدرا ازدادت بشكل يهدد السلطان نفسه، فلجأ السلطان الأشرف خليل إلى استعادة بعض الأملاك التي كان قد صادرها واستولى عليها بيدرا، كما أحس بتغير بيدرا عليه وحاول أن يسترضيه، إلا أن بيدرا كان قد وضع خطته فعلاً لقتل السلطان بالاشتراك مع بعض كبار الأمراء مثل حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر وسيف الدين بهادر، وسنحت لهم الفرصة في ثاني محرم سنة 693 هـ / كانون أول 1293 م، عندما خرج السلطان خليل للصيد، فلما كان بأرض تروجة بالقرب من الإسكندرية وبينما هو يتصيد جاءه هؤلاء وقتلوه قتلة شنيعة[1] .

اجتمع المتآمرون واتفقوا على تعيين الأمير بدر الدين بيدرا سلطاناً ولقبوه بالملك الأوحد سنة 693هـ / 1293م، ولم يستمر إلا يوماً واحداً لأن مماليك السلطان المقتول (الخاصكية الأشرفية) أو المماليك الأشرفية بزعامة الأمير زين الدين كتبغا وحسام الدين استاذدار تصدا للمتآمرين قبل وصولهم إلى القلعة وقتلوا بيدرا وهرب واختفى لاجين وقرا سنقر، كما حدث خلاف بين زين الدين كتبغا والأمير علم الدين سنجر الشجاعي النائب في قلعة الجبل على السلطنة، فدارت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن تعيين الملك الناصر محمد بن قلاوون أخ الملك الأشرف خليل سلطاناً، وكان عمره تسعة أعوام، ثم خُلع، ونُصِّب الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري في عام 694هـ/ 1294م، وجاء بعده حسام الدين لاجين المنصوري في عام 696هـ/1297م، بعد أن فر كتبغا من مصر إلى دمشق هرباً من حسام الدين لاجين، الذي قُتل فيما بعد.

وفي عام 708هـ/ 1309م عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى الحكم ثانية بعد أن كان توجه إلى قلعة الكرك معرضاً عن الحكم، بعد أن استولى عليه الأميران بيبرس بن عبد الله المظفر وسلار بن عبد الله المنصوري واستبدا بالأمور. وفي العام نفسه تولى الحكم المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بعد إعراض الناصر، وبقي في الحكم إلى أن ألقى الناصر القبض عليه عام 709هـ/1310م وحكم مكانه للمرة الثالثة وظل في الحكم حتى توفي عام 741هـ/1341م.

وبموت الناصر محمد دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة مختلفة عن سابقتها، إذ تميزت المدة التي حكم فيها أولاده وأحفاده من بعده بالاضطراب والصراع على السلطة، فخلفه في الحكم سلسلة من أولاده، فحل محله

---

[1] المنصوري: التحفة الملوكية، ص136.- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص663 . العلبي: الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ص77، 78 .

أولاً ولده المنصور أبو بكر، ثم ولده الثاني الأشرف علاء الدين كجك، الذي عزل أخاه المنصور بعد أن حكم شهرين فقط، وفي عام 742هـ/1342م، وصل إلى الحكم الولد الثالث من أبناء الناصر محمد وهو الملك الناصر أحمد.

وفي عام 743هـ/1342م، تولى الحكم الملك الصالح إسماعيل الرابع من أولاد الناصر بعد سفر أخيه الناصر أحمد إلى الكرك، فحاصره هناك وقتله، ثم مرض الصالح هذا وتوفي عام 746هـ/1345م، فحكم بعده الكامل شعبان الخامس من أولاد الناصر، وفي عام 747هـ/1346م تولى الحكم الملك المظفر حاجي السادس من أولاد الناصر، واستمر حتى عام 748هـ/1347م، وفي هذا العام تسلطن الناصر حسن الولد السابع من أولاد الناصر بعد مقتل أخيه المظفر حاجي، وظل يحكم حتى عام 752هـ/1351م، حيث وصل إلى الحكم الملك الصالح صالح الولد الثامن والأخير من أولاد الناصر محمد.

وفي عام 755هـ/1354م، عاد الناصر حسن للحكم ثانية بعد خلع أخيه الملك الصالح، وظل في الحكم حتى قُتل عام 762هـ/1360م، فجاء بعده المنصور محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون، وانتهى حكمه بخلعه وسجنه عام 764هـ/1362م، فحكم بعده الأشرف شعبان بن حسين وكان صغيراً، وظل كذلك حتى قُتل عام 778هـ/1376م.

وتولى من بعده الحكم المنصور علي بن شعبان، وانتهى حكمه بوفاته عام 783هـ/1381م، فحكم بعده الصالح أمير حاج بن شعبان، وانتهى حكمه بخلعه وتولية الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجركسية، وذلك في عام 784هـ/1382م، وبذلك انتهى حكم دولة المماليك البحرية الذي استمر قرابة القرن ونصف من الزمان[1].

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص41. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص167 وما بعد، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص347، 348. ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، ج1، ص191. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص259 وما بعد. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8، ص191 وما بعد. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد: الجوهر الثمين في سير الخلفاء و الملوك والسلاطين، تح: سعيد عاشور، السعودية، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ص256 ـــ 457، المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص369 ـــ 653، ج1، ق3، ص 663 ـــ 790، ج2، ق3، ص 593 ـــ 843، ج3، ق1، ص 62 ـــ 412، ج3، ق2، ص 439 ـــ 476.

الفصل السابع
العلاقات المملوكية الإيلخانية
في عهد الناصر محمد بن قلاوون
وعهد غازان
693 – 703هـ / 1293 –1303م

كتب غازان خان إلى سلطان مصر رسالة يبشر فيها المصريين بتعلقه بالإسلام، وأشار إلى أن لا معارك وحروب بعد اليوم، ويجب تجاوز الخلافات وإنشاء علاقات الصداقة والتجارة بين البلدين، مقدماً نصائح للمماليك بترك الخلافات الداخلية والاقتتال على وراثة الملك، وقام غازان خان في ابتداء سلطنته بإنشاء علاقات حسنة مع مصر، ولكن هذه العلاقات كانت تتكدر أحياناً تحت أسباب عدة مثل محاولات الاستيلاء المتكررة من المماليك في بلاد الشام على الأراضي التي يعدها غازان خان جزءاً من مناطق سلطته، وكذلك لجوء وهروب بعض ولاة المماليك إلى غازان خان أو لجوء وهروب بعض ولاته إلى بلاد المماليك[1].

أولاً _ الصلح مع الأرمن في عهد لاجين:

في مدة الاضطرابات والصراع على العرش المملوكي، وخلال حكم المنصور حسام الدين لاجين 696 - 698 هـ/1296-1299م وفي سنة 697 هـ / 1297م جرَّد لاجين جيشاً كبيراً نحو بلاد الأرمن، فخرج من مصر إلى الشام ثم إلى حلب ومنها نزل نهر جيحون وهاجم بلاد سيس، فاضطر ملك الأرمن قسطنطين لطلب الطاعة والأمان من السلطان لاجين، فقبل المماليك بشرطين:

_ أن يكون نهر جيحون حداً فاصلاً بين المماليك والأرمن.

_ أن تكون كل البلاد والحصون التي جنوب نهر جيحون للمماليك، فقبل ملك الأرمن بذلك[2].

ثانياً _ معركة مجمع المروج (الخازندار):

وهي معركة مهمة، سبقتها أحداث مهَّدت لها، وفي الأسطر الآتية التفاصيل.

1_ الأسباب التي شجعت المغول على القيام بغاراتهم على بلاد الشام:

لم تتوقف الرغبة المغولية في السيطرة على بلاد الشام ومصر حتى مع اعتناق غازان ودولته للدين الإسلامي، إذ كان ينتظر الفرصة المواتية ليحقق السيطرة على بلاد الشام.

اختار غازان هذا التوقيت بدافع من الأسباب الآتية:

---

[1] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص26.

[2] المنصوري: التحفة الملوكية، ص153. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص820. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 225-227 .

_ العداء والتنافس بين الطرفين على بلاد الشام ومصر.

_ التجاء الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق المملوكي مع أتباعه من الأمراء وخمسمئة من جنوده إلى غازان، اطلاعه على ما آلت إليه الأوضاع في بلاد الشام ومصر والتدهور الذي حل بالدولة نتيجة الخلافات والمؤامرات.

_ ترحيب كتبغا بالثائرين المغول الأوراتية[1] الذين التجؤوا إلى مصر فارين من وجه غازان.

_ ما قام به نائب حلب الأمير بلبان الطباخي من مهاجمة ديار بكر وتخريبها، ومحاصرة ماردين، وهذا ما أغضب غازان.

_ استرداد الناصر محمد بن قلاوون عرشه في الوقت الذي كان غازان يستعد للقيام بحملة على بلاد الشام، والناصر محمد يجاهر بالعداء للخان غازان[2].

2_محاولة غازان غزو بلاد الشام وخروج سلامش عليه (698هـ/1299م):

اتبع السلطان لاجين سياسة لم تتصف بالحكمة إذ رضخ لنائبه منكوتمر الذي حاول التخلص من عدد من الأمراء، مثل الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار والأمير فارس الدين الألبكي، فاضطر هؤلاء للجوء إلى غازان، الذي استغل هذا الشرخ، فأحسن استقبال هؤلاء الأمراء بالأموال والهبات، وبدأ باستغلالهم لغزو بلاد الشام، فوعدوه بالمساعدة، وعرّفوه بمكامن الضعف عند المماليك، ودرّبوا المغول على فنون القتال المملوكية.

لذلك ومع تولي الناصر محمد بن قلاوون الحكم للمرة الثانية وصلته أخبار عزم المغول بقيادة غازان على اجتياح بلاد الشام[1].

---

[1] طائفة مغولية تنتسب إلى قبيلة أويرات، جاءت مصر سنة 695هـ في عهد السلطان كتبغا بسبب خلافات بين أمرائهم وغازان، استقبلهم السلطان وأكرمهم وأقرَّ أمرائهم وأسكن معظمهم على ساحل بلاد الشام. ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8، ص205. المقريزي: السلوك، ج1، ص883 وما بعد.

[2] انظر طقوش، سهيل: تاريخ المماليك، ص 230.

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن غازان كان مدرباً بشكل جيد، إذ نشأ وتربى تحت إشراف جده أباقا خان الذي أعده للمهمة الخطيرة التي تنتظره، وقد عهد به إلى أحد كبار العلماء ليشرف على تربيته ويعلمه الخط والعلوم والآداب، فأتقن عدة لغات بالإضافة للمغولية، كالفارسية والتركية والهندية والكشميرية، وبعد أن أتقن هذه المعارف وحصّل العلوم شرع في تعلم الفروسية والرماية، وشغف بالصيد والقنص والرمي، والتنقل والارتحال، ولما اعتلى أرغون والد غازان عرش إيران اختار ابنه ليكون نائباً عنه في حكم إقليم خراسان، وذلك عام 693 هـ / 1294م، وعهد إلى نوروز بأن يكون ملازماً ومساعداً له في إدارة هذا الثغر الهام، وعُين قائداً لجيشه.

وقد تمرد عليه هناك القائد بايدو حاكم إيران، فزحف نحوه من خراسان وانتصر عليه وآل عرش المغول في إيران إليه وذلك في عام 694 هـ / 1295م، ويعود الفضل في انتصار غازان هذا إلى تأييد الأئمة والفقهاء وقائد جيشه نوروز الذين وقفوا معه في دعواه ضد بايدو[2].

ولم يترك غازان طريقة في تثبيت حكمه وتوسيع أملاكه والأماكن المسيطر عليها إلا اتبعها، ومن ذلك أنه جعل العملة المعدنية من أسباب السيطرة على منغوليا وغيرها، وفي ذلك قدرة كبيرة منه على إدارة الحكم[3].

على كل حال كانت خطة غازان تتلخص بما يأتي:

_ أرسل قائده سلامش بن باجو على رأس جيش مكوَّن من خمسة وعشرين ألف فارس إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى.

---

[1]ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص96، النويري: نهاية الأرب، ج3، ص352 – 356. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص853 – 872. أشتياني: تاريخ مغول، ص277. طقوش : تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص 226.

[2]آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص136. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، سوريا، بحث: غازان.

[3]انظر

Mark A. Whaley; A Rendering of Square Script Mongolian on the Îlkhân Ghâzân Maḥmûd's Coins, Mongolia Society, Mongolian Studies, Vol. 26 (2003-04), pp. 39-88.

آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص136.

_ ينطلق جيش سلامش مع جيوش سلاجقة الروم إلى بلاد الشام عن طريق أرمينية الصغرى.

_ يسير غازان على رأس جيش مكون من سبعين ألف جندي إلى بلاد الشام من ناحية ديار بكر.

_ بعد عبور الفرات ومهاجمة البيرة والرحبة وقلعة الروم، يجتمعون في حلب، للانطلاق نحو بلاد الشام.

_ كان ضمن الخطة أن يرافق التقدم المغولي إلى بلاد الشام هجوم صليبي على سواحل بيروت، ولكن الرياح الشديدة أفشلت هذا الهجوم في شعبان سنة 698هـ/1299م.

وهنا وعندما وصل سلامش إلى بلاد الروم (آسيا الصغرى)، غرَّته نفسه في أن قواته كبيرة وحدثته بالاستقلال بهذه البلاد، وشجعه على ذلك انضمام حاكم الإمارة القرمانية إليه، وكان ذلك، فأرسل إلى لاجين قبل أن يُقتل يُخبره بذلك وينشد المساعدة على قتال سيده غازان. لكن لاجين لم يقدم له أية مساعدة بسبب اضطراب الأحوال في القاهرة.

وبسبب خروج سلامش غيَّر غازان وجهته إلى بلاد الشام، وأوكل _ بعد أن رجع هو إلى تبريز _ إلى بولاي قيادة الجيش والقضاء على سلامش[1].

وحدثت معركة بين سلامش وبولاي في سيواس في رجب 698هـ/ أيار 1299م، تفوق فيها جيش بولاي فهرب سلامش إلى القاهرة ثم دمشق، وكانت هذه الهزيمة لسببين:

الأول: انضمام قسم كبير ممن كان مع سلامش إلى بولاي.

الثاني: عدم وصول مساعدة السلطان لاجين، الذي اكتفى بتزويد سلامش بقوة ليحضر أهله من بلاد الروم، وفي الطريق وحين وصوله لأرمينية الصغرى قتله المغول[2].

ولا بد من الإشارة إلى محاولة أتابك الإيلخان غازان واسمه نيروز الاتصال بالسلطان المملوكي والتعاون معه، لكن رسائله وقعت بيد غازان فقتله[1].

---

[1] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص8 – 12. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص373 – 376. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص875 – 877.

[2] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص374، 375. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 10 ما بعد.

3_ أحوال الجيشين:

أ _ أحوال المماليك:

بشكل عام كان وضع المماليك ليس بالوضع السهل أو الجيد، نلتقط ذلك مبدئياً على لسان مؤرخ المغول الذي ذكر وصول ((أنباء حسنة)) عن أوضاع المماليك[2].
وهذا يدل على أوضاع سيئة على الجانب المملوكي للأسباب الآتية:
_ حدوث اضطرابات في عاصمة المماليك القاهرة.
_ هروب أهم أمراء المماليك إلى غازان، إذ يعزو المؤرخ بيبرس المنصوري _ الشاهد على تلك المعركة _ تحرك غازان نحو دمشق إلى التجاء نائب دمشق الأمير قبجق مع بكتمر السلحدار وفارس الدين ألبكي وسيف الدين الصالحي وغيرهم إلى بلاد التتار، وهو عين ما حدث في معركة حمص سنة 680 هـ/ 1281م عندما التجأ سنقر الأشقر إلى التتار وأغراهم بدولة المماليك[3].

_لم تكن استعدادات الجيش المملوكي على مستوى هذه المعركة، بل ظهر ما يدل على الاستهتار[4].

_ حدوث خلافات في جيش المماليك بين الأمراء وخاصة الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار.

_ محاولة طائفة المغول الأويراتية _ الذين لجؤوا للمماليك هرباً من بطش غازان _ اغتيال السلطان الناصر محمد لإعادة سيدهم كتبغا[5]. وهذا أدى لحدوث فتنة في الجيش المملوكي.

على كل حال: لما وصلت أخبار توجه غازان إلى بلاد الشام إلى مسامع الناصر محمد أعلن الاستعدادات وتوجه مع الأميرين سيف الدين غازار وقطلبك الكبير إلى غزة أواخر سنة

---

(1) المنصوري: زبدة الفكرة، ص318.

(2) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 160.

(3) المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص318 – 331.

(4) ذكر ذلك ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 15.

(5)– المنصوري: التحفة المملوكية، ص156.ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص717، 718. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص883 – 886.

698هـ/1298م، ومنها توجه إلى عسقلان ثم إلى دمشق وذلك يوم الجمعة في 8 ربيع الأول سنة 699هـ/1299م[1].

وفي 17 ربيع الأول 699هـ/1299م وصلته أنباء اقتراب جيش المغول من بلاد الشام، فخرج من دمشق باتجاه حمص، وفي يوم الأربعاء 27 ربيع الأول توجه السلطان الناصر محمد بجيشه إلى مجمع المروج (وادي الخازندار) على مقربة من سلمية ما بين حمص وحماه شرقاً، وخلال ذلك تظاهر غازان بالرجوع لإيهام الجيش المملوكي بالانسحاب ليحقق عنصر المباغتة، ثم حدث اللقاء بين الطرفين[2].

ويضاف إلى كل ذلك وقوع المماليك في أخطاء لا تغتفر، إذ صدرت الأوامر إلى الجنود بترك الرماح على الأرض، والاعتماد على القتال بالسيوف، فعرقلت الرماح سير الخيول وأضرت بحوافرها[3].

ب _ أحوال المغول:

كان موقف المغول يتمثل بعدة انتقامات من دولة المماليك:

_ فكانوا ينتظرون الفرصة للانتقام من سيطرة المماليك على قلعة الروم (قلعة المسلمين).

_ والرد على الغارات المملوكية على آسيا الصغرى وديار بكر[4].

_ والرد على ترحيبهم بسلامش الهارب من غازان، وقيام سلامش بنهب ماردين المحسوبة على مغول فارس[5].

_ بالإضافة إلى السياسة العامة المغولية المتمثلة بالتوجه والتوسع في منطقة المتوسط[6].

---

[1]- المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص 880.

[2] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص220. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص157.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص886.

[4] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص159. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص237.

[5] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص878.

[6] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص380، 381. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص144.

وقد أعدَّ غازان جيشاً قوياً عرمرماً للسيطرة على بلاد الشام وتذرَّع بعدة ذرائع للوصول إلى هدفه، والتي كانت مهاجمة الأمير بلبان الطباخي نائب حلب مع الأمير سلامش المغولي لقلعة ماردين.

وقد أراد غازان قطع الاتصالات بين المماليك ومغول القبجاق.

عند استرداد الناصر محمد لعرشه حاول الخان غازان اتباع الوسائل الدبلوماسية في بادئ الأمر قبل الإقدام على الخطوة العسكرية، وحاول التفاهم مع السلطان، فأرسل له وفداً من القضاة والأئمة والثقات بصحبة يعقوب الكرجي من أجل هذه الغاية.

ولكن هذه المناورات لم تنجح ليقظة السلطان قلاوون، بل أقدم على إهانة الوفد وسجنه، وهذا ما أغضب غازان ودفعه إلى المواجهة[1].

وقد اعتمد غازان على الأرمن والكرج في هذه المعركة بعد أن فشل سفيره إيسول البيزي في اقناع ملك قبرص ومقدمي الداوية والإسبتارية في الانضمام إليهم. واستطاع غازان تجميع جيش ضخم بلغ ما يقارب من تسعين ألف مقاتل، وجهَّزهم بأفضل التجهيزات[2].

ويضاف إلى ذلك استخدام المغول للمكيدة والحيلة، إذ أدركوا ضخامة جيش المماليك من جهة، وتموضعه في مكان استراتيجي من الممكن أن يؤدي إلى هزيمتهم من جهة ثانية، فقاموا بأمرين:

الأمر الأول: أشاعوا أنهم منسحبون، وانطلت هذه الحيلة على المماليك، ففتر حماسهم وقل استعدادهم[3].

الأمر الثاني: أمر غازان جنوده بتأخير صد الهجوم المملوكي، وبهذه الطريقة استطاع تخفيف صدمة هجمة الفرسان وإضعاف الخيل، ومكنت هذه الوضعية الرماة من رمي السهام من وضعية ممتازة[4].

4_ المعركة:

---

[1] الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص605. الصياد: المغول في التاريخ، ص 136 – 138.

[2] هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص133. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص325.

[3] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص160. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص16.

[4] المقريزي: السلوك، ج1، ص887.

وقف الأمير عيسى بن مهنا على رأس العربان في الميمنة، يليه الأمير بلبان الطباخي على رأس عسكر حلب وحماة، ووقف على رأس الميسرة أقشى قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش وعدة من الأمراء، ووقف الناصر مع حسام الدين لاجين الاستادار عن بعد، وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب مرض أصابه وكان شديداً مفاجأً منعه من الثبات على فرسه[1].

وقد تعلقت هذه المعركة أكثر ما تعلقت بميسرتي وميمنتي الجيشين، على النحو الآتي:

في بداية المعركة: استطاعت ميسرة المماليك الهجوم بقوة على ميمنة المغول، وذكر المقريزي أنها قتلت منهم قرابة خمسة آلاف. وهنا لم يتحرك المغول حسب الخطة التي تقضي بجعل جيش المماليك يُبادر بالهجوم، ويبدو أن هذه الخطة نجحت إذ قلَّت عزيمة جيش المماليك، بل ونفد النفط الذي مع الزراقين رماة سهام النفط وانطفأ وبدأت سهام المغول تصيب الجيش المملوكي بكثافة.

وزاد الطين بلة أن طائفة الأويراتية في الجيش المملوكي أظهرت تخاذلاً.

وظهر أن الأمراء الذين خرجوا مع السلطان لم يكونوا على وفاق، وسادهم الحسد والتباغض، ولم يكد يصل السلطان إلى غزة حتى اكتشف مؤامرة، ترأسها زعماء الطائفة العويرائية المغولية، انضم إليها الأمراء الناقمون، وقد أرادوا من ذلك:

_ التخلص من السلطان ووزرائه خاصة الأميرين سلار وبيبرس.

_ إعادة الملك العادل كتبغا إلى العرش.

_ الأخذ بثأر إخوانهم الذين قتلوا في عهد لاجين.

وقد أربكت هذه المؤامرة الجيش المملوكي، وفقد الكثير من التجهيزات، إلى أن أُحبطت، ولقي المتآمرون جزائهم، وقُتل من العويراتية نحو خمسين رجلاً[2].

---

[1] ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص 407، 408. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص328.

[2]– المقريزي: السلوك، ص882 – 887. الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص605.

فبدأت ميمنة جيش المماليك تنهزم إلى ان كُسرت أمام ميسرة المغول، وتدارك غازان انكسار ميمنته عندما أردفها بقوة مغولية لم تشارك في الصدمة الأولى، مما فتَّ في عضد جيش المماليك الذين ولوا هاربين وطاردتهم قوات المغول حتى الليل، ثم أحجم المغول عن ملاحقتهم ظناً منهم أن هذه مكيدة لاستدراجهم، مما أنقذ جيش المماليك من كارثة كبيرة[1].

أما الناصر محمد فإنه هرب نحو بعلبك التي أغلقت أبوابها في وجهه، ثم توجه إلى دمشق فالكسوة فمصر في 12 ربيع الآخر 699هـ/1299م[2].

ثم سار غازان إلى حمص ونهب الخزائن السلطانية فيها، ثم وجَّه جيشه إلى دمشق، وقبل دخوله إليها اجتمع مع بعض علماء دمشق ووعدهم بالأمان، ودخل إلى دمشق إسماعيل التتري أحد أمراء المغول وقرأ في الجامع الأموي فرمان غازان الذي يذكر فيه أنه قدم للقضاء على المماليك، وتحقيق العدالة والأمان، وطمأن أهل دمشق بعدم التعرض لهم بمختلف طوائفهم وأديانهم[3].

ودخل غازان دمشق يوم الجمعة 10 ربيع الآخر 699 هـ / 1300م، ولقَّب نفسه: السلطان مظفر الدين محمود غازان، وخُطب له في جامع دمشق، وظل الأمر على هذا الحال حتى يوم الجمعة 17 رجب سنة 699 هـ / 1300م عندما خطب للملك الناصر بعد انقطاع دام مائة يوم[4].

---

[1] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص384-385. بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية، ص157. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص17.

[2] المنصوري : التحفة المملوكية، ص156. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص 162، 163. ابن كثير: البداية والنهاية،ج17، ص717 وما بعد. المقريزي: السلوك ،ج1، ق3، ص883- 896. سين، زيتر: تاريخ سلاطين المماليك في مصر والشام، ليدن، 1919م، ص59. ويذكر هنا الأمير بيبرس المنصوري: «وكنت يومها حاكماً لقلعة القاهرة، وعلمت بالهزيمة، فأشعت أن قد أتتني بطائق النصر، وكتمت أخبار الكسرة»، المنصوري: مختار الأخبار، ص111.

[3] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 20-23، العيني: عقد الجمان، تح: محمد أمين، ج4، ص30. سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص66، النويري: نهاية الأرب، ج31، ص386-388. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص119.

[4] العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985، ج27، ص484.

وقد غدر غازان بأهل دمشق وتركها لجنوده يعيثون فيها فساداً، وانطلق التتار في أحياء دمشق وغوطتها يقتلون ويهدمون ويحرقون ويغتصبون، وفرضت ضرائب على الأسواق، وحُمل إلى خزانة غازان وحده حوالي 5,3 مليون درهم، ووصل أذاهم إلى القدس الشريف والخليل وغزة، وذُكر أن مجموع ما حمله إلى خزانته من دمشق فقط يقارب ثلاثة ملايين وستمئة ألف درهم، وما حصل عليه أمراؤه قُدر بمليونين ومئتي ألف درهم، بالإضافة إلى الغلال والسلاح والخيول وغيرها، واستعصت عليهم قلعة دمشق، ورفض نائب القلعة الأمير علم الدين سنجر المعروف بأرجواش تسليمها[1].

ومع إجماع المصادر العربية على ما قام به غازان وجنوده من فساد وسلب ونهب، نجد أن رشيد الدين الهمذاني مؤرخ المغول يتغاضى عن ذلك، بل يُظهر أن غازان عاقب بعض الجنود لما بدر منهم من إساءة[2].

وعين غازان واليها السابق الأمير سيف الدين قبجق نائباً في دمشق، والأمير بكتمر على نيابة حماه وحمص وحلب، والأمير إلبكي على نيابة صفد وطرابلس والساحل، وجعل مع كل نائب قوة مغولية، ويتبع الجميع لقطلوشاه مقدم التتار في بلاد الشام، وقد ترك معه ستين ألف مقاتل، وكل ذلك على أن غازان سيعود إليه في الربيع القادم لمتابعة المسير إلى الديار المصرية، ثم عاد إلى بلاده[3].

وبعد رحيل غازان بعشرة أيام تقريباً (23 جمادى الأولى/ 14 شباط 1300م)، لحق به نائبه قطلوشاه بعد أن أخفق حصاره لقلعة دمشق، فأقنعه نائب الشام قبجق بتركها وأعطاه كمية كبيرة من الأموال – على سبيل الرشوة – جمعها له من الناس، ثم لحق به القائد بولاي في 12 رجب، وقد كان على رأس قوة مغولية صغيرة تتحرك في الأغوار لشن الغارات؛ إذ وصلوا بغاراتهم إلى غزة وقتلوا

---

[1] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص220. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص896. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص395 وما بعد. البرزالي، القاسم بن محمد: المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا، 2006م، م3، ص30. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص27 – 30. سين: تاريخ سلاطين المماليك، ص71.

[2] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص164–165.

[3] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص31. المنصوري: زبدة الفكرة، ص342. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص397. العيني: عقد الجمان، تح: أمين، ج4، ص45، 45. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص895. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص27 – 30.

في جامعها خمسة عشر شخصاً من المسلمين، فالتقى قطلوشاه مع غازان في الموصل في 15 رجب، وأخبره أن قبجق والي الشام وأتباعه خالفوه وخرجوا عن طاعته، لكن غازان لم يتمكن من العودة لما بلغه من تمرد بعض أمرائه[1].

وعقب هزيمة الخزندار عاد السلطان الناصر إلى مصر، وبدأ بجمع جيوشه وتجهيزها للمسير إلى بلاد الشام لطرد المغول، فوصلته الأخبار وهو بالصالحية برحيل المغول من بلاد الشام، وبعد نقاش قُرِّر أن يعود السلطان إلى القاهرة، ويتابع الجيش مسيره إلى بلاد الشام بقيادة الأميرين: سلار وبيبرس الجاشنكير، وكانت الرسائل قد سُيِّرت إلى الأمراء الذين دخلوا في طاعة غازان، وهم: قبجق وبكتمر وإلبكي، تسترضيهم وتحثهم على العودة إلى الخدمة والطاعة، فرضخوا لذلك[2].

أقيمت الخطبة في دمشق يوم الجمعة في 17 رجب 699هـ/نيسان 1300م باسم الناصر محمد بعد انقطاع دام مئة يوم، واستطاع الأميرين دخول دمشق في 10 شعبان 699هـ/ أول مايو 1300م، ولم يعبئوا بطلب غازان مهادنتهم، وأجروا الكثير من الترتيبات الإدارية إلى أن استقرت أحوالها وعادت إلى سالف عهدها، ثم تركوها عائدين إلى مصر 8 رمضان من السنة نفسها[3].

وقد ألزم الأمير آقوش الأفرم أهل دمشق بتعليق السلاح في الحوانيت وملازمة الرمي بالنشاب، كما ألزم قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة فقهاء دمشق بذلك.

وعندما غادر غازان دمشق كان أهل دمشق في فقر مدقع لم يعرفوا له مثيلاً، عبَّر عن ذلك المؤرخ كمال الدين ابن قاضي شهبة بقوله:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعةٍ فما أحد منا من السبع سالمُ

غلاء وغازان وغزو وغلاءُ وغدر و إغبان وغم ملازم[4].

---

[1]رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص165. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص399-401، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص299. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص896.

[2] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص404. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص300.

[3]المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص901، 902. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص404-406. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص300، 301. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ص355، 356.

[4]المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص900 وما بعد. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص144.

ولا بد من الإشارة إلى أن انتصار غازان هذا كان باعثاً على السرور في أوروبة، فلقد قُدمت التهامي والتبريكات لغازان ولا سيما الغرب الأوربي والأرمن الذين انهزموا أمام المماليك والمصريين وأهل الشام ولم يستطيعوا الاحتفاظ ببيت المقدس وموانئ وسواحل بلاد الشام، وعدوا انتصارات غازان تلك بمنزلة الانتقام والتعويض عن انكساراتهم التي تلقوها هناك، وصمموا على تحفيزه على تخليص الشام ومصر من أيديهم وسلطتهم[1].

بل أرسل ملك أرغون جيمس الثاني رسالة تهنئة لغازان، ووعده بأن يساعده عسكرياً مشترطاً عليه أن يضمن له حرية الحج إلى القدس[2].

وبدوره أرسل غازان سفارة سنة 700 هـ / 1300م إلى ملك قبرص ثم إلى البابا بونيفاس الثامن بخصوص التعاون المشترك ضد دولة المماليك[3].

وتبقى مناقشة قضية الانسحاب السريع لغازان، إذ يرجح أن سبب ذلك هو فشل تحالف المغول مع قوى الغرب ضد المماليك، حيث كان هناك تحالف بين غازان والغرب (ممثلاً بملك قبرص وملك أرمينيا) هدفه هجوم مشترك على أراضي دولة المماليك، فلم تلتزم هذه القوى بذلك، فرأى غازان أنه لن يستطيع تحقيق السيطرة على بلاد الشام بمفرده[4].

وكان غازان قد أرسل _ قبل السيطرة على دمشق _ رسالة إلى ملك قبرص ومقدمي الداوية والاسبتارية يعرض عليهم الانضمام إلى حملته، لكن لم يستجيبوا.

---

[1]أشتياني: تاريخ مغول، ص282. بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص325.

[2]إقبال: تاريخ المغول، ص287. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص42. القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص437.

[3]Andrew; The mongol world empire 1206 – 1370, p561.

[4]الجويني: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، ص605. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص55.

وبعد أن سيطر غازان على معظم بلاد الشام أرسل سفارة إلى روما صيف 700هـ / 1300م عرض فيها التحالف على الأوربيين، فسارع البابا بونيفاس الثامن لاستغلال هذه الفرصة الذهبية، فأرسل دعوات لكل الأوروبيين الموجودين في الشرق والغرب بالتوجه إلى الأماكن المقدسة[1].

ويشير المؤرخ الغربي هورث أن المساعدة الأوروبية كانت متعذرة لاضطراب الأحوال الداخلية في بلدانهم بشكل كبير ولا يسمح لهم بتقديم شيء، واقتصرت كل قضية الأوروبيين مع غازان على إرسال جيمس الثاني ملك أراغون رسالة في 18 مايو 1300م / 700هـ – قبيل رحيل المغول عن الشام – خاطب فيها جيمس غازان بـــ ((الملك الأقوى والأعظم ... ملك ملوك كل الشرق))، وعرض فيها جيمس المؤن والمتطوعة والخيل والسفن، مقابل إعطائه خُمس الأراضي المقدسة التي استولى عليها غازان في ذلك الوقت، وما سيسيطر عليه مستقبلاً، والسماح لرعايا جيمس بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أية ضرائب ورسوم، ومع ذلك لم يُنفذ شيء من هذه الرسالة[2].

ويرتبط بكل ذلك سبباً ثانياً جعل غازان ينسحب بسرعة؛ إذ وصلت إلى مسامعه تلك الاستعدادات المملوكية الضخمة التي جهزها الناصر محمد ضد مغول فارس.

وهذا يعني أن غازان لم يستطع أن يستثمر النصر الميداني الكبير على المماليك في معركة مجمع المروج، وبالتالي لم يحقق أي هدف ولم يستطع أن يسيطر على أية قلعة من قلاع بلاد الشام[3].

وذكر المؤرخ الغربي جون أندرو أن غازان بعد انسحابه من بلاد الشام، راسل سنة 700 هـ / 1300م البابا وأوروبة محرضاً إياهم على حرب ضد دولة المماليك، وقال في ذلك عبارة صريحة واضحة: ((إن حرب المماليك هي هدفنا الوحيد)) [4].

5_ أسباب انهزام المماليك:

ويبدو أن انهزام المماليك على هذا الشكل يعود إلى عدة عوامل:

---

[1] هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص133، 134.

[2] Howorth: History of the Mongols، Part 3، P.488.

[3] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص401. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص37، المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص900. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص55.

[4] Andrew; The mongol world empire 1206 – 1370, p562.

_ تفوق المغول في العدد والتجهيزات، فكما ذكر المقريزي أن عدد الجيش المملوكي بلغ بضعة وعشرين ألف فارس، والمغول في نحو مئة ألف.

_ إضعاف المؤامرة من قبل الأوراتية الروح المعنوية للقوات.

_ بروز الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير، مما أثار حسد باقي الأمراء وإحجامهم عن المشاركة في الحملة، فتناقص عدد أفراد الجيش.

_ افتقار الجيش المملوكي للإعداد النفسي مما جعل جنوده متخوفين من بطش المغول.

_ إنهاك الرجال والدواب نتيجة سرعة انتقال الجيش، فقد دأب السلطان على ملاقاة المغول قبل وصولهم إلى دمشق فقطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة.

_ سوء التدبير الذي رافق إعداد الحملة.

_ فشل الخطة العسكرية التي وضعها قادة المماليك لخوض المعركة القائمة على ضرب الجناحين وإخراجهما من ساحة القتال ثم ضرب القلب[1].

ثالثاً _ مراسلات الغرب مع المغول ومحاولات التحالف[2] :

بعد انتصار المغول في مجمع المروج أسرع الأرمن في قيليقيا والغرب الأوربي إلى إيفاد رسلهم إلى تبريز عاصمة الخانات المغول، مهنئين بالنصر، وهذا تصرف سياسي طبيعي تجاه الدولة التي انتصرت على المماليك الذين طردوهم من سواحل الشام وعدوا هذا الانتصار انتقاماً لهزائمهم

---

[1] انظر عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص 85.

[2] انظر

MICHAL BIRAN; DIPLOMACY AND CHANCELLERY PRACTICES IN THE CHAGATAID KHANATE: SOME PRELIMINARY REMARKS, Istituto per l'Oriente C. A. Nallino, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, LES RELATIONS DIPLOMATIQUES ENTRE LE MONDE MUSULMAN ET L'OCCIDENT LATIN (XIIE-XVIE SIÈCLE) (2008), pp. 369-393.

وهذا البحث يتحدث عن مراجع المراسلات والاتفاقيات لمغول فارس، وتحليلها بالتفصيل.

المتكررة، وقالوا من خلال سفرائهم أنهم مصممون على مساعدة غازان في هذه المرحلة الحرجة، آملين إخراج بلاد الشام ومصر من دائرة نفوذ المماليك وغيرهم من أمراء المسلمين.

فقد أرسل إليه جيمس الثاني ملك أراغونة رسالة أشاد فيها بانتصاره الكبير، ودعاه بإمبراطور الشرق، وأكد له أن رعاياه على استعداد بأن يساعدوه ويساندوه في حروبه ضد المماليك.

والراجح أن غازان كان مستعداً لأن يتنازل للغربيين أو الصليبيين عن بعض الأراضي التي سيستولي عليها في فلسطين.

ولأجل غرض التحالف أرسل سفراءه إلى إنكلترا وفرنسا من أجل تكوين حلف مغولي صليبي.

وجاء المبشِّر الإسباني الكبير ريمون للشرق قاصداً ديار غازان عندما سمع بنبأ انتصاره، ولكنه لم يلتق به.

ويبدو أن تبادل السفراء والمراسلات بين المغول والغرب الأوربي لم يسفر عن خطوات إيجابية، وقد أضاعت الدول الغربية فرصة كبيرة بالتحالف، فلو عرضت الدولة الغربية خطوات جادة للتحالف لكان القضاء على المماليك وشيكاً، ولكن الراجح _ كما يرى قاسم عبده قاسم _ أن الغرب خشي من الخان غازان فهو مسلم ولم يكن بوسعه عقد تحالف مع الغربيين، ولو تمَّ ذلك فلن يفي غازان بوعوده حسب اعتقادهم[1].

رابعاً _ محاولة غازان الثانية للسيطرة على بلاد الشام:

أثار فشل غازان بالسيطرة على بلاد الشام، ومن ثم عودتها إلى حضن المماليك، أثار حميته، فبدأ يتجهز لغزوها ثانية فتوجه إليها شتاء سنة 700هـ/1301م[2].

وإن الهزيمة التي حلَّت بالمماليك كانت درساً وعبرة للسلطان الناصر محمد ودافعاً إلى ضرورة استكمال النقص، والتخطيط السليم قبل الدخول في المعركة الثقيلة التي كان ينوي خوضها ضد المغول لمحو العار الذي لحق به، ولم ينتظر طويلاً حتى شرع في الاستعدادات للعودة إلى بلاد الشام واتخذ عدة خطوات تنفيذية لتقوية الجهاز العسكري، أهمها:

---

[1] قاسم، عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، دار الشرق، مصر القاهرة، ط1، 1994م، ص 178 – 180.

[2] العيني: عقد الجمان، تح: أمين، ج4، ص122– 128.

_ دعم قوة الجيش بالتجهيزات الكافية التي تسمح له بخوض المعركة، إذ طلب من عمال الأقاليم في مصر أن يجمعوا الخيول والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلي والبحري، كما استدعى قوات الاحتياط ممن تركوا الخدمة العسكرية.

_ طلب من نواب بلاد الشام التشدد في حماية ما في حوزتهم، وأخبرهم بما استقر عليه الرأي من العودة مرة ثانية إلى هذه البلاد[1].

_ فرض ضرائب جديدة وحث الأغنياء على التبرع بالمال.

علم المماليك بخروج غازان، فجهز السلطان الناصر محمد جيشاً وخرج به بنفسه أوائل صفر من سنة صفر700هـ/1301م، وتوجه نحو غزة، وتموضع هناك، لكن الأمطار الغزيرة وما سببته من سيول وأوحال وانقطاع الطرق ألزمته على ترك غزة والعودة إلى القاهرة بعد أن أوكل إلى الأميرين يعقوب الشهرزوري وسيف الدين بكتمر السلحدار ومعهما ألفي فارس بالتوجه نحو دمشق[2].

وفي 25 ربيع الآخر وصل جيش غازان إلى حلب، وجعلوها قاعدة للإغارة على ما جاورها من أنطاكية وشيزر وكفرطاب وأفامية وسرمين والمعرة وجبل السماق، وخلال ذلك عاثوا بالبلاد فساداً، وأسروا كثيراً من المسلمين.

وكما فعل الشتاء فعلته بالقوات المملوكية فعلها بقوات المغول، فألزمتهم الثلوج والأمطار على العودة إلى بلادهم[3]، وهذا يعني فشل غازان للمرة الثانية بالسيطرة على بلاد الشام.

ويظهر هنا أن غازان أراد اللجوء إلى المكيدة والسياسة والذكاء الدبلوماسي، فراسل المماليك في الوقت الذي كان يُراسل فيه الغرب وخاصة إدوار الأول ملك إنكلترا والبابا بونيفاس الثامن، وذلك سنة 701هـ / 1302م لتحقيق تحالف ضد دولة المماليك، فأرسل سفارة على رأسها بوسكاريللو، لكن أماني غازان خابت إذ أن ظروف الأوروبيين الداخلية المضطربة منعتهم من تقديم

---

[1] الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، ط2، 1982م، ج8، ص 26.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص305، 306. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص413. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص908، 909.

[3] النويري: نهاية الأرب، ج31، ص415. رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص168. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص132. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص908، 909.

أية مساعدة، من هذه المشاكل قضية اسكتلندا ومحاولات السيطرة عليها من قبل إدوارد، ومشكلة الملك الفرنسي مع البابا والتي نتج عنها نقل البابوية من روما إلى مدينة أفينون الفرنسية[1].

وقبل ذلك صلت رسله إلى القاهرة في الخامس من ذي الحجة 700هـ/ آب 1301، حملها وفد مؤلف من الفقيه كمال الدين موسى ابن يونس قاضي الموصل والأمير ناصر الدين علي خواجا ورجل آخر من المغول، وصل أعضاء الوفد إلى القاهرة واستقبلوا بحفاوة واجتمعوا بالسلطان والأمراء في القلعة، وخطب قاضي الموصل خطبة بليغة نوَّه فيها إلى الصلح ومن ثم عرض الرسالة التي يحملها من غازان. وقدموا للناصر محمد رسالة غازان التي لم تكن إلا تهديداً ووعيداً، وذكر فيها أن هجوم المماليك على ماردين هي التي دفعتهم لمهاجمة بلاد الشام، ثم عرض غازان على الناصر محمد الصلح وتقديم جزية سنوية والهدايا له وإقامة الخطبة والسكة باسمه، وتضمنت الرسالة التهديد بتدمير مصر إن لم يقبل الناصر هذا العرض[2].

وبالتالي يمكن تفنيد مطالب غازان بما يأتي:

_ أراد غازان أن يخضع بلاد الشام ومصر لكي يصبح وحده حامي الإسلام والمسلمين في المنطقة بدلاً من السلطان المملوكي الذي يشغل هذه المكانة.

_ عاب على السلطان مهاجمة أطراف بلاده من دون سبب، وتوعد بالانتقام إذا لم يكف عن ذلك.

_ حاول أن يبرر غزوه لبلاد الشام بين المسلمين.

_ اتهم حكام مصر بالظلم والخروج عن مقتضيات الإيمان الصحيح، في الوقت الذي أظهر شدة تمسكه بالإسلام، ومن الواضح أنه أراد من هذا الاتهام إظهار أحقيته في ولاية أمر المسلمين جميعاً بدلاً من السلطان بين محمد بن قلاوون.

_ ناشد السلطان باسم الدين أن يعمل على تلافي ما قد يقع من خراب وإراقة الدماء بالحرب.

_ هدَّد وتوعد إذا لم يتمثل لأمره بأن جيشه جاهز للمسير عند الضرورة.

_ طلب منه أن يعدَّ له بالهداية والتحف.

---

[1] هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص136.

[2] جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ص159.

_ ختم رسالته بقوله ((قد أعذر من أنذر وأنصف من حذر))[1] .

وجاء رد الناصر محمد في النقاط الآتية:

_ وجَّه له النقد لاستعانته بالكرج والأرمن على أبناء دينه.

_ رفض ادعاءه بمهاجمة المماليك لماردين وأن ذلك سبب هجومه على الشام.

_ طالبه بأن يُبادر هو بإرسال هدايا.

_ طالبه _ إن أراد الصلح _ أن يرسل رجلاً من كبار دولته ليتفاوض معه على ذلك.

_ رفض تهديدات غازان وأسلوب رسالته السلبي.

بمعنى آخر: كان رد السلطان محمد حاسماً، وينم عن قوة في القدرة العسكرية واستعداد كامل للحفاظ على المكانة الدينية والمكانة السلطانية في الحكم للمماليك.

فقد أوضح السلطان محمد أن المماليك أسبق في اعتناق الإسلام وهم أحق في حمايته من المغول، هذا ورفض رفضاً قاطعاً التنازل عن المكانة الإسلامية التي يتمتع بها وهي تبوء مركز الصدارة في حماية الإسلام والمسلمين، وهو بالتالي يرفض التبعية، فهو بذلك قصد أن يكون الند القوي للخان غازان وليس سلطاناً يخشى المغول وقوات غازان.

وبالنسبة لأمر الغارات المملوكية على أراضي المغول فقد وضع الأدلة والبراهين على أنّ المغول هم من بدؤوا بالاعتداء، وأن عمل جنوده في ماردين لم يكن له فيه أي رأي، وبالإضافة أن الطرفين على نزاع ولا يوجد صلح مما أطمع أمراء الأطراف بالإغارة، وأنّ رسله أتوا في وقت كانت الحرب قد اندلعت وهذا ما دفعه لسحبهم، هذا ورفض إرسال الهدايا حتى يبدأ هو بالإرسال في البداية.

وفي نهاية الرد أعرب السلطان عن رغبته في مصادقة غازان إن خفف من غلوائه وأرسل له الرسل ليؤكد على الصلح والعمل على ما فيه خير للبلدين[2].

---

[1] البدلسي: شرفنامة، ج2، ص19. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص52 – 56. طقوس: تاريخ المماليك، ص245، 246.

[2] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 66 – 69. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص431 وما بعد. طقوش: تاريخ المماليك، ص 246، 247.

وفي النتيجة؛ لم يصل غازان في أسلوبه هذا إلى شيء، ولم يُلبى أي طلب في رسالته.

ويظهر أن ذلك كان سبب توجهه عسكرياً إلى الشام للمرة الثالثة إذ وصلت في صفر 702هـ/ 1302م أخبار مسير جيوش غازان إلى بلاد الشام[1].

خامساً _ **هجوم غازان الثالث على بلاد الشام ومعارك القريتين وعرض وشقحب:**

1_ موقعة القريتين 702هـ/1303م:

بعد أن أنكسر المغول على الكوم _ كما سيأتي _ عادوا إلى ملكهم غازان الذي جهزا جيشاً كبيراً بقيادة نائبه قطلوشاه والقائد جوبان، واتخذ غازان من قيام المماليك بحملة عسكرية على بلاد سيس في أرمينيا أواخر سنة 701هـ / 1302 م لتأديب ملك الأرمن على تأخيره في إرسال الجزية لسلطان مصر ذريعة لمعاودة الهجوم على بلاد الشام، فزحف على رأس جيشه وتوجه إلى الشام في صفر 702هـ/ 1302م فوصل إلى الرحبة وساق منها رهائن وعاد إلى بلاده موكلاً متابعة الهجوم إلى قوة عسكرية بقيادة نائبه قطلوشاه مع فرقة من الأرمن وفرقة من الجورجيين، وحاول هنا قطلوشاه أن يستميل عز الدين أيبك الأفرم نائب دمشق[2].

بدأ المماليك استعداداتهم: فتم تجميع قوات حمص وحماه وحلب وطرابلس وبعض قوات دمشق في حماه، ووجه السلطان الناصر في رجب 702هـ/1303م قوة من القاهرة باتجاه دمشق، وكانت بقيادة الأمير بيبرس الجاشنكير[3].

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص146. النويري: نهاية الأرب، ج31، ص426 – 435. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص27 – 30.

[2] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص241. بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص325 – 332. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 66–70. العمري: مسالك الأبصار، م27، ص492. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص146 – 157. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص57. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ج2، ص357.

[3] بيبرس الدوادار: زبدة الفكر، ج9، ص325–331. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص930. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص387.

واثناء ذلك قصد المغول بلاد الشام، وأقاموا على الفرات مدة، ثم توجهوا إلى القريتين قرب حمص، وقاموا بأعمال القتل والسلب والنهب، فاستنجد سكانها التركمان بالمماليك، فخرجت القوات المملوكية المتجمعة في حماة والتقت مع قوات المغول في البادية عند الكوم في الصحراء شمالي تدمر في 10 شعبان 702 هـــ أول نيسان 1302م، وحاصرت قوات المماليك المغول وحصل القتال قرب عُرض[1] اثناء انسحاب المغول من القريتين[2]، وهُزم المغول وولوا منهزمين[3].وأباد المماليك معظم الحملة المغولية، وأسروا 180 منهم، وخلصوا منها 6000 من أسرى التركمان.

2_ معركة عُرض:

تمت هذه المعركة أثناء انسحاب المغول من القريتين بعد فشل محاولات إحلال السلام بين الدولتين المملوكية والمغولية، فقرّر غازان غزو بلاد الشام مرة أخرى فقاد في جمادى الثانية سنة 702هـــ / شهر شباط عام 1303م جيشاً جراراً عبر به الفرات ونزل في الحلّة حيث زار مهد الإمام الحسين في كربلاء، ووزع الهدايا وتعطف على العلماء والمشايخ محاولاً كسب الرأي العام الإسلامي، ثم تقدم إلى عانة، وبعدها انتقل إلى الرحبة على الساحل الأيمن لنهر الفرات بين عانة والرقة وحاصرها واستسلمت له.

ومن الرحبة حاول استمالت نائب الشام المملوكي عز الدين أيبك الأفرم فأرسل إليه كتاب يوضح أنه ليس معتدياً وأن الشام لم تكن يوماً تابعة لمصر، وعرض عليه الدخول في طاعته.

غادر غازان الرحبة تاركاً مهمة قيادة الجيش لقائده قطلو شاه موجهاً إياه للاستيلاء على بلاد الشام، فعبر غازان الفرات وسار إلى سنجار ثم عبر دجلة وتوجه إلى مدينة كشف وأقام فيها معسكره ينتظر نتائج المعركة المرتقبة.

وهنا حاول السلطان محمد استقطاب بعض قادة غازان المقربين وبعض مستشاريه، كما ذكرت بعض المصادر.

---

[1] تقع بين تدمر والرصافة، وتُحسب من أعمال حلب. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص103، مادة عرض.

[2] من قرى حمص، معروفة إلى اليوم. الحموي: معجم البلدان، مادة قريتان.

[3] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص387. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص931. العمري: مسالك الأبصار، م27، ص492. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ص246. المنصوري: التحفة الملوكية، ص164. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ج2، ص357.

وسار قطلو شاه إلى بلاد الشام على رأس جيش جرار تقول المصادر أنه حوالي الثمانين ألف أو مئة ألف ونزل عند نهر الفرات، ومن بعدها توجه إلى حماة[1].

ومن جهة المماليك استعد السلطان قلاوون للقاء بالعدو فاختار صفوة قادته لقيادة الجيش وأرسل جيشاً على رأسه الأمير بيبرس الجاشنكير فدخل دمشق وأرسل إلى السلطان يطلعه على الأوضاع ويستعجله بالخروج إلى بلاد الشام.

أرسل قطلو شاه فرقة عسكرية بقصد للاستطلاع من جهة و بث الرعب والخوف بين السكان من جهة أخرى، ومارس أعمال السرقة والنهب.

وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف من الجنود وموجهة إلى القريتين، وقد استطاع نائب طرابلس التصدي لهم في موضع عُرض، وكان معه ألف وخمسمائة جندي، وقد استمرت المعركة لساعات، استطاع فيها نائب طرابلس تحقيق نصر كبير للمماليك، وأُسر حوالي ألف وثمانمئة من المغول ومئة وثمانين من الأرمن، رافعاً معنويات المماليك في بلاد الشام، وشجع الجند على قتال المغول بعد موقعة الخازندار الخاسرة[2].

3-موقعة شقحب (مرج الصفر) 702هـ/1303م:

لم يقنع غازان بانتصاره في مجمع المروج، فأراد تحقيق نصر حاسم يُنهي دولة المماليك إلى الأبد، وكانت الأوضاع في إجمالها ما تزال لصالحه، فالسلطان محمد ما يزال ضعيفاً فاقداً السلطة والخبرة، والأمر في الحكم لغيره وهو لم يتحرك من القاهرة ولا تهمُّه الشام على حد قول أهل دمشق، والناس في الشام وبخاصة في حلب ودمشق كانوا في حالة رهيبة من الهلع والقلق واليأس والخوف، لا سيما والأخبار ترد كل يوم بدخول المغول إلى الشام من هنا وهناك، ولذلك بدؤوا بالهروب إلى مصر، وهرب بعضهم إلى الحجاز واليمن.

وبينما الناس في هذا الوضع الرهيب وصلت الأخبار إلى دمشق في أول المحرم سنة 700 هـ / 1300م بأن قطلو شاه قائد المغول تحرك نحو الشام. وبعد أسبوعين وصلت الأخبار بأن غازان نفسه قد عبر الفرات وعسكر في موقع صفين، ثم تقدم نحو حلب وعاث في الشمال فساداً ودخل

---

[1] المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص 930.

[2] أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص 358.

المعرَّة و شيزر وأنطاكية وغيرها وأسر عدداً كبيراً من المسلمين من الرجال والنساء، وصار هؤلاء يُباعون في بلاد الأرمن بيع العبيد وبأسعار زهيدة، وقد اشترى ملك كيليكية عدداً كبيراً منهم[1].

على كل حال: أخبر الناجون في وقعة القريتين قطلوشاه أن السلطان الناصر محمد لازال في مصر، وأنه ليس بالشام سوى العسكر الشامي، فعد قطلوشاه ذلك فرصة للسيطرة على دمشق، فتوجه إلى حماه في 23 شعبان.

فكتب الأمراء من الشام إلى الناصر محمد في مصر يبشرونه بالنصر في القريتين وعُرض، ويشيرون عليه بالخروج إلى الشام[2].

كما كتب علماء الشام إلى السلطان الناصر محمد في ربيع سنة 702 هــ / 1303م، فقالوا: «في هذا العام جاء العدو من الشمال، فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، لعظم البلاء، ولا سيما عندما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر وتوجه العدو إلى دمشق، هذا يظن أنه لا يقف أمام المغول أحد من جند الشام، وهذا يظن أن الشام ما عادت تسكن لأنها صارت للمغول، وهذا يظن أنهم يأخذون الشام، ثم يذهبون إلى مصر فيأخذونها، فُيحدث نفسه بالذهاب إلى اليمن، وأحسنُ الناس ظناً يقولون: إن المغول يملكون الشام هذا العام، ثم قد يخرج الجيش المصري فيعيدها منهم»[3].

بكل الأحوال تحرك غازان في رجب 702 هــ / شباط 1303م من تبريز، ووصل إلى الرحبة على الفرات في شعبان، ثم غادرها إلى حلب، ثم عاد فجأة إلى بلاده وعهد بقيادة الحملة إلى قطلو شاه، وأقام في العراق يتابع أخبار جيشه الجرَّار الذي تراوح عدده بين 80000 و90000 مقاتل معظمهم من الفرسان، تقدم هذا الجيش نحو حماة ووصلها يوم 23 شعبان وانسحبت قوات حماة مع حاكمها الأمير زين الدين كتبغا قبل وصول التتار تنفيذاً للخطة التي وضعها حكام الشام فيما بينهم والتي تتلخص بالاجتماع في دمشق ومواجهة التتار في ضواحيها.

وهنا يذكر أبو الفداء الذي شارك في هذه المعركة: ((سار زين الدين كتبغا في محفَّة من حماه وأخرني في حماة لكشف أخبار التتار، فلما شاهدتهم يوم الجمعة 23 شعبان لحقت به وأدركته في

---

[1] بدر: مغول إيران، ص95.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص333. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص388. العيني: عقد الجمان، ج4، ص222.

[3] عبد الهادي، محمد: العقود الدرّية، القاهرة، 1934م، ص147 –149.

القطيفة وأعلمته الحال، وسارت العساكر الإسلامية إلى دمشق، واجتمعوا في مرج الزنبقية ظاهر دمشق، ثم ساروا إلى مرج الصُفَّر جنوب دمشق ينتظرون السلطان))[1].

وتوجهت القوات المتجمعة في حماة نحو دمشق للقاء الجيش المصري المخيم بمرج راهط، فالتقت في القطيفة بالكشافة المصرية التي كانت بقيادة المؤرخ بيبرس الدوادار، واجتمعت جموع الجيوش في مرج الزنبقة ومن ثم ساروا إلى مرج الصفر قرب الكسوة وهو المسمى بشقحب تحت غباغب، ثم تراجع الجميع نحو الكسوة ينتظرون السلطان الناصر محمد، الذي وصل بعساكره وجموعه إلى دمشق قادماً من غزة في شهر رمضان سنة 702هـ/ 1302 م في حين ظن القائدان المغوليان قطلوشاه وجوبان بأن السلطان لم يخرج من مصر، وتلاقت القوات المملوكية عند عقبة شحورا بين دمشق والكسوة في أول شهر رمضان 702هـ/1303م، حيث تم تنظيم الجيش[2].

وكان الملك الناصر قد أرسل الجاشنكير ولاجين الاستادار المنصوري إلى الشام لكي يجهز الجيش للدفاع عن دمشق وتطمين الأهالي بقدوم السلطان على رأس جيش قوي.

وفعلاً خرج السلطان محمد على رأس جيش قوي وبصحبته الخليفة العباسي المستكفي بالله، وأناب عنه بالديار المصرية الأمير عز الدين أيبك البغدادي[3].

وفي هذه المرحلة كان المغول في تقدم مستمر، وحصل الارتباك في حلب وحماة وحمص بعد تقهقر القوات الحلبية والحموية إلى حمص، وظلّ التقدم حتى وصلوا حمص وبعلبك وعاثوا فيها خراباً وتدميراً وفساداً، وانتاب الناس القلق مجدداً لأن جيش الشام مع القوات الموجودة في المنطقة لا تستطيع وحدها الوقوف في وجه المغول لكثرتهم العددية.

واجتمعت القوات الهاربة من المغول بمرج الصفّر مع القوات الموجودة وقرّر الأمراء والأعيان رغم قلة العدد والعدة الخروج لملاقاة العدو.

---

[1] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص388 – 390.

[2] بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، 333، 334. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص932. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص388.

[3] المقريزي، السلوك ج1، ق3، ص931 وما بعد.

تعبأ الجيشان استعداداً للمعركة، فكان على رأس الجيش المملوكي وفي القلب تحديداً السلطان محمد بن قلاوون وبجانبه الأمراء سلار وبيبرس وأيبك الخازندار وبكتمر وغيرهم، وتمركز لاجين وغيره على يمين السلطان.

وفي الميمنة وقف الأمر قبجق بعساكر حماة والعربان، في حين وقف على رأس ميسرة الجيش الأمير بكتاش الفخري والأمير قراسنقر بعساكر حلب. واستعرض السلطان بصحبة الخليفة الجيش ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد.

وأيضاً راح الأميران سلار والجاشنكير والأمير قبجق يدورون طول الليل على الجنود يحثونهم على الجهاد ويقوون من عزيمتهم على القتال ويطمئنونهم ويؤكدون على ضرورة اليقظة والتأهب فالعدو غدار لا مجال لتراخي معه[1].

وهنا يذكر النويري _ شاهد العيان على هذه المعركة _: «وكنت يومذاك في دمشق، فخرجت منها والتحقت بالعسكر، ووجدت الناس قد ازدحموا على أبواب دمشق زحاماً شديداً وقد ذُهلوا عن أموالهم وأهلهم، وأقمنا بالمرج يوم الخميس ويوم الجمعة، فلما كان ليلة السبت ثاني رمضان علمنا بقرب العدو منَّا، فلم ننزل عن خيولنا . وفي صباح السبت أرسل الله مطراً غزيراً لمدة ساعتين، وعند الظهر أقبل التتار كقِطْع الليل المظلم وأقبل السلطان في ساعة واحدة . والتقى الأمراء بالسلطان عند عقبة شحورا – بين دمشق والكسوة – واتفقوا على لقاء التتار تحت جبل غباغب ووقف قطلوشاه في أعلى النهر وكانت المعركة في مرج الصُفَّر»[2].

وفي يوم السبت ثاني شهر رمضان 702 هـ/نيسان 1303م، وعند شقحب قرب مرج الصفر، تحت جبل غباغب في حوران، حدثت المعركة بين الجيشين، واستمرت ثلاثة أيام[3].

في اليوم الأول: ظهر السبت، هجمت جحافل المغول كالسيل، وكانت خطتهم توجيه ضربة قاضية إلى الميمنة وبعد ذلك ينهار القلب ومعه الميسرة كما حصل في مجمع المروج، فكانت انطلاقة المعركة عندما زحفت كراديس المغول ضد ميمنة المماليك التي كانت بقيادة الأمير حسام الدين

---

[1] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص 388. ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص 23. ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص 413 – 414.

[2] النويري: نهاية الأرب، ج32، ص29، 30.

[3] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص388. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص932.

الأستاذدار، لكن الميمنة ثبتت وقاتلت قتالاً شديداً، وقتل قائدهم حسام الدين لاجين واستشهد من أفرادها قرابة ألف رجل، فأردفهم القلب والميسرة فانتظم أمر الجيش تماماً.

ثم حققت ميسرة المماليك وقلبهم نصراً كبيراً على المغول، فاعتصموا مع حلول المساء بأعلى جبل غباغب.

وزاد الطين بلة على المغول فرار أحد قادتهم وهو بولاي مع من عشرين ألف فارس، فكان ذلك بداية الخذلان، وحجز الليل بين الفريقين وعاد المنهزمون فوجاً بعد فوج.

وفي تطور جديد أحاط جيش المماليك بجبل غباغب، في الوقت الذي اعتلى فيه قطلوشاه الجبل، وظن أن جيش المغول حقق النصر وأن بولاي لم يهرب وإنما لاحق فلول المماليك، لكن أحد الأسرى أخبره بوصول السلطان الناصر موقع المعركة.

وفي اليوم الثاني: اشتدت إحاطة المماليك بالمغول وهلكت خيلهم عطشاً، فحاولوا الفرار، فترك لهم جيش المماليك ثغرة هربوا منها، باستثناء فرقة مقدمهم طيطق، فهاجمهم المماليك وقضوا عليهم.

وفي اليوم الثالث: لم يبق أمام المماليك سوى مطاردة فلول المغول الهاربة، وقتلوا منهم أعداد كبيرة لدرجة أن قطلوشاه لم يعبر معه الفرات إلا القلائل، فغرق معظمهم، وأسر الأعراب منهم جماعات(1).

وعاد من المغول من كل عشرة واحد، أي أنه لم يعد من الستين ألفاً إلا ستة آلاف.

وبعد المعركة خرج والي البر فجمع شهداء المسلمين ودفنهم في موضع واحد، وبنى عليهم قبة.

ووصلت أخبار النصر العظيم إلى دمشق، ودخل السلطان ونزل بالقصر الأبلق، فخرجت دمشق لاستقباله عن بكرة أبيها، ولم يتخلف أحد حتى الصبيان والنسوان، وسافر بعدها إلى القاهرة بعد العيد ودخلها يوم 23 شوال، وخرج الناس إلى لقائه وأقيمت الزينات في أنحاء مصر.

---

(1) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج9، ص335-337. المنصوري: التحفة الملوكية، ص165. النويري: نهاية الأرب، ج32، ص29، أبو الفداء: المختصر، ج2، ص388. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص935- 937. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج27، ص493. ابن خلدون: العبر، ص 478، 479. حومد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ج2، 357، 358.

ولا بد من ذكر أن الأرمن والكرج قاتلوا بضراوة شديدة، إلا أن معظمهم لقي مصرعه، ولم ينجُ من الـــ 30000 منهم إلا 500 جندي فقط[1].

أما غازان فإنه بعد هذه الهزيمة المذلة، أرسل من بغداد إلى السلطان المملوكي يهين من ذلك بقوله: ((ما جئنا هذه المرة إلا للفرجةِ في الشام))، فرد عليه الشاعر علاء الدين الوداعي وقال:

قولوا لغازان بأن جيوشه جاؤوا ففرَّجناهم بالشامِ

في سرحة المرج التي هاماتهم منثورها وشقائق الأجسامِ

ما كان أشأمها عليهم فُرجةً غمَّت وأبركها على الإسلام[2].

ومما يدل على عظمة الانتصار في هذه المعركة الأمور الآتية:

_ بقاء الناصر محمد في دمشق طيلة شهر رمضان يحتفل بهذا النصر، ثم عاد إلى القاهرة في شوال واستكمل الاحتفالات فيها[3].

_ إرسال السلطان الناصر محمد رسالة استهزائية إلى غازان طالباً منه ترك العراق للخلافة العباسية.

_ تمثل هذه المعركة آخر الحملات المغولية الكبيرة إلى بلاد الشام.

_ وتعد هذه المعركة بمثابة إعلان سيادة المماليك على حوض البحر المتوسط الشرقي.

_ وبسبب هذه المعركة تراجع المغول إلى بلادهم، فأصبح الطريق مفتوحاً نحو أرمينيا الصغرى[4].

_ موت غازان سنة 703هــ/1303م كمداً وحزناً من هذه الهزيمة، وقد أكد على ذلك المؤرخ أبو الفداء الذي شارك في هذه المعركة[1].

---

[1] بدر: مغول إيران، ص118. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص27 – 31.

[2] الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2، 1962م، ج4، ص360.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص938، 939.

[4] شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص288 .

وفي رواية فارسية أنه قبل موته غضب غضبا شديداً من الهزيمة إلى درجة أن الدم صار يسيل من أنفه، ولإطفاء غضبه قام بإعدام بعض الأمراء المنهزمين وضرب الآخرين[2].

إذ كان الطرف المهزوم قد أوصل نتائج المعركة للخان غازان الذي اغتم واكتئب، وذلك أنّه لم يذق طعم الهزيمة من قبل، وزاد في يأسه وغضبه كتاب السلطان محمد الذي حقّر فيه من شأن غازان وتهكم عليه في سخرية لاذعة، وطالبه بالجلاء الفوري عن العراق وتركها للخليفة الشرعي وهدده قائلاً: ((وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعما قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لا ينفع الندم)).

وأما عامة المغول، فقد اضطربوا اضطراباً شديداً، وهلع أهل تبريز للقاء المهزومين أسوا استقبال، ليقفوا منهم على أسباب الهزيمة وليعرفوا من فقد منهم، حتى إذا وقفوا على الحقيقة القاسية علت الصرخات وعمّ الحزن، وقامت النياحة على القتلى مدة شهرين كاملين[3].

ولقد دفع الحزن بالخان إلى أن ينزل أقصى العقوبات بقادته المقصرين ولم ينجوا قطلو شاه من سخطه حيث أمر بقتله، ثمّ تراجع عن ذلك بعد تدخل الأمراء وعفا عنه ولكن طرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان.

_ لقد كان لوقعة شقحب أثر كبير في كلا الطرفين، ففي الجانب المنتصر علا شان السلطان محمد وارتفع وذاع سيطه، حتى ملوك أوربا نظروا له نظرة البطل المحرر، وساد هدوء وازدهار في عهده في مصر نتيجة لركود الثورات وحب الناس للسلطان محمد بن قلاوون.

وأما الجانب المهزوم فقد كانت موقعة شقحب إيذاناً بأفول نجم غازان فبالإضافة إلى الخسارة الجسيمة التي مني بها فقد كثرت الدسائس والمؤامرات في بلاده من قبل أمراء المغول لخلعه من

---

(1) المقريزي: السلوك ،ج1، ق3، ص938 – 954. البدليسي: شرفنامة، ج2، ص19. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ص58.

(2) آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص144.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص 937.

العرش، ونقم الشعب عليه لأنه جرهم إلى هذه الهزيمة المروعة، فمن الطبيعي أن تؤثر عليه أشد التأثير فمات هماً وغماً وهو في ريعان شبابه، إذ لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثون من عمره[1].

_ وهنا لا بد من ذكر قضية تتعلق بقدرة الناصر محمد على استغلال الظروف المواتية من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية المباشرة بين البلاطين القفجاقي والمملوكي، أو بعبارة أكثر دقة بين الملك طقطا والناصر محمد بن قلاوون في فترة حكمه الثانية (698- 708هـ / 1298- 1308م).

وهذا يدل من غير شك على أن الروابط الحسنة كانت قائمة بين دولتي المماليك ومغول القفجاق إلى درجة أن طقطا يعرض استعداده لمساعدة الناصر محمد في محاربة غازان، وهذا الأخير لا يتردد في القيام بخطوة إيجابية من أجل دعم هذه العلاقات الطيبة، ويبادر بإرسال سفير من قبله هو الأمير بلبان الصرخدي، من أجل أن ينقل إلى طقطا تحيات الناصر محمد، وشكره الخالص، وأمله في توطيد العلاقات الطيبة بين البلدين.

ومن جانب آخر نلاحظ أن ابن الدواداري يرى أن قدوم هذه السفارة القفجاقية إلى الناصر محمد تعرض عليه المساعدة والتحالف ضد مغول فارس، كان هو السبب الذي جعل خربندا خان مغول فارس يسارع بالمبادرة في الكتابة إلى الناصر محمد طالباً الصلح[2].

ويبدو أنه كان من أثر هذه السياسة الودية التي انتهجها الناصر محمد أن طقطا ما لبث أن أرسل بعد سنتين سفيره نامون إلى مصر، حاملاً معه هدية جليلة إلى الناصر محمد.

إذن، فالملك طقطقا يحاول عن طريق بعث هؤلاء الرسل، والكتب الدبلوماسية، أن يصل إلى حلف مع دولة المماليك من أجل تطويق دولة مغول فارس، فتتيح له هذه الاستراتيجية الحربية في التخطيط العسكري الاستيلاء على ما يريد من أراضي مغول فارس، إذ سيترتب على ذلك تقسيم الجيش المغولي إلى قسمين، يحارب القسم الأول في الجبهة العسكرية الغربية ضد المماليك، في حين يقاتل القسم الثاني في الجبهة الأخرى ضد مغول القفجاق. وهذا الأمر سيؤدي لا ريب إلى إضعاف جيش خربندا، وبالتالي إنزال الهزيمة به، والقضاء على ملكه.

ومن ثم يمكننا القول أنه كانت هناك مصالح سياسية تقف وراء السياسة الدبلوماسية الودية التي كان يسلكها طقطا في علاقته مع دولة المماليك.

---

(1) العيني، عقد الجمان، تح: محمد أمين، ج4، ص 247 – 251.

(2) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص20.

على أية حال فقد استمرت المراسلات الدبلوماسية بين الطرفين مما يدل على رغبة طقطا في توثيق علاقاته مع دولة المماليك، كما أن الناصر لا يضيره أن يوطد روابط الصداقة والمودة مع دولة كبيرة، وقوية، ولعله كان يفكر باحتمال ظهور الحاجة إلى التعاون مع هذه الدولة، ولذا نجده مستمراً في اعتماد هذا المسلك الدبلوماسي(1).

وينهي البحث هذه الفقرة بالاستشها بشهادات بعض المؤرخين عن هذه المعركة، إذ وصفها النويري الذي اشترك بهذه العبارات: ((وكنت، يوم ذاك، بدمشق، فخرجت منه بعد أن أعددت لأمة الحرب، والتحقت بالعساكر، ووجدت الجفال قد ازدحموا بالأبواب زحاماً شديداً، وقد ذهلوا عن أموالهم وأولادهم، ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى، فوجدتهم قد توجهوا إلى مرج الصفر، ولحقت بالجيوش يوم الخميس في التاسع والعشرين من شهر شعبان، وهو سلخه، وأقمنا بالمرج يومي الخميس والجمعة، فلما كان في ليلة السبت المسفرة عن ثاني شهر رمضان دارت النقباء على العساكر وأخبروهم أن العدو قرب منهم، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد في تلك الليلة، وأنه متى دهمهم العدو يركبون خيولهم، ويكون الاجتماع عند قرية الهجة قرب خربة اللوص، فبتنا في تلك الليلة وليس منا إلا من لبس لأمة الحرب، وأمسك عنان فرسه بيده، وتساوى في ذلك الأمير والمأمور ... فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر، فصلينا وركبنا، واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس، وارتفع النهار في يوم السبت المذكور، ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين، ثم ظهرت الشمس، ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال، وأقبل التتار كقطع الليل المظلم، وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة))(2).

ويروي ابن بطوطة: ((لما وصل غازان ملك التتار إلى الشام بعساكره، وملك جيشه دمشق، ماعدا قلعتها، خرج الملك الناصر إلى مدافعته، ووقع اللقاء الحاسم على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له شقحب، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع، وكان يصحب السلطان في هذه الحملة شيخ من أولياء الله الصالحين اسمه محمد العريان، فنزل وأخذ قيداً قيَّد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عن اللقاء لحداثة سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين، فثبت الملك الناصر،

---

(1) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص21، 22.

(2) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص 326.

وهزم التتار هزيمة شنعاء، قتل منهم فيها كثير بما أرسل عليهم من المياه، ولم يعد التتار إلى قصد بلاد الإسلام بعدها))[1].

سادساً _ مناقشة حقيقة إسلام غازان:

يناقش البحث هذه القضية لما لها من منعكسات على الصراع المملوكي الإيلخاني، إذ كان غازان بوذياً قبل أن يعتنق الإسلام، وقد شبَّ عليها، وكان يُسر كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين، وبنى لهم معابد عديدة في خراسان، وكانت علاقاته وطيدة مع كهنة البوذيين الذين وفدوا إلى بلاد فارس في جماعات كثيرة منذ بسط المغول سلطانهم في تلك البلاد.

أعلن غازان اعتناقه الدين الإسلامي سنة 694 هـ / 1295م، على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم الجويني، وتَسمَّى باسم محمود، وسمَّى أخاه أولجايتو محمد، وأعلن معه الإسلام الآلاف من أمرائه وجنوده، فأعلن مثلاً أحد أمراءه وهو فيروز كوه وثمانون ألفاً من أتباعه وصناديد قومه من المغول تحولهم إلى الإسلام.

ووزع غازان في هذه المناسبة كثيراً من العطايا والأموال على المشايخ والعلماء، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على الناس، ثم زار المساجد ومقابر الأولياء.

ويعود الفضل الحقيقي في إسلام غازان إلى قائد جيشه نوروز الذي سلك معه أساليب متعددة لإقناعه باعتناق الإسلام، وتعلَّم منه الآيات القرآنية والصلاة، فكان منه أن صام رمضان عام 694 هـ / 1295م.

وقد اختلف في سبب إسلامه ومدى إخلاصه، فقيل أنه أسلم لكسب تأييد المسلمين الذين يؤلفون غالبية شعبه ضد عدوه وعدوهم بايدو. وقيل كان بضغط وإلحاح من قائده نوروز، وتوسلات من بعض أمرائه وبعض المشايخ.

وقد شكك البعض بصحة إسلام غازان، وأن ذلك كان لمصالح دولته وتوسعاته، واستدلوا على ذلك بأدلة منها سلوك غازان العنيف ضد بلاد الشام عند احتلاله لها، إذ لم يكن سلوكاً إسلامياً حيث تصرف كسلوك أسلافه الوثنيين.

---

[1] ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، لبنان، بيروت، ط1، 1960م.

ولكن غازان من وجهة أخرى حقق إنجازات عظيمة صبَّت في صالح دينه الجديد، إذ أنه جعل الإسلام دين دولته الرسمي، وأصدر مرسوماً أمر فيه المغول باعتناق الإسلام، وزاد عدد المساجد، وأصبح قادة الجيش والقضاة من المسلمين، كما حارب الخمر والربا والبغاء، وخصص اعتمادات مالية كبيرة للحج وأرسل كساء للكعبة.

كما شهدت مناطق آسيا في عهده وخاصة في إيران خدمات جليلة قدمت للإسلام والمسلمين، وأصدر عملة إسلامية نقش عليها شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما أمر أن تتوج رؤوس الكتب والمنشورات والفرمانات بعبارة الله أكبر.

وسعى محمود غازان نحو تأكيد وتعميق هوية دولته الإسلامية فبذل كل ما في وسعه لتحطيم كل ما هو وثني، فحطم معابد الوثنية بما فيها معبد أبيه الفخم الذي كان مثالاً لمعابد البوذية، وأخذ يصبغ إدارات الدولة بالصبغة الإسلامية، فجعل أعوانه من الوزراء والقواد والكتَّاب والموظفين من المسلمين خاصة، كما أنه عهد إلى نوروز بمنصب أمير الأمراء وجعله قائداً عاماً للجيش.

ونتيجة لاعتناق غازان الإسلام كان لابد من تغيير سلوك المغول وقواعدهم ومقرراتهم، إذ لم يعد هناك مفر من العدول عن العمل بقواعد الياسا (قوانين مغولية) التي وضعها جنكيز خان، وترك عادات المغول وتقاليدهم القديمة، وهذا ما دفع غازان إلى إنجاز عظيم آخر، بوضعه ياسا جديدة عُرفت باسم «الياسا الغازانية»، وكانت أرقى وأنسب للحياة الجديدة من ياسا جنكيزخان، وظهرت فيها تأثيرات الحضارة الإسلامية.

بل إنه حين توفي سنة 703 هـ / 1304م، أوصى الحاضرين وهو على فراش الموت بالتمسك بأهداب الدين الإسلامي [1].

---

[1] انظر الهمداني: جامع التواريخ، تاريخ المغول، ج1، ص15. فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص82. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص144 – 146. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، سوريا، بحث: غازان. وانظر عبد الرحيم، رجب: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية. مهنا، محمد نصر: الإسلام في آسيا، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، 991م.

وبناء على طلب الأمير نوروز أصدر غازان أمراً بأن تكون الأختام الحكومية منقوشة بكلمة الشهادتين، وأن تستهل الرسائل بـــ (بسم الله الرحم الرحيم)، وأن تسك العملات باسم غازان مراعية النقش بكلمة الشهادتين بالإضافة إلى أسماء الخلفاء الأربعة جرياً على رسوم العهد العباسي[1].

ويأتي البحث إلى بعض أسباب المشككين بإسلام غازان، واستدلوا على ذلك بإشارات متعددة؛ منها:

_ قضية تزوج غازان من زوجة أبيه، إذ لما أعلن إسلامه، قيل له إن الإسلام نهى الزواج من زوجات الأب، فوجد نفسه في موقف مستحيل من الناحية القانونية، حتى أنه عزم على التخلي عن الإسلام إذا كان هذا الدين لا يبيح زواجه من بولغان خاتون، وهنا وجد له أحد العلماء مخرجاً حين أفتى أن أرغون كان وثنياً حين تزوج من بولغان وبالتالي لم يكن زواجه قانونياً، وهذا يبيح لغازان بالزواج من بولغان، ففرح غازان جداً بهذا الحل. هذه الحادثة تشير إلى أن التزام غازان بالإسلام لم يكن عميقاً جداً[2].

وهنا يقول ابن حجر العسقلاني: «إن غازان لمَّا أسلم قيل له: إن الإسلام يحرم الزواج بزوجة الأب – وكان متزوجاً بامرأة أبيه بلغان خاتون – وكانت أثيرةً لديه، فهمَّ أن يرتدَّ عن الإسلام، لولا أن أفتى له بعضهم بأن عقد أبيه عليها باطل وعقده هو الصحيح، وعندما دخل غازان دمشق لم يُصلِ في جامعها ولا في غيره وإنما أقام في المرج، يعاقر الخمرة مع أصحابه»[3].

---

[1] انظر آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص136.

[2] Reuven Amitai-Preiss; Ghazan, Islam and Mongol Tradition: A View from the Mamlūk sultanate, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 59, No. 1 (1996), pp. 2-10.

[3] ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديث، القاهرة، 1966م، م3، ص293.

_ وهناك إشارة من رشيد الدين الهمذاني الذي يذكر أن غازان كان داعماً قوياً للياسا في أيام الشباب، وكان يجمع أصحابه ويعلمهم إياها. ويظهر من الأحداث التالية لحكم غازان أن الالتزام بالياسا قد خف، وصار غازان ينسب أي إنجاز لسيفه.

_ هناك إشارات متناثرة تدل على ممارسة غازان المستمرة للطقوس الوثنية والشامانية.

لذلك ممكن أن نستخلص أن غازان قد حافظ على جوانب مختلفة من عادات المغول وتقاليدها، والكثير منها صراحة يتناقض مع تعاليم دينه الجديد، وهذا ينطبق على إسلام المغول ككل.

وهذا ما دفع عدداً من العلماء للتشكيك بإسلام المغول وإسلام غازان عند هجومه الثالث على بلاد الشام 702هـ/1303م.

ومن بين الأسباب التي يُستشهد بها كانت أن العديد من المغول كانوا لا يتقيدون بأوامر الشريعة الإسلامية مثل الحج والصيام[1].

_ وهنالك بحث يناقش أن المغول وغازان تحولوا إلى الإسلام الشيعي، ويناقش علاقة مغول فارس بالتصوف وأثره في تحولهم إلى الإسلام[2].

_ ومن ذلك أنه راسل البابا بانونيفاس الثامن سنة 699 هـ / 1300م محرضاً له على حرب صليبية ضد المماليك، ووعده بفلسطين مقابل ذلك[1].

---

[1] Reuven Amitai-Preiss; Ghazan, Islam and Mongol Tradition: A View from the Mamlūk sultanate, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 59, No. 1 (1996), pp. 2-10.

آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص144 – 146.

[2] Judith Pfeiffer; Conversion Versions: Sultan Öljeytü's Conversion to Shi'ism (709/1309) in Muslim Narrative, Mongolia Society, Mongolian Studies, Vol. 22 (1999), pp. 35-67.

فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص82، 83. آزند: إيلخانان، ص78.

_ وذكر البعض أن غازان عرض على الأوروبيين أن يعتنق المسيحية مقابل أن يساعدوه ضد المماليك[2].

_ وأورد المؤرخ الغربي أندرو قولاً واضحاً من ضمن رسالة أرسلها غازان إلى البابا وأوروبة، قال فيها: ((إن حرب المماليك هي هدفنا الوحيد)) [3].

_ ومن ذلك أن غازان كتب إلى البابا هونوريوس الرابع يعرض عليه القيام بعمل مشترك ضد المماليك.

_ وأرسل سفارة إلى الغرب برئاسة جاثليق الأرمن رابان سوما، وقد بدأ هذا زيارة للقسطنطينية، ولقي استقبالاً حاراً من الإمبراطور أندرونيكوس رغم ارتباطه بمعاهدات سلام مع السلطان.

ثم توجه إلى روما فوجد صديقه البابا قد مات، فتوجه إلى جنوة حيث استقبل بحفاوة بالغة.

ثم عبر البحر إلى فرنسا، حيث قوبل بحرارة بالغة، ووعده ملكها فيليب الرابع الذي ورث حماسة الصليبيين من لويس التاسع بإعداد حملة لتخليص بيت المقدس، وأرسل معه سفيراً يدعى جوبرت هيلفيل ليصطحبه إلى بلاط الإيلخان غازان لإعداد خطة التحالف.

ثم التقى برسوما إدوارد الأول ملك انكلترا، ثم عاد إلى بلاده[4].

_ وذكر آخرون أن غازان عندما احتل دمشق سنة 699هـ / 1300م أرسل إليه جميس الثامن ملك انكلترا كتاباً عبر فيه عن شكره وسروره مما حصل، كما أعلن عن مساعدته له في كل ما يطلب، مقابل السماح للحجاج المسيحيين الأوربيين بزيارة الأراضي المقدسة[5].

---

[1] الصياد، فؤاد عبد المعطى، المغول في التاريخ، ص64. بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، ص 63، 64.

[2] بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، ص2.

[3] Andrew; The mongol world empire 1206 – 1370, p562.

[4] رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية م3 ، ص502، 675 وما بعد.

[5] بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، 59 – 61.

وقد ارتكب في دمشق يوم احتلها أكثر مما ارتكبه سلفه كتبغا نوين الذي قُتل في عين جالوت، وهو نفس ما فعله تيمورلنك بعد مائة عام، على الرغم من أن الجميع تظاهروا بالإسلام، وكان يتطلع إلى تقديم الأماكن المقدسة هدية إلى البابا وعربوناً عن محبته له [1].

وهنا يقول ابن حجر العسقلاني: «إن غازان ... عندما دخل دمشق لم يُصلِ في جامعها ولا في غيره وإنما أقام في المرج، يعاقر الخمرة مع أصحابه»[2].

_ والأغرب ما ذكره شقيق غازان الإيلخان أولجايتو خدابنده، إذ يقول: ((إن أخي غازان ما كان له عقل في خراب البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن))[3].

ولكن يمكن التشكيك بهذا القول لأن جاء في معرض تودد أولجايتو للسلطان المملوكي لعقد صلح بين الطرفين.

_ ويقول برتولد شبولر: ((إن علاقات غازان مع الغرب لم تتأثر بإسلامه، فقد كان حريصاً على استمرار نشاط البعثات الدينية التبشيرية في بلاده، وقد نجح في إخفاء وضعه وأهدافه الحقيقية، حتى إن أحد المؤرخين وهو هايتوفوس ذكر في كتاب صادر سنة 699 هـ / 1300م أن غازان كان بطلاً عظيماً، عمل ضد مصر المسلمة، وعبر عن ثقته بأن هذا الصديق المخلص للمسيحية سوف يحرر بيت المقدس ويعيده للمسيحيين)).

ويقول شبولر: ((ونرى الفكرة نفسها في مخطوطة وجدت في كنيسة في روما)). وقد طلب غازان من ملك الكرج وملك أرمينيا الاستعداد للحضور إليه، وكان في جيشه في معركة شقحب 30000 من الكرج والأرمن، قاتلوا بضراوة وقُتل معظمهم[4].

---

[1] رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 672. العريني: المغول، ص305. فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص82، 83.

[2] ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، م3، ص293.

[3] ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج2، ص585.

[4] شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة سهيل زكار، خالد عيسى، دار حسان، دمشق، ط1، 1982م، ص 73 – 74 .

_ وبتحليل آخر: كان عام 699هـ / 1291م تاريخ سقوط عكا نقطة تحول أيضاً في العلاقات المملوكية –الإيلخانية، فقد بدأ منذ هذا التاريخ تحول مغول فارس إلى الإسلام وحتى أُعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة 695هـ / 1295م. إلا أن التوتر في العلاقات والعداء بين الطرفين لم ينته بصورة مباشرة وسريعة، وكان للعامل الأوربي دور في استمراره إلى أن تم عقد الصلح بين الطرفين سنة 720هـ / 1320م. وظلَّت سياسة غازان الخان المسلم ظلت تثير الكثير من علامات الاستفهام، فإذا كانت سياسته الداخلية قد اصطبغت بصبغة إسلامية فقد كان من المنتظر أن يبدأ التعاون مع الدولة المملوكية إلا أن ذلك لم يحدث بل استمر التوتر مع المماليك والتنافس معهم حول بسط النفوذ على الشام. ولقد قضى غازان فترة طويلة من حكمه في محاربة المماليك على نحو أثار الشكوك نحو دوافع إسلامه، فبدلاً من أن يكون ظهيراً للمماليك لصد الهجمات الصليبية الجديدة على مصر ذاتها، اتجه للتقارب مع البابوية، كما حاول التحالف مع ملوك أوربا والحصول على مساعدات من ملكي إنجلترا وفرنسا، وأرسل الوقود إلى بلاطهما حتى 702هـ / 1302هـ.

ولكن وبالرغم من اتفاق غازان مع أهداف الصليبية الجديدة في محاربة سلاطين المماليك في مصر إلا أن التحالف لم يتم بين الطرفين ولم يصل غازان في استعانته بغير المسلمين في غزو الشام إلى أكثر من ضمه لجنود من الأرمن والكرج، بل إنه في رسالته للسلطان قلاوون سنة 700 هـ / 1300م بعد انتصاره على جيوش مصر في موقعة حمص سنة 699هـ / 1299م، قدَّم تبريراً لتحركه بأنه كان بناء على طلب أهل البلاد لمناصرتهم ضد عسكر مصر.

هذا ولقد برَّر غازان محاربته للمماليك بفسادهم وظلمهم ومن ثم أحقيته بقيادة العالم الإسلامي لعدم جدارة سلاطين مصر، بعد معركة مجمع المروج مثلاً وجَّه غازان رسالة إلى أهل دمشق كان مما جاء فيها: ((ليعلم الأمراء وعموم عساكرنا المنصورة من المغول و التازيك (أهل فارس) والأرمن والكرج أننا لما سمعنا أنَّ حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين، ناقضون لعهودهم، ظالمون للرعيَّة، دفعتنا الحمية الدينية على أن توجَّهنا إلى تلك البلاد، ونذرنا على أنفسنا أن نقيم العدل والإحسان))[1].

وقد ردَّ الناصر محمد على رسائل غازان، وكان مما جاء فيها: ((لقد تحققنا أن الملك أمضى عامين يجمع المسيحيين والأرمن و الكرج، ولمَّا عجز عن لقاء جيشنا، عاد إلى قول الزور، وتظاهر بدين الإسلام))، ثم قال له: ((وأمَّا قولك ومن معك، بأنك اعتقدت الإسلام قولاً وفعلاً، فإن الذي جرى

---

[1]المقريزي: السلوك، م1، ص1012.

بظاهر دمشق وجبل الصالحية لا يخفى عليك، وليس هذا فعل المسلمين ... وحرم بيت المقدس تُشرب فيه الخمور وتُفض البكور ويُقتل فيه المجاورون ... وفي الخليل ... تهتك النسوان ويدخل فيه الكافر سكران ... إن كنت مسلماً حقاً كما تقول، فاقتل القتلة في جيشك وأبعد عنه غير المسلمين، ولا تمنَّ علينا بإسلامك))[1].

وتبرز بعض المصادر كيف أنه منذ سنة 695هـ / 1295م لم يسجل المؤرخون أية محاولة للتحالف بين مغول فارس والصليبيين، فإذا كان غازان، وفقا لرؤية غربية، قد استطاع أن يخفى أغراضه الحقيقية بعد إسلامه إلى درجة أن أحد المؤرخين الغربيين قد ذكر في كتاب أصدره 700هـ / 1300م أن غازان كان بطلاً عظيماً قد عمل ضد مصر المسلمة وأنه سيحرر بيت المقدس، إلا أن عدم استقرار الأوضاع الداخلية بعد غازان في ظل تبني الدولة المذهب الشيعي انعكس على العلاقات بينها وبين أوربا، حيث لم يعد في نية ملوكها القيام بأي تعاون حقيقي مع مغول إيران ضد مصر.

ولم يتم عقد الصلح بين مصر والدولة الإيلخانية، إلا في سنة 617 هـ / 1220م في عهد بوسعيد ابن أخو غازان الذي خلف أبيه سنة 716هـ / 1316م، الذي كان مستمراً على عداء المماليك، ومنذ سنة 720هـ / 1320م ظلَّت العلاقات عادية بين الطرفين، في الوقت الذي أخذت فيه الدولة الإيلخانية في التدهور إلى أن تجزأت منذ منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[2].

_ ذكرت المستشرقة دوروتيا كرافولسكي أن الإيلخانيين بعد اعتناقهم الإسلام أرادوا السيطرة على دار الإسلام عن طريق مهاجمة مصر والشام لإسقاط دولة المماليك، وبذلك يكونون البديل الإسلامي الأفضل بزعمهم[3].

_ وهناك من يرى أن غازان كان يطمح أن يشكل كياناً قوياً يستقل به عن الخان الأعظم، دل على ذلك أنه أصدر عملة نقش عليها اسمه ورفض نقش اسم الخان الأعظم عليها، ووضع التاريخ الخاني ونسبه إليه[1].

---

(1) المقريزي: السلوك، م1، ص1018 وما بعد.

(2) مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص74، 75. عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، ص169 وما بعد. سعداوي، نظير حسان: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1961م، ص153 وما بعد.

(3) كرافولسكي، دوروتيا: العرب وإيران، بيروت، دار المنتخب العربي، ط1، 1993م، ص97.

_ ويمكن القول أن عهد حكومة غازان ودخوله إلى الإسلام يعد نقطة مفصلية، لأن السلسلة الملكية بعده بقيت على دين الإسلام، والذي يجب أن نعرفه هو أن الخان تمكن من التوفيق بين تغيير الدين في الداخل وسياسته الخارجية[2].

ويرى آخرون أنه ((يمكن الاستنتاج بأن دخول غازان في الإسلام كان من أجل الانتصار في الحرب والحصول على السلطة الإيلخانية)) [3].

ربما يؤيد ذلك أنه فيما بعد عندما بدأ حروبه ضد بلاد الشام ومصر ومن أجل الحصول على الدعم من المسيحيين على ساحل البحر المتوسط خفف من تشديداته المفروضة عليهم، وهذا التغير أدى إلى إيجاد حلول لمشاكلهم، ولكن لم يحصل تغيير جوهري بالنسبة إلى السياسة الكلية للدولة تجاه المسيحيين[4].

بكل الأحوال حقق محمود غازان للمغول ولدولته الكثير من الإنجازات، فبمجرد أن اعتلى العرش أخذ يسعى سعياً جدياً في أن يجبر النقص الذي حدث في كل أجهزة الدولة نتيجة لأخطاء السالفين، وسعى في تغيير معالم الحياة المختلفة المليئة بالعيوب إلى معالم أخرى مشرقة تعيد الأمن والاستقرار للناس، وتؤمنهم على حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وتمتع في سبيل ذلك بعزيمة قوية لا تفتر، فلم يتخل عن عزمه في تحقيق مآربه.

وشملت إصلاحات غازان في بلاده جوانب الحياة المختلفة من إدارية واقتصادية وعمرانية واجتماعية، فأزال الحواجز الجنسية والطبقية التي كانت تفصل بين رعايا الدولة، كما حارب ضروب الفساد في مختلف شؤون الحياة، وبذل جهوداً جبارة في سبيل تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة والقضاء على المظالم التي تعرضوا لها في عهد أسلافه من حكام المغول، واستعان في إصلاحاته بالكتّاب ورجال السياسة المحنكين وكبار العلماء والمثقفين في سبيل إيجاد حكومة قوية ثابتة ومقتدرة، فأنجزت بفضل هذه السياسة جميع الإنجازات التي كان يتوق غازان إلى تحقيقها في مختلف شؤون دولته،

---

(1) إقبال: تاريخ إيران، ص474.

(2)كروسه، رنه: تاريخ مغول- جنكيزخان، انتشارات آزادمهر، تهران، 1383، ص277.

(3)بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني، ص441.

(4)بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني، ص469.

ونتيجة لهذه الجهود المثمرة أصلح الجهاز الإداري الذي كان يشمل الدواوين المختلفة، وأدخلت تعديلات جوهرية على جهاز القضاء، وأحدث نظماً جديدة في الجيش، ولم تقف جهوده عند هذا الحد، بل إنه سعا سعياً جدياً إلى تثبيت حقوق الملاك والمزارعين، ووسع مساحة الأراضي الزراعية، وشق الترع والقنوات، مما أدى إلى ازدهار الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية في البلاد وتحسين أوضاع الناس، وأعاد غازان من جهة أخرى النظام والأمن والأمان إلى مختلف مناطق بلاده[1].

---

[1] آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص148 – 162. الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، سوريا، بحث: غازان. وانظر عبد الرحيم، رجب: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية. مهنا، محمد نصر: الإسلام في آسيا، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، 1991م.

الفصل الثامن

العلاقات المملوكية الإيلخانية
في عهد الناصر محمد بن قلاوون
ما بعد عهد غازان
703هـ - 741هـ / 1303م - 1340م

أولاً _ السلطان محمد بن قلاوون وأولجايتو:

بعد وفاة غازان تسلم الحكم أخوه أولجايتو خدابندا، وبتسلمه تبدأ مرحلة جديدة من العلاقات المملوكية الإيلخانية، اتصفت بالعلاقات السلمية.

ورغم أن أولجايتو قد تعمَّد بالمسيحية بواسطة أمه أوروك خاتون التي كانت مسيحية نسطورية، وحمل اسم نيكولا احتراماً لنيكولا الرابع، إلا أنه دخل في الإسلام بسبب تأثير إحدى زوجاته[1].

وعندما جاء إلى تبريز للجلوس على العرش كان مسلماً حنفياً وكان قد غيَّر اسمه من (خربنده) إلى (خدا بنده)، وفي أثناء احتفالات التتويج وضع واختار لنفسه اسم (محمد أولجايتو خان) الذي يعني (الملك العظيم المبارك)، واستمر على هذا الاسم إلى آخر حياته[2].

وتظهر رغبة أولجايتو في إشاعة حالة سلام مع دولة المماليك في الإجراءات التي أعلنها مباشرة بعد توليه الحكم، بل اتصل بالملك الناصر وتصالح معه وأظهر تراجعاً عن سياسة سلفه، بما يعد مرحلة جديدة من العلاقات[3].

فبعد وفاة غازان خان قام أخوه الجايتو باتباع سياسة حسنة مع المماليك، ففي بداية استلامه العرش أرسل سفراءه إلى المماليك، وكانت الرسالة التي يحملونها تحكي عن جلوسه على العرش ورغبته إلى التأكيد على العلاقات والسلام ووقف القتال بينهما، وأظهر عدم رضاه عن أفعال غازان خان، وطلب منه نسيان الماضي[4].

وتمثلت إجراءات أولجايتو بما يأتي:

---

[1]روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص43. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص162.

[2]بياني: دين ودولة در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني، ص478.

[3] Muir, sir William: the mamluke or slave dynasty of Egypt, London 1891, P. 69.

[4]روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص31.

_ كان غازان قد احتجز سفراء للناصر محمد عندما هُزم جيشه في شقحب، فأطلق أولجايتو سراحهم كحسن نية، وبالمقابل طلب من الناصر محمد أن يطلق سراح أحد أمراء المغول[1].

_ أرسل إلى الناصر محمد ينشد إعلان صلح بين الطرفين، فوافق الناصر محمد[2].

_ كان أولجاتيو يسعى من وراء هذه التهدئة التفرغ للصراع مع مغول القفجاق.

ورغم اتصاف هذه المرحلة بالهدوء والود، لكن تخللها عدة خروقات وتوترات بين الطرفين، تمثلت بالآتي:

_ هروب الأمير المغولي حاكم ديار بكر جنكلي بن البابا إلى القاهرة، فآواه السلطان الناصر محمد.

_ في سنة 705هـ / 1305م توجهت قوة مملوكية لمطالبة ملك أرمينيا بالمال المقرر عليه لسلطان مصر، فهاجمت القوات الأرمينية القوات المملوكية، وساعدها في ذلك قوات من المغول، بل قامت هذه القوات بأسر بعض أمراء المماليك، ولما طُلب من الإيلخان المغولي إطلاق سراحهم رفض، وكان الناصر محمد قادراً على الرد على هذه التصرفات المغولية، لكن الظروف السياسية في مصر حالت دون ذلك[3].

_ عرضه التحالف مع الغرب حين أرسل سفارة سنة 704 هـ / 1304م إلى ملك فرنسا فيليب الرابع وملك إنكلترة إدوارد الثاني.

_ وإرساله سفارة ثانية سنة 705 هـ / 1305م إلى أوروبة أعرب فيها عن استعداده للتحالف معهم ضد دولة المماليك[4].

---

[1] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص127–128. البدليسي: شرفنامة، ج2، ص20. المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص954.

[2] ابن أيبك: الدر الفاخر، ص 128. إقبال: تاريخ المغول، ص309–310.

[3] المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص16 وما بعد. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص64– 66 – عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص111.

[4] هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، 138.

Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, p563.

_ وساءت العلاقات أيضاً بين الطرفين عندما اعتنق أولجايتو سنة 709 هـ / 1310م المذهب الشيعي مقابل المذهب السني للمماليك، بل بدأ التفكير بمهاجمة دولة المماليك، حرَّضه على ذلك قبرص وأرمينية، فأرسل سفارة إلى الغرب تحمل رسائل للبابا كليمنت الخامس وإدوارد الثاني ملك إنكلترة وفيليب الجميل ملك فرنسا، يحرضهم على التحالف معه ضد المماليك، لكن كل ذلك لم ينجح[1].

وهنا لا بد من ذكر الحادثة الآتية المرتبطة بالأحداث المتقدمة، ففي 17 نوفمبر 1307م / 707هـ اغتيل الملك الأرمني هيثوم الثاني من قبل المغول، وقد ذكر البعض أن سبب ذلك كان تحول مغول فارس إلى الإسلام، مع العلم أن العلاقات المغولية الأرمينية قبل 707هـ / 1307م كانت متضافرة، وكان الأرمن منحازين لجانب المغول، فأدى التحالف الأرمني المغولي إلى خسائر مملوكية في الرجال والموارد مما أثار غضبهم؛ فأطلقوا غزوات كبرى ضد المملكة الأرمنية، بل إن مشاكل كثيرة تعرض لها الأرمن نتيجة تحالفهم مع المغول منها مشكلة كلفت ملكهم هيثوم الثاني حياته في نهاية المطاف على يد المغول أنفسهم.

والسؤال: لماذا حدث هذا الاغتيال الذي يشكل أكثر الأحداث إثارة في تاريخ المملكة الأرمنية؟!.

_ البعض ذكر أن سبب ذلك يعود لمحاولة مغول فارس أن يصبحوا السادة الوحيدين لكيليكيا.

_ والبعض قال أن سبب ذلك هو دخولهم في الإسلام، لأن الذي قتل هيثوم تلفظ بعبارات دينية، مع العلم أن آخرين ضعفَّوا هذا السبب.

_ وذكر البعض أن السبب يعود لتطورات داخلية تتعلق بالتغييرات التي أدخلها هيثوم على طقوس الكنيسة الأرمنية[2].

وحدثت بعد ذلك تطورات على ساحة دولة المماليك حين هيمن الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير على الحكم، مما اضطر الناصر محمد في يوم السبت 25 من شهر رمضان سنة 708هـ / آذار 1309م

---

[1] إقبال: تاريخ إيران، ص485. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص163 – 166. فصل نامه، تاريخ إسلام، مؤسسة آموزشي باقر العلوم، ص84. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: سليم حسن، محمود عابدين، مصر، مطبعة المعارف، ط1، 1924م، 82.

[2] Stewart; The Assassination of King Hetum II, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 15, No. 1 (Apr., 2005), pp. 45-61.

إلى اعتزال الحكم والإقامة في الكرك بعد أن خرج من مصر مدعياً السفر للحج، فتسلم مكانه الأمير الأقوى بيبرس الجاشنكير يوم السبت 23 شوال سنة 708هـ / 1309 م، ثم حدثت اضطرابات داخلية انتهت بهروب بيبرس بعد أقل من عام على توليه السلطنة [1].

وهنا قامت المماليك السلطانية باستدعاء الناصر محمد من الكرك لتولي السلطنة للمرة الثالثة، وكان ذلك سنة 709هـ/1309م، فاستمر حكمه هذه المرة 31 سنة، فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزة وهو يحاول الهروب فأعدمه، وسجن سلار حتى مات[2].

ثانياً _ محاولة المغول الهجوم على بلاد الشام:

لم تكن في نية الأيلخان أولجايتو مهاجمة بلاد الشام مطلقاً، وبالأصل لم تكن الظروف تسمح له بذلك:

_ إذ حاولت أقاليم كثيرة الانفصال، وقامت أقاليم أخرى بثورات على الحكومة المركزية.

_ ظهور قوة جديدة معادية لسياسات المغول هي قوة العثمانيين، الذين توسعوا على حساب الأمبراطورية البيزنطيية، ولما هددوا مدينة نيقيا طلب الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني التحالف مع الإيلخان أولجايتو الذي أرسل قوة مغولية لغزو الأقاليم العثمانية في أسكي شهر[3].

لكن ما الذي حدث حتى غيَّر قناعات أولجاتيو رغم الظروفة متقدمة الذكر؟

حدث في سنة 711هـ/ 1312م أن هرب عدد من أمراء دولة المماليك _ بسبب خلافات وقعت بينهم وبين الملك الناصر محمد _ بينهم الأمير قراسنقر نائب دمشق والأمير جمال الدين الأفرم نائب طرابلس، ولجؤوا إلى أولجايتو، فأحسن استقبالهم وآواهم وأقطعهم الإقطاعات، فأخذ هؤلاء يحسنون له

---

[1] أبو الفداء : تاريخ مختصر الدول ،م2،ج7،ص65. المقريزي : السلوك ،ج2، ق1، ص27- 45. العيني: عقد الجمان، تح: إيمان شكري، ص36، 37.- سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص64- 66 – عودات: تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري، ص111.

[2] العيني: عقد الجمان، تح: إيمان شكري، ص40.

[3] سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص69، 70 .

مهاجمة بلاد الشام[1]، فتيقظت أحلام الإيلخانيين السابقين عند أولجايتو بضرب دولة المماليك ضربة مميتة.

فأعد أولجايتو جيشه وزحف به حتى منطقة الرحبة على الفرات في شهر رمضان سنة 712هـ / كانون الثاني 1313م بعد أن أخبره قرا سنقر أنه سيقنع صاحبها بتسليمه المدينة دون قتال، وضرب عليها حصاراً، فخرج الناصر محمد له، لكن أولجايتو اضطر للانسحاب بعد حصار دام قرابة الشهر، فرجع السلطان الناصر محمد لتأدية الحج[2].

وعلى الرغم من أن سنة 712هـ / 1314م قد شهدت عقد صلح بين الجانبين المملوكي والمغولي، لكنه لم يستمر طويلاً، إذ عاد التوتر بينهما لسببين:

الأول: هروب الأمير العربي سليمان بن مهنا إلى فارس سنة 715هـ/ 1316م، وتحريضه خدابندا بالهجوم على بلاد الشام.

الثاني: هروب حميضة بن أبي نمى أمير مكة بعد اختلافه مع أخيه رميثة على إمرة مكة سنة 716هـ / 1316م، وقد قطع الخطبة باسم السلطان الناصر محمد وعرض على الأيلخان أولجايتو إقامة الخطبة باسمه، فطمع الأيلخان بشرف السيادة على مكة حيث أن لحمايتها مكانة عالية في العالم الإسلامي، فأرسل حملة عسكرية لمساعدة أمير مكة، كما استعد في الوقت نفسه للهجوم على بلاد الشام ليضمن تشتيت قوات المماليك في أكثر من اتجاه، إلا أن وفاته السريعة سنة 716هـ / 1316م حالت دون ذلك[3].

---

[1] ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج2، ص32 – 37. المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص115.

[2] البدليسي: شرفنامه، ج2، ص23. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص251، 252.

[3] ابن فهد، عز الدين عبد العزيز: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، ط1، 1986م، ج2، ص53 – 72. المقريزي: السلوك، ج2 ، ق1، ص 145–148. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص72 .

وكان الرد المملوكي على الهجوم المغولي بمهاجمة ملطية التي كانت تتبع للمغول، فهاجمتها قوات المماليك، ثم حاصرتها في 22 محرم 715هـ/1315م، وبعد يوم فقط سُلمت المدينة مقابل الأمان، لكن المماليك لم يحتفظوا بها طويلاً إذ سرعان ما استردها الأمير المغولي جوبان[1].

وبكل الأحوال فإن أولجايتو خدابندا غيَّر سياسته في أواخر عهده؛ فساعد بعض أمراء المماليك المتمردين على الحكم، بل أعد حملة هدفها الشام مع الأميرين سنقر والأفرم الهاربين من الناصر محمد بن قلاوون، ثم لم تلبث هذه الحملة أن فشلت وتخلت عن مهمتها بعد أن سمعت بخروج السلطان لملاقاتها.

كما عاد لمعاداة المماليك والاستعانة بأوروبا عليهم، ومن ذلك أنه اتصل بالبابا كليمنت الخامس، والملك إدوارد الثاني ملك إنجلترا، والملك فيليب الجميل ملك فرنسا[2].

توفي أولجايتو سنة 716هـ / 1316م عن 36 عاماً، وكان ابنه أبو سعيد أول حاكم إيلخاني يحمل اسماً إسلامياً، واعتلى العرش في الثالثة عشرة من عمره[3].

ثالثاً_ السلطان محمد بن قلاوون والإيلخان أبو سعيد:

أسباب عدة دفعت إلى التقارب المملوكي الإيلخاني، لعل أبرزها ضعف مغول فارس وجنوحهم للهدنة، ولإدراك الطرفين وخاصة المغولي أن المصالح الحقيقية لهما هي في عدم التعادي، وأن المصالح العليا للمسلمين تكمن في التعاون بينهما.

---

[1] أبو الفداء: المختصر، ج2، ص418–420. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص284–285. المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص142 – 144.

[2] المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص 115.

Muir; The mamluke or slave dynasty of Egypt, p. 64.

[3] ساندرز: تاريخ فتوحات مغول، ص141. وفيه أن الوزير والمؤرخ الشهير رشيد الدين الهمذاني اتهم _ وكان يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً _ بدس السم لأولجايتو وبالخيانة، فقُطع جسده إلى قسمين، وطيف برأسه في شوارع تبريز وصائح يصيح: ((هذا رأس ذلك اليهودي الذي كفر بنعمة الله، لعنة الله عليه))، ولكن أبا سعيد بقي نادماً وحزيناً على قتله طول عمره، وكان يقول بأنه لم ولن يشعر بالراحة بعد موت رشيد الدين.

ويظهر أن ما دفع أبا سعيد للتقارب أيضاً الأخطار التي بدأت تحيط به، منها إعلان الأمير يساور العصيان سنة 716 هـ / 1316م، بل استطاع السيطرة على خراسان وزحف باتجاه مازندران، ومنها توجه أوزبك ملك صحراء القفجاق إلى إيران بجيش كبير، عندها عقد أبو سعيد اجتماعاً للتصدي لهذه الأخطار، وللدخول في مفاوضات مع دولة المماليك[1] .

فغيَّر الإيلخان أبا سعيد سياسته تجاه المماليك، وتراسل مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقدم له الهدايا، وعقد معه اتفاقيات أدت إلى فتح حدودهما للتجارة، مقابل ذلك تعهد له الناصر ابن قلاوون بحماية الحجاج الإيرانيين والمحمل الإيلخاني[2].

فدخلت العلاقات المملوكية المغولية حالة سلام وصداقة في عهد الإيلخان أبي سعيد الذي تكررت سفاراته إلى القاهرة في عامي 723 –724 هـ / 1322 – 1323م.

ثم بادر هذا الإيلخان بإرسال سفارة محملة بالهدايا برئاسة مجد الدين إسماعيل بن محمد السلامي (تاجر الخاص السلطاني)، حيث وصل في سنة 717هـ/1317م إلى السلطان الناصر محمد ومعه عدد من أمراء المغول يحمل الهدايا ويعرض مشروعاً للصلح، استمرت المفاوضات حتى سنة 720هـ/1320م بدون نتائج، وحدث أثناء ذلك أن أرسل السلطان الناصر محمد ثلاثين فداوياً، وكلفهم بمهمة اغتيال الأمير قراسنقر اللاجئ عند أولجايتو، فانتشر الخبر أن هؤلاء أرسلوا لاغتيال أبي سعيد، وعلى الرغم من أن معظمهم تم القبض عليه وإعدامه، إلا أن أبا سعيد بقي مدة من الزمن محتجباً خوفاً منهم، ودفعه الخوف إلى إرسال سفارة برئاسة المجد إسماعيل مرة ثانية سنة 720هـ/ 1320م ليعرض عليه مشروع الصلح، وصعد المجد إلى قلعة الجبل والتقى بالناصر محمد، وطلبت السفارة تحقيق السلام وتوقيع معاهدة بين

---

[1] المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص 163. إقبال: تاريخ إيران، ص490. الصياد، فؤاد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، مركز الدراسات والوثائق في جامعة قطر، 1987م، ص433. وقد توثقت العلاقات أكثر بين أوزبك في مدة الثلاثين سنة من حكومته كعلاقات اتحاد وصداقة وسلطان مصر الذي كان يعد العدو الأول للايلخانيين. انظر بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص272.

[2] المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص 209 وما بعد.

Muir; The mamluke or slave dynasty of Egypt, p. 64.

الطرفين، فوافق السلطان الناصر محمد على شروط الصلح التي بوشر بتنفيذها حتى قبل التوقيع عليها بصفة نهائية سنة 723هـ / 1323م[1].

وقد تضمنت شروط الصلح ما يأتي:

_ وقف المماليك إرسال الفداوية إلى بلاد مغول فارس.

_ عدم المطالبة بتسليم رعايا البلدين الذين يلجئون إلى البلد الآخر.

_ توطيد العلاقات التجارية بين الطرفين.

_ يتوقف السلطان عن إرسال العربان والتركمان لشن الغارات على مغول فارس.

_ تسيير المحمل كل سنة من العراق إلى الحجاز وهو يحمل علمين أحدهما باسم سلطان مصر، والآخر باسم إيلخان فارس.

_ يكف السلطان عن المطالبة بالأمير قراسنقر.

وافق السلطان الناصر على هذه الشروط وتم توقيع الصلح بين الطرفين بشكل نهائي سنة 723هـ/1323م [2].

تحسنت العلاقات بين الطرفين أكثر سنة 728هـ / 1327م، وكان السبب هو إقدام الملك الناصر بالدفاع عن السلطان أبي سعيد ضد تيمور تاش.

وفي هذه السنة نفسها جاء رسل السلطان أبي سعيد حاملين الهدية والرسالة إلى مصر وطلبوا استسلام تيمور تاش، وسلموا الأمير شمس الدين سنقر منصوري إلى الملك الناصر، وفي هذه الحالة قام السلطان الملك الناصر بقتل تيمور تاش على مرأى من أعين رسل السلطان أبي سعيد، وتحسنت العلاقات بعد هذه الحادثة كثيراً، إلى حد نرى السلطان أبا سعيد يصف الملك الناصر بالأخ.

---

[1] المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص175 – 209. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج2، 115، 116. إقبال: تاريخ المغول، ص 342.

[2] المقريزي: السلوك، ج2، ق1، ص209، 210، 242. ابن أيبك: الدر الفاخر، ص312، 313. المحمد: مشرق البحر المتوسط، ص132. روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص32 – 34. الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص482.

وبسبب تحسن العلاقات بين المماليك والمغول هاجر الكثير من المغول إلى مصر والشام، فبعضهم بسبب المشاكل الداخلية المتعلقة بالاستيلاء على السلطة، والآخر بسبب الوقوع في الأسر، وعدد آخر جاؤوا للعمل في الكسب والتجارة إلى حد امتلأت مصر بالمغول وانتشرت عادات المغول هناك، وكان المغول يعرفون بالجماعات الوافدة ومن بينها (جماعة أويراتيه) الذين هاجروا خوفاً من غازان خان الذي أراد أخذ الانتقام لعمه منهم[1].

رابعاً _ مكاسب الإيلخانيين من الصلح مع المماليك:

أراد أبو سعيد تحقيق عدة أمور من هذا الصلح، منها:

_ مواجهة تهديدات أزبك خان القفجاق، الذي تولى حكم مملكة مغول القفجاق (713– 742هـ/ 1313– 1342م) الذي بادر بإرسال سفارة إلى الناصر محمد، ويجب التوقف قليلاً هنا لمناقشة هذه القضية المهمة والأساسية، إذ يُلاحظ هنا صورة جديدة من العلاقات القفجاقية – المملوكية، إذ لم يكتف أزبك خان بإرسال بعثة تنقل إلى الناصر محمد خبر اعتناقه الدين الإسلامي، بل بعث أيضاً الهدايا من أجل إرضاء الناصر محمد، كما يشير بعض المؤرخين إلى أن عدد إفراد هذه السفارة أو البعثة الدبلوماسية كان كبيراً: إذ بلغوا مائة وسبعون نفراً.

ومن جانب آخر كان الناصر محمد أشد ما يكون حرصاً على توثيق العلاقات مع دولة مغول القفجاق، فكان يرحب بالرسل المبعوثين، ويجهزهم بالهدايا، ويلبي كل ما جاؤوا من أجله[2].

وعلى ذلك نجد أنفسنا أمام دراسة المرحلة الثانية في موضوع العلاقات الملوكية – القفجاقية، ومن أهم ما يميز هذه الحقبة من الناحية السياسية وفاة ملك مغول فارس خربندا.

وبذلك يختفي عامل مهم كان يشكل تهديداً مستمراً لحدود دولة مغول القفجاق، بالإضافة إلى ذلك كان هذا الموضوع محور معظم المحادثات المملوكية – القفجاقية على مستوى السفارات المتبادلة بين البلاطين الإسلاميين. وربما يكون في انتهاء وجود هذا العنصر العدائي المشترك، أثر كبير في تحول المحادثات الثنائية نحو موضوعات أكثر فائدة لكلا البلدين.

---

[1] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص33 – 35. آزند: إيلخانان، ص192. كروسه: تاريخ مغول– جنكيزخان، ص279. آشتياني: تاريخ إيران در عصر مغول، ص178. أشتياني: تاريخ مغول، ص340.

(2) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص27 – 29. باراني: نامه تاريخ بزوهان، ص117، 118.

ومما يلفت النظر في هذه المرحلة، كذلك، مسألة مصاهرة الناصر محمد بيت أزبك خان.

لهذا كله لا يمكننا سوى أن نعرِّف هذا الزواج بأنه زواج سياسي، يقصد منه تحقيق بعض النتائج السياسية والعسكرية لما فيه خدمة الهدف المشترك، والمنفعة الواحدة.

ونستبعد كلية فكرة أن الرغبة جاءت أصلاً من الناصر محمد بدليل أنه لما بالغ أزبك خان في بعض الشروط من أجل الموافقة على إتمام الزواج، نجد أن الناصر محمداً يتخلى عن الموضوع كلية[1].

إن العلاقات بين دولة مغول القفجاق ودولة مغول فارس كانت متوترة، وقد ازداد الأمر سوءاً إلى درجة تعبئة الجيوش، والسير لملاقاة بعضهما في معركة حاسمة.

ولكن ما هو موقف سلطنة المماليك من هذا العداء؟ وما السبب وراء خروج العساكر المملوكية من مصر والشام؟ هل هي لمساعدة أزبك خان صهر الناصر محمد؟ أم لحماية حدود دولة المماليك بعدما علمناه من توتر الروابط بين الدولتين؟.

يصعب تحديد ماهية موقف دولة المماليك تجاه هذا العداء المفتوح بين هاتين الدولتين المغوليتين، إلا أننا نلاحظ وصول رسل الخان أبي سعيد ملك مغول فارس أكثر من مرة إلى البلاط المملوكي في السنوات 721هـ / 1321م، 722هـ / 1322م، 723هـ / 1323م، وكان الناصر محمد يبالغ في إكرامهم، والاحتفاء بهم.

ويبدو أن هذه السفارات المغولية كانت تهدف إلى عقد صلح مع سلطنة المماليك.

وبذلك تم عقد الصلح بين دولة مغول فارس وسلطنة المماليك[2].

ثم إن العداء اشتد بين أبي سعيد ملك مغول فارس وأزبك خان، وكان أزبك خان يعلق الآمال على مساعدة صهره السلطان الناصر محمد، ونتيجة لذلك عمل أبو سعيد على المبادرة والدخول في مفاوضات مع سلطنة المماليك لعقد صلح معها.

---

(1) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص32 – 35. أشتياني: تاريخ مغول، ص346.

(2) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص39.

وعندما سارت جيوش المغول ضد بعضها، أمر الناصر محمد بخروج الجيش المملوكي لحماية حدود دولته وسيادتها. ولم يكن – على ما يبدو – في نيته مساعدة أي منهما ضد الآخر، فأزبك خان صهره، وتربطه به صداقة وحلف، وأبو سعيد يرسل سفاراته واحدة تلو الأخرى لعقد الصلح والهدنة، وكان الناصر محمد يرغب في هذا الصلح بدليل أنه تم عقده، ولذا لم يكن من المعقول أن يشن الحرب ضد أبي سعيد حرصاً على سير المفاوضات الجارية بينهما من أجل الصلح.

ولعل سبب هذه الرغبة الشديدة لدى أبي سعيد لعقد الصلح هو مخاوفه من أن يستنجد أزبك خان بحليفه الناصر محمد ضد مغول فارس، فيلبي الأخير مطلبه هذا، الأمر الذي قد يؤدي إلى هزيمة دولة مغول فارس هزيمة منكرة[1].

ونستطيع أن نستشف من سياسة الناصر محمد أنه يرغب في توطيد العلاقات مع جميع الدول الكبيرة في المنطقة، بحيث يقوم بينه وبينهم صلح وروابط متينة من المودة والصداقة.

ومن ثم انتهت تلك المفاوضات الدبلوماسية بعقد صلح سنة 723هـ / 1323م مع دولة مغول فارس، وبدأت العلاقات تتوثق بين الدولتين من خلال استمرار تبادل السفراء والرسل بين بلاطيهما من أجل توطيد الروابط الوثيقة.

وقد كان من نتيجة هذه الصلاة الوثيقة، أنه لما طلب أزبك خان من الناصر محمد مساعدته ضد أبي سعيد وجوبان، اعتذر الناصر محمد بأن الصلح يربطه مع دولة مغول فارس، ولا يجوز الإخلال به.

ولكن رغم ذلك كله كان أبو سعيد خان مغول فارس يخشى أن يأتي اليوم الذي يقف فيه الناصر محمد إلى جانب أزبك خان ضده، لذا ورغبة منه في قطع الطريق على عدوه، نجده يعمل على إرسال الرسل إلى الناصر محمد يعرضون موضوع زواج أبي سعيد من إحدى بنات الناصر محمد، ولكن رغم الإلحاح الشديد من قبل الخان أبي سعيد ورسله، إلا أن الناصر محمداً اعتذر بأن بناته صغيرات، ولسن في سن الزواج.

وهكذا أدى صلح سلطنة المماليك مع دولة مغول فارس إلى القضاء التام على كل آمال أزبك خان في التحالف مع الناصر محمد، أو حتى مجرد الحصول على مساعدات عسكرية تعينه في الحرب ضد أبي سعيد[1].

---

(1) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص40. أشتياني: تاريخ مغول، ص347.

_ منع تسلل الفداوية الإسماعيلية إلى بلاده عن طريق المماليك أولئك الذين اشتهروا بتنفيذ الاغتيالات.

_ تسلط أمراء المغول على الأيلخان أبي سعيد بهادر الذي كان لا يزال قاصراً ولا يتجاوز عمره 12عام عندما تولى الأيلخانية، فأدى ذلك إلى ضعف دولة مغول فارس في حين ظهرت دولة المماليك بمظهر القوة الأولى، فوجد أبو سعيد في ذلك فرصة لإرساء الاستقرار في دولته(2).

_ وبالإجمال أصبح الحكم مجالاً للأمراء الكبار للتسلط على الحكم وأدى ذلك إلى حروب أهلية وتمردات داخلية في ظل تهديدات المغول الجغطائيين من جهة الشرق، ومغول القبيلة الذهبية في الشمال، الذين دأبوا على مهاجمة أراضي الإيلخانية(3).

خامساً _ مكاسب المماليك من الصلح مع الإيلخانيين:

أما أهم مكاسب المماليك فهي زوال الخطر المغولي على الجبهة الشرقية، وتوقف نشاطهم حتى أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عندما ظهر تيمورلنك واجتاح مشرق البحر المتوسط.

وقد استغل الناصر محمد ضعف دولة مغول فارس وتحقيق الصلح معها في عدة أمور، أبرزها:

_ أرسل الناصر محمد أوائل عام 720 هـ / 1320 م قواته بالشام لمهاجمة مملكة أرمينيا الصغرى حليفة المغول، كما قام بالرد على سفراء ملك فرنسا الذين طالبوه باسم ملكهم بتسليم بيت المقدس وأموراً أخرى، فكان جوابه بالرفض وأنه سوف يهاجمهم لأنه غير مشغول بالحرب مع المغول.

_ استغل الناصر محمد الصلح الذي أبرمه مع الإيلخان أبي سعيد بهادر وأرسل حملة إلى أرمينية دمرت مدينة أياس سنة 722هـ/1322م، فاضطر ملك أرمينية _ الذي فقد المساعدة المغولية _ إلى إرسال الأموال والهدايا إلى مصر، وقد أثارت هذه الحملة غضب البابوية فبدأ البابا يوحنا الثاني والعشرين

---

(1) الحجي: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، ص41.

(2)– ابن كثير، البداية والنهاية، ج18، ص204.– –المقريزي: السلوك ، ج2 ، ق1، ص207 . سرور: دولة بني قلاوون في مصر، ص207.

(3) البدليسي: شرفنامه، ج2، ص25، 26. أبو الفداء: المختصر، ج2، ص426–427. إقبال: تاريخ المغول، ص327–337.

يحرض القوى الأوربية ضد الناصر محمد، كما طالب الأيلخان أبي سعيد بتقديم المساعدة للأرمن، وطلب منه اعتناق المسيحية، ولكن أبا سعيد كان غير قادر على شيء، فاضطر بطريرك الأرمن للقدوم إلى مصر لتوقيع معاهدة سلام مع السلطان الناصر محمد لمدة 15 سنة، وشعر المسيحيون بالحزن عندما رأوا ليو ملك أرمينيا سنة 729هـ /1329م يجبر على تقبيل الأرض احتراماً لسيده سلطان مصر[1].

_ صارت مكانة الناصر في الخارج عالية منذ الانتصار العظيم الذي أحرزه على المغول، والذي كان له صدى قوي في منطقة البحر المتوسط وأوربا.

لذلك لجأت معظم هذه الدول إلى اللين في مخاطبة الناصر، فجاء منها أربعة وفود: واحد من بيزنطة، والثاني من روما، والثالث من فرنسا، والرابع من الحبشة[2].

أما وفد الإمبراطور البيزنطية فجاء يحمل للسلطان هدايا قيمة معها رسالة يرجو الإمبراطور فيها معاملة المسيحيين في سلطنة الناصر بالعطف والرعاية، وقد أجابه الناصر إلى طلبه، وأبرمت في نفس الوقت بين الفريقين محالفة دفاعية لصد تيار الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون إمبراطور بيزنطة في ملكه في ذلك الوقت.

وأما وفد روما فقد جاء من قبل البابا يوحنا الثاني وكان معه كذلك هدية نفيسة وكتاب من البابا يتضمن رجاء السلطان أن يحسن معاملة المسيحيين، وقد أجابه السلطان مطمئناً إياه على رعايته للمسيحيين في مملكته، ويلاحظ المقريزي أنه لم يفد إلى مصر رسل من البابا، أو بعبارة أدق من الفاتيكان، منذ أيام الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين.

وأما وفد فرنسا فقد جاء من قبل ملكها شارل الرابع، وقد كان يحمل رسالة ودية تنطوي على رجاء للسلطان أن يشمل المسيحيين المقيمين في دولته بعين الرعاية والعدل، وقد رد الناصر على ذلك رداً جميلاً وعد فيه بتحقيق ما يطلبه الملك.

وأما وفد الحبشة الذي جاء إلى مصر في المحرم من سنة 726هـ / 1325م، فقد كان يحمل كتاباً يتضمن ضرورة إعادة ما تخرب من كنائس المسيحيين، ومعاملتهم بالإكرام والاحترام، ثم يهدد السلطان بأن ملك الحبشة سوف يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، وسوف يسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر، فسخر الناصر منه ورد رسله إلى بلادهم يحملون الخيبة والفشل.

---

[1] سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص77 – 81.

(2)مرزوق، محمد عبد العزيز: الناصر محمد بن قلاوون، المؤسسة المصرية، ص294.

ولقد عاودت فرنسا الكرة فبعث ملكها فيليب السادس كتاباً إلى الناصر يختلف في صيغته عن كتاب سلفه شارك الرابع إذ تضمن تهديداً سافراً للسلطان الناصر إن هو لم يعمل على رعاية مصالح المسيحيين في بلاده، ويرد إلى الصليبيين مدينة بيت المقدس ومدن ساحل الشام التي كانت في أيدهم، ولقد كان يحمل رسالة التهديد هذه وفد مكون من مائة وعشرين رجلاً، ولا نعجب لتصرف فيليب السادس على هذه الصورة فقد كان من المتحمسين للصليبيين، المتعصبين لهم، الراغبين في إعادة نفوذهم السابق.

ولم يعر الناصر هذا التهديد التفاتاً، وكل ما كان له من رد فعل، أنه أهان الرسل وردهم إلى فرنسا يجرون أذيال الفشل كما فعل من قبل مع رسل ملك الحبشة[1].

ولقد كان الناصر أشد الحرص على أن تكون علاقاته بجميع الدول علاقات محبة ووئام فهو بطبعه يميل إلى السلم وإلى الهدوء، ولكنه لم يكن ليسكت قط على أية إهانة تلحق بأحد من أفراد رعيته مهما كان مصدرها، ومهما ترتب على دفعها من نتائج[2].

وهكذا قلما كان يمر عام منذ تولى سلطنته الثالثة دون أن يزداد نفوذ الناصر الأدبي والسياسي، أو يفد على البلاد أمير أو سفير أجنبي يقدم الهدايا ويظهر الولاء[3].

_ امتد نفوذ الناصر محمد إلى أراضي سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة 738هـ/1337م، بعد أن استنجد حاكمها التركماني أرتنا ضد الأمراء المغول، فكتب له الناصر محمد تقليداً بحكم ما بيده من بلاده.

_ اتصل الشيخ حسن الجلائري مؤسس دولة الجلائريين التي حكمت غرب فارس والعراق بالسلطان الناصر محمد قبل وفاته، وعرض عليه تسليم بغداد والموصل وعراق العجم، وطلب إرسال الجيش المملوكي لاستلام هذه المناطق، وكان السلطان الناصر محمد على وشك إرسال جيشه قبل أن يبلغه تراجع الأمير المغولي عن وعده واتفاقه مع الأمراء المغول الآخرين، فألغى الناصر محمد استعداداته

(1) مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، ص294 - 296.

(2) مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، ص296.

(3) مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، ص298.

العسكرية، وما لبث أن توفي في 21 ذي الحجة سنة 741هـ/1340م وله من العمر سبع وخمسون سنة[1].

والواقع أنه بعد وفاة الإيلخان أبي سعيد بهادر سنة 736 هـ / 1335م تفسخت دولة مغول فارس إلى دويلات صغيرة تتنازع فيما بينها، فنظر الأمراء المغول المتنافسين إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون على أنه القوة الوحيدة التي يمكن الاستعانة بها، واتصل بعضهم بالناصر طالباً المعونة والمساعدة وعرض بعضهم تسليم بغداد له[2].

في الحقيقة أصبحت دولة مغول فارس عاجزة عن أي عمل عسكري ضد السلطنة المملوكية، وكان آخر الإيلخانات الكبار من أسرة هولاكو، فبعد وفات أبي سعيد أخذت إيلخانية فارس بالتدهور، وشهدت صراعات مريرة على منصب الإيلخان ولا سيما أن أبا سعيد لم ينجب أبناءً ذكوراً، وانتقل الحكم من أسرة هولاكو إلى بيت جنكيز خان عندما نُصب أرباجاون من سلالة أريق بوقا أخ هولاكو حاكماً بدلاً من أبي سعيد، وفيما بعد تفككت الإيلخانية إلى عدة دويلات وممالك مستقلة، استمرت حتى قضى عليها تيمورلنك أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي [3].

ويجب الإشارة أن الغرب أدرك خطورة هذا التقارب المملوكي الإيلخاني على مصالحهم وسياساتهم، لذلك أرسلوا رسالة إلى أبي سعيد باسم البابا سنة 722 هـ / 1322م، ذكَّروه فيها بنهج أسلافه وأجداده المتضمن التنسيق والتعاون مع البابوية وأوروبة ضد دولة المماليك، ودعوه للوقوف ضد الناصر محمد بن قلاوون في حربه ضد الأرمن، وعرضوا عليه اعتناق المسيحية[4].

لكننا نجد خبراً آخر سنة 722 هـ / 1322م ورد فيه مراسلة البابا جان الثاني والعشرون للسلطان أبي سعيد، وطلب إليه دعم ملك أرمينية في الحرب ضد المماليك، فأرسل السلطان أبو سعيد عشرين ألف

---

[1] المقريزي: السلوك ، ج2 ، ق2 ، ص521 – 523 . سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ص88، 89.

[2] سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص88.

[3] البدليسي: شرفنامه، ج2، ص34، 35. إقبال: تاريخ المغول، ص360 وما بعد.

[4] هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص141، 142.

جندي لدعمه على الرغم من المعاهدة التي كانت تربطه بسلطان مصر، سائراً على سياسة أجداده في الدفاع عن الأرمن[1].

ومع انتهاء الحروب في سواحل شرق البحر المتوسط، ضعفت علاقات الإيلخانيين مع العواصم الأوروبية مرة أخرى، وبقيت العلاقات التجارية والقنصلية والاكتفاء بالمراكز السياسية في المدن التجارية المهمة فقط[2].

سادساً _أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده ومغول فارس (741- 784هـ / 1340-1382م):

حكم من أولاد الناصر ثماني سلاطين، واستمر حكمهم عشرين سنة (741- 762هـ /1340 – 1361م)، وإذا كان خلفاء الناصر محمد من أبنائه وأحفاده قد تمكنوا من البقاء في الحكم أربعين سنة (عهد الأحفاد 762-784/ 1361-1382م) فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة فيهم وإنما مرجع ذلك إلى هيبة بيت قلاوون في قلوب المعاصرين[3].

ونأتي إلى علاقة المماليك في عهد خلفاء الناصر محمد مع مغول فارس، فعلى الرغم من ضعف هؤلاء الذي أوصل سلطنة المماليك إلى حالة سيئة من الاضطرابات والمنازعات، فإن حكام الدويلات والإمارات المغولية المتنافسين في فارس ظلوا ينظرون إلى دولة المماليك أنها أقوى دولة في الشرق، لذلك استمروا في إرسال سفاراتهم إلى القاهرة، مثل:

_ سفارة أرتنا سنة 751هـ / 1350 م.

---

[1] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص43.

والبحث الآتي يتحدث عن القنوات الاتصالية بين المغول والغرب ضد دولة المماليك، ويتحدث عن سيطرة المغول على المجر وغيرها، وموسكو والمدن الروسية، وعلى المدن الهنغارية والمناطق السلافية، وحوض الفولغا.

DENIS SINOR; THE MONGOLS IN THE WEST, Harrassowitz Verlag, Journal of Asian History, Vol. 33, No. 1 (1999), pp. 1-44.

[2] روابط سياسي إيران با مصر وشامات، ص44.

[3] المقريزي: السلوك ج3، ق1، ص281، 282 . عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص112 – 116.

_ سفارة الشيخ حسن الجلائري سنة 751هـ / 1350 م.

_ سفارات الأشرف دمرداش بن جوبان سنة 751هـ/ 1350م، وسنة 752هـ/1351م وسنة 753هـ /1352م [1].

_ وطلب كلاً من أويس بن حسن الجلائري الذي تولى الحكم في بغداد ونائبه خواجة مرجان تأييد المماليك لهما أثناء تنافسهما، فراسلا السلطان الأشرف شعبان الذي استجاب لطلب مرجان لأنه كان يطمع في امتداد نفوذه إلى العراق، إلا أن أويس استطاع دخول بغداد وقتل مرجان.

_ وعندما تولى الحكم في بغداد المعز حسين بن أويس بعد وفاة سلطان بغداد وصاحب تبريز أويس سنة 776هـ/1374م بادر بدوره إلى الكتابة للسلطان الأشرف شعبان لإعادة العلاقات الطيبة بين البلدين، إلا أن المعز لم يعش طويلاً إذ ثار عليه أخوه أحمد بن أويس وقتله واستقر في الحكم، وبذلك استمرت الاضطرابات في دويلات مغول فارس حتى ظهور تيمورلنك فبدأ عصر جديد للمغول[2].

---

[1] سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، ص89، 90.

[2] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص107. سليمان: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون ص90، 91.

_ الخاتمة:

أظهر البحث زمنياً سيطرة المغول بداية على بلاد الشام، ثم سيطرة المماليك عليها، ثم بداية الصراع والتنافس بين الطرفين.

وظهر مدى أثر التحالفات المغولية مع الأرمن ومع الفرنج.

وظهر مدى جدية أو عدم جدية الغرب في التعاون مع المغول.

وأظهر البحث قدرة المماليك سياسياً وعسكرياً ودبلوماسياً.

وأظهر أثر العقيدة الدينية عند الإيلخانات في مجرى الأحداث.

لقد غزا المغول آسيا والصين وروسيا وجزء كبير من الشرق العربي، وأسسوا أكبر إمبراطورية في كل العصور، لكنهم فشلوا في السيطرة على بلاد الشام، على الرغم من جهودهم المتواصلة لأكثر من نصف قرن.

لذلك يكمن سبب ذلك في ما يأتي:

_ قوة الجيش المملوكي.

_ افتقار بلاد الشام إلى المراعي والمياه الكافية للاحتياجات الضرورية للجيش المغولي، فمثلاً في عام 654هـ / 1256م، زادت تعزيزات المغول في الشرق إلى 150000 جندي، بالإضافة إلى آلاف القطعان التي كانت مجلوبة معهم، وهذا يحتاج إلى مراع كبيرة[1].

_ وذكر البعض أنه لا يمكن قهر بلاد الشام لأسباب (لوجستية)، لأن سورية تفتقر للمراعي الكافية لتزويد الخيول المغولية، بالإضافة إلى افتقارها إلى ما يكفي الخيول من المياه[2].

---

[1] John Masson Smith: Nomads on Ponies vs. Slaves on Horses, American Oriental Society، Journal of the American Oriental Society, ،Vol. 118, No. 1 (Jan. - Mar., 1998), pp. 54.

[2] Charles J. Halperin; The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamluks and Ayn Jalut, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of

ــ طبيعة العلاقة بين الأطراف المغولية.

ــ وطبيعة العلاقة بين الصليبيين والمغول.

ــ وطبيعة العلاقة بين الصليبيين والممالك الأوروبية.

ــ القدرة الذاتية للمماليك بعد تركيز السلطة في أيديهم.

ــ احتواء منازعات المماليك فيما بينهم.

ــ القضاء على منازعة الأمراء الأيوبيين في الشام.

ــ التغلب على إرهاصات اتصالات الأيوبيين بالتتار.

ــ عملية بناء الدولة التي قام بها بيبرس واستكملها قلاوون(1).

_ فشل الإيلخانيين الغرباء في تأسيس قاعدة شعبية لهم في إيران(2).

_ تألَّف جيش المغول من كل القوميات والطوائف فلم يكن جيشاً متجانساً، مثل الجورجي والأرمني والرومي والمغولي والإيراني والعربي، ومن مختلف الأديان كاليهودي والمسيحي والمسلم والبوذي، ولم ينضموا إلى الجيش أو الحرب للدفاع عن وطن بل من أجل الطمع بالغنائم أو لأهداف خاصة، فالهدف المشترك لهم كان التوسع والحصول على غنائم الحرب، وكان المغول يظنون أنه من حقهم تسخير الشعوب المختلفة(3).

---

the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 2 (2000), pp. 244-245.

موركان: مغولها، ص107.

(1) انظر مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص28، 29.

(2)بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص300.

(3)بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص313.

_ كانت حكومة المماليك في مصر من العرق التركي، وطريقة التفكير وأسلوب الحياة والحرب وكل التقاليد والعادات كانت قريبة جداً من المغول، ويمكن أن تقول كانت واحدة، وفي وسط المماليك كان العرب من القبائل المختلفة المتشابهة في أساليب قتالها، فلذلك لم يكن للمغول أفضلية أو ميزة يتفوقون بها عليهم[1].

أما عن طبيعة العلاقة بين أوروبة والمغول فهي تجيب عن التساؤل الآتي: لماذا فشل التحالف بين الطرفين؟ هل أضاعت أوروبة فرصة ملائمة للقضاء على المماليك بفشلها في التحالف إيجابياً مع مغول فارس (وهو السؤال الذي سيبرز مرة أخرى مع تيمورلنك)، فلقد كان الهدف من تحسين أوروبة العلاقات مع المغول هو تحويل تلك الكتلة الشرقية الوثنية إلى المسيحية كي تنحصر الأراضي المقدسة بين أوروبة وآسيا المسيحيتين حتى تطبقا على المسلمين كفكي كماشة، ولكن انتهت هذه المحاولات وحكم عليها بالفشل مع تحول المغول في فارس إلى الإسلام في نهاية القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد، وهو تاريخ إعلان الإسلام ديناً رسمياً لمغول إيران بعد إعلان غازان حفيد هولاكو إسلامه[2].

ولقد فسرت التحليلات الغربية الاستشراقية هذا التحول باعتبارات المناخ السياسي، فبالرغم من اعتراف توماس أرنولد أن الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتين والإغريق والنسطوريين والأرمن قد امتدت إلى وسط المغول إلى حد جعل الأمل صعباً في إحراز نجاح أكبر في تحويلهم إلى المسيحية، إلا أنه يرى أن الكفاح الذي احتدم بين الديانات المتنافسة لجذب المغول قد حسمته الاعتبارات السياسية التي وجهت هذا الكفاح لمصلحة المسلمين، إذ إن انتصارات بيبرس على الصليبيين وتحالفاته مع بركة خان والممالك الأوربية دفعت إيلخانات فارس نحو وجهة جديدة تحمي مصالحهم.

كذلك يشير البعض الآخر إلى أن تحول المغول إلى الإسلام، قد ارتبط بتحول مواقف المغول من التحالف مع الصليبيين بعد انتصارات المماليك على الطرفين حيث أن سقوط عكا سنة 690هـ / 1291م كان نقطة تحول المغول نحو الإسلام.

---

(1) انظر بياني: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، ص314.

(2) انظر مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص28، 29.

ولقد اكتملت فرص نجاح أهداف المماليك نظراً لطبيعة العلاقات بين الأطراف المسيحية: الصليبية، البيزنطية، اللاتينية، أو الممالك الإفرنجية، فلقد حدث نصر سياسي هام في أوائل الستينيات من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي قدَّم فرصة هامة لبيبرس، وهو أن السلطة البيزنطية عادت إلى القسطنطينية بعد قضاء أحد أباطرتها على النفوذ اللاتيني الذي قوَّض الحكم البيزنطي منذ الحملة الصليبية الرابعة.

ولقد ساعد هذا التغيير الظاهر بيبرس على تعبئة مساندة أحد الأعداء التقليديين للصليبيين واللاتين. وفضلاً عن العداء التقليدي بين البيزنطيين والصليبيين في الشام أو المسيحيين اللاتين في غرب أوروبة فإن الصليبيين في الشام لم ينتبهوا إلى حقيقة الخطر المحدق بهم على يد بيبرس، إذ استمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية، ولقد دعَّم من التأثير السلبي لهذه المنازعات ــ التي ميزت تاريخ النصف الأخير من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي من حياة هذه الإمارات ــ عدم وجود حاكم قوي يجمع صفوفهم ويوحد كلمتهم ويحقق وحدتهم ويتغلب على تضارب واستقلال مصالحهم.

ومن ناحية أخرى تمكن بيبرس وقلاوون من تحقيق حياد ملوك أوروبة عند هجومه على الشام وذلك نظراً لتصدع وحدة الصف الأوروبي واشتعال نيران الحروب الأهلية في أوروبة، الأمر الذي صرفها عن إرسال نجدات إلى بقايا الصليبيين في الشام[(1)].

وإذا كان الإنجاز المملوكي في التصدي للمغول وفي تصفية الوجود الصليبي في الشام من أهم أركان الإقرار للدولة المملوكية بدور مركزي في السياسات الإسلامية والدولية بصفة عامة، وبالرغم من أن أحد أهم أسباب تحققه كان نجاح المماليك وبراعة في إدارة علاقاتهم مع الفواعل الدولية المحيطة، إلا أن تقويم بعض التحليلات الغربية لهذه الممارسات يفسح أمامنا المجال لمناقشة إشكالية هامة وهي مدى ابتعاد أو قرب هذه الممارسات، التي احتوت جانباً كبيراً من الاتصالات السلمية التجارية والعلاقات الدبلوماسية مع أطراف غير إسلامية عن مفهوم الجهاد ومقتضياته.

ولقد خلصت بعض هذه التيارات من التحليلات الغربية إلى نتيجة هامة عن هذه المرحلة، أي النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (والتي امتدت أيضاً لتغطي المرحلة التالية)؛ وهي أن تحليل مضمون وسبل عقد الاتفاقيات بين المماليك (في عهد بيبرس وقلاوون) وبين

---

(1) انظر مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، ص29، 30.

الإمارات الصليبية وأرمينيا الصغرى، والإمبراطورية البيزنطية، والجمهوريات الإيطالية، وأرجون وقشتالة، إنما يبين أنه مع بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أضحت أفكار الجهاد تمارس دوراً صغيراً في العلاقات الدولية بين الدول الإسلامية وبين الدول المسيحية حول حوض المتوسط، لأن السلطنة المملوكية، وهي أكبر قوة إسلامية في المنطقة، قد أقامت اتفاقيات دبلوماسية وتجارية نشطة مع دول مسيحية متعددة، وأن هذه الإجراءات والأهداف الدبلوماسية قد ورثتها وطوَّرتها الدولة العثمانية والتي تعد بصورة أو بأخرى وريثة السلطنة المملوكية.

ولمناقشة هذه النتيجة يمكن تسجيل الأمرين الآتيين:

الأمر الأول: خاص بالاتفاقيات مع الإمارات الصليبية فهي كانت من قبيل الهدنة والصلح، وبالنظر إلى تسجيل المصادر الثانوية والأولية عن تاريخ هذه المرحلة لقيام بيبرس وقلاوون بخرق الهدنة ونقض الصلح، يمكن القول إن هذه الممارسات لا تعكس إلا تمسكاً بروح الجهاد حيث كان بيبرس أو قلاوون، كما يقول البعض، يعاودون الهجوم عندما يُظهِر الصليبيون المكر والخديعة. كذلك يساعد تحليل نصوص هذه الاتفاقات وملابسات عقدها ونقضها على توضيح أسباب هذا العقد وهذا النقض، ولعل من أهمها لدى المماليك هو الرغبة في التقاط الأنفاس والاستعداد لضربة أكبر، حيث أن هذه الاتفاقات لم تكن متزامنة مع جميع الأطراف الصليبية أو كانت تهدف للتفرغ لإحدى مناوشات المغول التي لم تنقطع بعد عين جالوت.

الأمر الثاني: هو أن الاتفاقات مع الممالك الأوربية وإن كانت تحقق هدفاً استراتيجياً هو أحكام الحصار حول المغول والإمارات الصليبية حتى يمكن القضاء عليهم (الصليبيين) أو تحجيم خطرهم وإبعاده (المغول)، فهو هدف يكمن في صميم حماية الإسلام ومن ثم فإن هذه الاتفاقات تخدم أهداف الجهاد والدفاع عن الإسلام بالأساليب التي تتفق ومقتضيات الفترة التي عقدت في ظلها.

كما أنها تخدمها على نحو آخر وهي أنها ــ أي بعض أهم هذه الاتفاقات ــ كانت سبيلاً مباشراً لتدعيم عناصر القوة العسكرية المملوكية اللازمة لدرء الخطر المغولي الوثني. فلقد كانت العلاقات المملوكية البيزنطية، والمملوكية مع جنوة بصفة خاصة، تقع، كما توضح بعض التحليلات لهذه العلاقات، في صميم العلاقات المملوكية المغولية، ذلك لأن تأمين الطريق بين البحر الأسود والبحر المتوسط والذي تسيطر عليه الدولة البيزنطية كان يعد ضرورة حتمية، لأنه الطريق الذي تمد من خلاله القبيلة الذهبية السلطنة المملوكية بعنصر قوتها الأساسي أي المماليك، خاصة وأن الطريق الآخر الذي

يسلكه المماليك المجلوبة من مصادر أخرى كان يقع تحت سيطرة مغول فارس. ومن ناحية أخرى كانت المصالح الاقتصادية لجنوة تملي عليها التعاون مع المماليك في هذا الصدد أيضاً.

أما الاتفاقات مع مملكة أرجون (والتي تمَّت مع قلاوون) فكانت تضم إلى جانب عقود حماية التجار والضمان المتبادل لأمن أقاليم كل طرف والسماح بتصدير المعادن والأخشاب للموانئ المسلمة بنوداً أخرى يلتزم بمقتضاها ملك إسبانيا وأولاده بمساندة قلاوون في البحر والبر في حالة أي هجوم ضده من البابا أو أي إمارة صليبية أو جنوة أو البندقية أو الدولة البيزنطية، كما يلتزموا أيضاً بعدم تقديم مساندة لأية إمارة صليبية في الشام، بل وأن يحذروا السلطان من أي هجوم مسيحي أو مغولي عليه. ومما لاشك فيه أن هذه البنود الأخيرة وإن كانت ذات مغزى خاص حيث أنها تعكس تعبئة المساعدة من طرف غير مسلم وإن كان في مواجهة طرف آخر غير مسلم ولكنها في الوقت نفسه تثير تساؤلاً آخراً حول العلاقة بين هذا الاتفاق وما كان يجري في الأندلس، خاصة وأن الاتفاق استمر بعد قلاوون لمدة طويلة (699هـ–730هـ / 1300م–1330م) تصاعدت فيها عمليات الاسترداد المسيحي للأندلس[1].

ومن الممكن القول أن سبب فشل المغول في السيطرة على بلاد الشام يعود لفشل عقد تحالف فعلي بين المغول والصليبيين في أوروبة والشام وآسيا الصغرى للأسباب الآتية:

1- انشغال الأوروبيين بخلافاتهم الداخلية، ودُولهم لا تزال في دور التكوين والنشوء في ظل حركة القوميات الحديثة.

2- كان المغول في إيران حكاماً لبلاد إسلامية، فمن الصعب عليهم كحكام غير مسلمين السيطرة على شعوب مسلمة لمدة طويلة، فاضطر بعضهم لاعتناق الإسلام ومصادقة المماليك والابتعاد عن الأوروبيين.

3-كان قادة الغرب يطلبون من المغول اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي قبل تنفيذ أي تحالف.

4-لقد كان تحالف مغول القبيلة الذهبية مع المماليك لدفع خطر مغول فارس وتهديد حدودهم يشل قوتهم ويخفف من حدة توجههم نحو بلاد الشام.

---

(1) انظر مصطفى وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، ص30، 31.

5-عدم تفكير الغرب الأوروبي في مشروع التحالف مع المغول إلا سنة 690هـ /1291م بعد سقوط عكا أي بعد فوات الأوان.

6-المواقف المتفاوتة للصليبيين من المغول، إذ سادت نظرة الشك والخوف لدى الطرفين.

7-عدم تقديم الدولة البيزنطية المساعدة للمغول.

8-ضعف الكيان الصليبي في ساحل بلاد الشام، على الأقل منذ رحيل لويس التاسع من الشام، وانهياره نهائياً سنة 690هـ / 1291م، وهو من العوامل المهمة التي جعلت القوى الأوروبية تحجم عن محاولة مساعدة المغول، ومن أسباب هذا التداعي الصدام بين الهيئات العسكرية والخلافات المذهبية بين المسيحيين الشرقيين والكاثوليك.

9-الاختلافات في اللغة والدين والهدف من التحالف بين المغول والأوروبيين، وصعوبة الاتصالات بين الطرفين المعنيين بالتحالف ووجود المسلمين بين المغول والصليبيين ومنع الاتصال البري المباشر بينهما.

10-الحلفاء الحقيقيون للمغول كانوا أرمينية الصغرى وبلاد الكرج، بل كانوا أقرب للتابعين للمغول منهم إلى حلفائهم[1].

ومن أسباب نجاح المماليك في بلاد الشام تمسكهم الشديد بولائهم الديني، مع أنهم في معظمهم تربوا في ظل ديانات أخرى، ولم نشاهد عند كل سلاطين المماليك والأمراء والقادة من خان البلاد، أو هادن أو تآمر مع قومه السابقين ضد دولة المماليك إلا نادراً، وهو ما حيَّر المؤرخين، بل إن السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل وابنه الناصر محمد اتخذوا إجراءات صارمة ضد بعض الحكام والمسئولين في الدولة، عندما شكوا في ولائهم للدولة، وأقرب الأمثلة لنا هو السلطان العادل كتبغا، فهو من التتار، أُسر في حمص ثم تسلطن، ولم يساير قومه أو يهادنهم بعدما دان بالدين الإسلامي.

من أسرار انتصارات المماليك حرصهم الشديد على السرية والكتمان، فمثلاً عندما قدم (الشيخ عبد الرحمن) برسالة من ملك التتار المسلم أحمد خان بن هولاكو، وكانت مهمته سلمية، تلقاه الأمير جمال الدين آقوش الفارسي في حلب، وعدل به عن الطريق الرئيسي، حتى وصل إلى دمشق ليلة 12 ذي الحجة سنة 682 هـ / 1283م، فاعتقله في القلعة ولم يمكِّن أحداً من رؤيته أو الاجتماع به، وكان

---

[1] انظر عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا ص142.

معه 150 من كبار قومه، احتفظ بهم وبقوا كذلك حتى قابلهم السلطان[1]. وذلك حتى لا يطلعوا على مرافق الدولة وطرقها.

---

[1] النويري: نهاية الأرب، م31، ص99. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، م7، ص279.

قائمة المصادر والمراجع

_ المصادر:

_ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة. + دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4،2003م.+ تح عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997م.

_ ابن البدري، أبو بكر بن عبد الله بن محمد الدمشقي: نزهة الأنام في محاسن الشام، بغداد، المكتبة العربية، مصر، المطبعة السلفية، 1341هـ.

_ ابن الجزري، محمد بن إبراهيم: تاريخ ابن الجزري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط11، 1998م.

_ ابن الجيعان، يحيى: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، دمشق، دار الكتب الظاهرية.

_ ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي سورية 1984م .

_ ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط2، 1890. +++ ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، ط3، 1992م.

_ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1991م.

_ ابن العميد، جرجس: أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ص53.

_ ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، بيروت.

_ ابن الفوطي، عبد الرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، دار الفكر الحديث، بيروت، 1987م.

_ ابن الوردي، عمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1970م.

_ ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1983م.

_ ابن تعزي بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، القاهرة.

_ ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 2010م. ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: إبراهيم طرخان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة.

_ ابن تغري بردي، يوسف: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحرير وليم بوبر، الولايات المتحدة، كاليفورنيا، 1930م.

_ ابن حبيب، الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ط2، 2010م.

_ ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديث، القاهرة، 1966م.

_ ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1966م.

_ ابن حجر، أحمد بن علي: إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م.

_ ابن حجر، أحمد: أنباء الغمر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، المجلس للشؤن الاسلامية ، القاهرة، 1971م.

_ ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979.

_ ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1 ، 1981م ، ط2، 1982م.

_ ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

_ ابن دقماق، إبراهيم بن محمد: الجوهر الثمين في سير الخلفاء و الملوك والسلاطين، تح: سعيد عاشور، السعودية، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى.

__ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق.

_ ابن سباط، حمزة بن أحمد: تاريخ ابن سباط، عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، ط1، لبنان، 1413هـ/1993م.

_ ابن سمباط، حمزة بن أحمد بن عمر: تاريخ ابن سمباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، مطبعة جراوس، لبنان، ط2، 1993م.

_ ابن شاهين، خليل: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، القاهرة، دار العرب، ط2، 1988م.

_ ابن شداد، عز الدين بن محمد: تاريخ الملك الظاهر، تح: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، 1983م.

_ ابن شداد، محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تح دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي، 1953م.

_ ابن طولون، محمد: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: محمد مصطفى، القاهرة، 1962م.

_ ابن طولون، محمد: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: محمد مصطفى، القاهرة، 1962م.

_ ابن طولون، محمد بن علي: ضرب الحوطة على جميع الغوطة، النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بمكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق، وهي منقولة عن مكتبة جامعة ليدن [Bibliotheque de runiversite de Leyde. M S. arabe; 1862 Catal. Cadicum arabicorum ll p. 10 n814].

_ ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م.

_ ابن عبد الظاهر، محي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، محمد علي النجار، الشركة العربية المتحدة ،الجمهورية العربية المتحدة، ط1، 1961م.

_ ابن علي، شافع الكاتب: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا، 1998م.

_ ابن فهد، عز الدين عبد العزيز: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح: فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، ط1، 1986م.

_ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، تح: عبد الله التركي، دار عالم الكتاب، الرياض، ط1، 1997، و ط2، 2003.

_ ابن كنان، محمد بن عيسى الصالحي الدمشقي: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، القسم الأول تح: حكمت إسماعيل، دمشق، وزارة الثقافة، 1992.

_ ابن واصل، محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1957م.

_ أبو الفداء، إسماعيل: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، ط1، 1995م.

_ أبو الفداء، إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، م2، ج6.

_ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين العلائية والجلالية، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ط1، 2018م.

_ أبو شامة، محمد بن عبد الرحمن: الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، الموسوعة الشاملة.

_ الأدفوي، جعفر بن ثعلب: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تح: سعد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

_ الأرمني، سمباط: تاريخ سمباط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة.

_ البدليسي، شرف خان: شرفنامه، تر: محمد علي عوني، القاهرة، دار إحياء الكتب، 1962م.

_ البرزالي، القاسم بن محمد: المقتفي على كتاب الروضتين، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا، 2006 م.

_ جوانفيل، جين: حياة القديس لويس، الموسوعة الشاملة، تر: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق.

_ الجويني، عطا ملك: تاريخ فاتح العالم في تاريخ جنكيزخان وأعقابه حتى كيوك خان، تر: محمد ألتونجي، دار الملاح ، ط1، 1985 .

_ الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.

_ الحنبلي، مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح عدنان أبو تبانة، عمّان، الأردن، مكته دنديس، ط1، 1999م.

_ الخالدي، عبد الله بن لطف الله: المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الانشا، تح: خليل شحادة، أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1988.

_ الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تح: محمد بيسوني عسل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، ط2، 1983م.

_ الدواداري: كنز الدرر وجامع العزر، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، ط2، 1982م.

_ الدواداري، عبد الله بن أيبك: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تح: أولرخهارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1871م.

_ دي كانسي، جوزيف: أخباراً من سورية، تر: سهيل زكار، رسالة منشورة ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم يُنشر بعد.

_ الذهبي، محمد بن أحمد: العبر في خبر من غبر، تح: صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، سلسلة التراث العربي، الكويت، 1966م.

_ الرمزي، محمد مراد: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار ومغول التتار، أورنبورغ، مطابع الكريمية والحسينية، ط2.

_ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة.

_ الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2، 1962م.

_ العثماني، محمد بن عبد الرحمن، تاريخ صفد، تحقيق سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2009.

_ العمري، أحمد بن يحيى: التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.

_ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ.

_ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح دوريتيا كرافولسكي، قطعة منه بعنوان: مملكة مصر والشام والحجاز، المركز الإسلامي للبحوث، ط1، 1986م.

_ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985.

_ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004.

_ العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أصل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، 1992م، ج4.

_ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح إيمان شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2002م.

_ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد أمين، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ج2، 1988م.

_ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، 2010م.

_ الفارس الداوي الصوري، جيرارد أوف مونتريل: أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008م.

_ القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1985م.

_ القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت. + دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1922.

_ الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تح: فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم، العراق، وزارة الثقافة.

_ المقريزي، أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م. + تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفران للتراث الإسلامي، لندن 1995م.

_ المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ط2، 1957م.

_ المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان ،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة، ط1، 1987م.

_ المنصوري، بيبرس بن عبدالله المنصوري: مختار الأخبار، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993م.

_ المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح: دونالد ريتشارد، بيروت، الشركة المتحدة، ط1، 1998م.

_ النعيمي، عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، إعداد عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2015م.

_ النويري السكندراني، محمد بن قاسم: الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

_ النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

_ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قاآن إلى تيمورقاآن، تر: فؤاد عبد المعطي الصياد، تح: يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1983م.

_ الهمذاني: جامع التواريخ في غزو المغول تاريخ الإيلخانيون أبناء هولاكو، تر: محمد صادق نشأت، فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، 1960م.

_ الهمذاني: جامع التواريخ، تر: محمد صادق نشأة وفؤاد الصياد ومحمد هنداوي، وزارة الثقافة، القاهرة.

_ الهمذاني: جامع التواريخ، تارخ غازان خان، تر: فؤاد الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000م.

_ اليوسفي، موسى بن محمد: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: أحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1986م.

_ اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد، الهند، 1954م.

_ **المراجع العربية:**

_ أبو عليان، عزمي محمد: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، دار النفائس، الأردن، ط1، 1995م.

_ اسكندر، فايزة نجيب: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى ،أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1980م.

_ بدر، مصطفى: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1999م.

_ بدر، مصطفى: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي.

_ بدرو، كمال: حلب في العصر المملوكي الأول، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2002م.

_ بدور، كمال: حلب في العصر المملوكي الأول، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2002م.

_ الباشا، حسن: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة.

_ البخيت، محمد عدنان: نيابة الكرك في العصر المملوكي، مكتبة الجامعة الأردنية، ط1، 1976م.

_ البقلي، محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1983.

_ حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط14، 1996م.

_ حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة، مصر، ط2، 1948م.

_ حسنين، مزمل: نيابات الشام في عهد دولة المماليك الأولى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1953م.

_ حمادة، محمد ماهر: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرساله، بيروت، ط2.

_ حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، دار الفكر العربي، مصر، 1949.

_ حمزة، عادل: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.

_ حومد، أحمد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ط1، 2002 م.

_ الحجي، حياة ناصر: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1981م.

_ الحجي، حياة: بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، 2003م.

_ الخطيب، ابراهيم ياسين: تاريخ المغول والمماليك، دار شيرين، عمان، 1993.

_ الدباغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، دار الهدى، 1991م.

_ الدجاني، زاهية: عظماء من التاريخ، الظاهر بيبرس بين المغول والصليبيين دار الكتاب العربي، بيروت،ط1، 2003م.

_ دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، 1990م.

_ دهمان: ولاة دمشق في عصر المماليك، دار الفكر، دمشق، 1984م.

_ الريحاوي، عبد القادر: قلعة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة، 2008م.

_ السرجاني، راغب: قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، بيروت.

_ سالم، عبد العزيز: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

_ سبانو، أحمد: مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، 1984م.

_ سبانو: نظام الحكم والإدارة في بلاد الشام في العصر المملوكي، أطروحة دكتوراه، إشراف الدكتور جباغ قابلو، جامعة دمشق، 2010م.

_ سرور، محمد جمال: دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة، 1960م.

_ سرور: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي.

_ سعداوي، نظير حسان: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1961م.

_ سليمان، أحمد عبد الكريم: المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1984م.

_ شبارو، عصام: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1999م.

_ شراب، محمد: معجم بلدان فلسطين، دار المأمون، دمشق، 1987م.

_ شلبي، محمود: حياة الملك المظفر قطز بطل عين جالوت، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.

_ الشاعر، محمد فتحي: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، دار المعارف، القاهرة.

_ الشنتناوي، أحمد. خورشيد، إبراهيم، زكي، يونس، عبد الحميد: دائرة المعارف الإسلامية، 1933م.

_ الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية ، دار المعارف، القاهرة، 1961م.

_ الصاوي، محمد الصاوي: هولاكو الأمير السفاح، مكتبة النافذة، دار الكتب المصرية، الجيزة.

_ الصلابي، علي: دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، دار المعرفة ، بيروت ،لبنان، 1430هـ / 2009م.

_ الصلابي: السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2010م.

_ الصياد، فؤاد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، مركز الدراسات والوثائق في جامعة قطر، 1987م.

_ الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

_ طقوش، محمد سهيل: تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، بيروت، ط1، 2007م.

_ طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام، بيروت، دار النفائس، ط1، 1997م.

_ العبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995.

_ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.

_ العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

_ العسلي، بسام: فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، دار الفكر ، بيروت، ط1، 1988م.

_ العلبي، أكرم: الملك الأشرف خليل بن قلاوون فاتح عكا ومحرر بلاد الشام من الصليبيين، دار المأمون، دمشق، بيروت، ط1، 1987م.

_ العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1982.

_ عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، 1993م.

_ عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1963م.

_ عاشور: الظاهر بيبرس، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

_ عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، 1965.

_ عاشور، فايد محمد: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط1، 1995م.

_ عباس، إحسان: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1998.

_ عبد الحليم، رجب: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م.

_ عبد الرحيم، رجب: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية.

_ عبد السيد، حكيم: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، الدار القومية، 1966م.

_ عبد الهادي، محمد: العقود الدرّية، القاهرة، 1934م.

_ عطا الله، محمود علي خليل: نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الأفاق الجديدة، ط،1، بيروت، 1986م.

_ علي، أحمد إسماعيل: تاريخ بلاد الشام، العصر المملوكي، مركز الخدمات الطباعية، دمشق، 2000.

_ علي، السيد علي: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1986م.

_ عودات، أحمد. بيضون، جميل. الناطور، شحادة: تاريخ المغول والمماليك، إربد، دار الكندي، 1990.

_ الغامدي، عبد الله: جهاد المماليك ضد المغول والصليبين، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى.

_ فهمي، عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة، 1981.

_ قاسم، عبده قاسم: الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم.

_ قاسم: عصر سلاطين المماليك، دار الشرق، مصر القاهرة، ط1، 1994م.

_ قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

_ القزاز، محمد صالح: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، النجف، مطبعة القضاء، ص161.

_ كرد علي، محمد: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983.

_ المحمد، أنس: الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمار النهار، جامعة دمشق، 2010م.

_ المحمد، أنس: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2014م.

_ الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة، سوريا.

_ الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بحث سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، ، ط1، بيروت، 1990م.

_ ماجد، عبد المنعم: نظم دولة سلاطين المماليك، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1982م.

_ محمد علي، وفاء: جهود المماليك الحربية ضد الصليبية والمغول، القاهرة، ط1، 1985م.

_ مرزوق، محمد عبد العزيز: الناصر محمد بن قلاوون، المؤسسة المصرية.

_ مصطفى، شاكر: مدينة العلم آل قدامة والصالحية، دمشق، دار طلاس، ط1، 1997م.

_ مصطفى، نادية محمود، وآخرون: العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م.

_ منصور، محمد علاء الدين: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، دار الثقافة والنشر، القاهرة، 1925م.

_ مهنا، محمد نصر: الإسلام في آسيا، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، 1991م.

_ النهار، عمار: تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، 2013، 2014م.

_ هلال، عادل: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، 1997م.

_ وتر، محمد ضاهر: معركة عين جالوت، ط1، 1989م .

_ اليوسف، عبد القادر: علاقات بين الشرق والغرب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

_ المراجع الأجنبية المعربة:

_ إقبال، عباس: تاريخ المغول، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، ط1، 2000م.

_ إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، تر: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م.

_ أكانك، غريغوري أوف: تاريخ أمة الرماة، تر: سهيل زكار، غير منشور.

_ براون، إدوارد: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، تر: إبراهيم الشواربي، القاهرة، 1954م.

_ توراو، بيتر: الظاهر بيبرس، ترجمة محمد جديد، سورية، قدمس للتوزيع والنشر، ط2، 2002م.

_ رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1968م.

_ ستوف، فلاديمير: حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكررية، ترجمة سعد الغامدي، الرياض، جامعة الملك سعود، ط1، 1983م.

_ سين، زيتر: تاريخ سلاطين المماليك في مصر والشام، ليدن، 1919م.

_ شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر سهيل زكار، خالد عيسى، دار حسان ، دمشق، ط1، 1982.

_ غروسيه، رينيه: جنكيز خان قاهر العالم، تر: سهيل زكار وخالد عيسى، دار حسان، دمشق، 1982م.

_ كرافولسكي، دوروتيا: العرب وإيران، بيروت، دار المنتخب العربي، ط1، 1993م.

_ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: سليم حسن، محمود عابدين، مصر، مطبعة المعارف، ط1، 1924م.

_ ولبر، دونالد: إيران ماضيها وحاضرها، تر: عبد المنعم حسنين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1985م.

_ المصادر والمراجع الفارسية:

_ آزند، يعقوب: إيلخانان، تهران، انتشارات مولى است، 1392.

_ آشتياني، عباس: تاريخ إيران در عصر مغول، طهران، انتشار محور، 1387.

_ أشتياني، عباس: تاريخ مغول، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1392.

_ الجويني، علاء الدين عطا ملك: تاريخ جها نكشا (تاريخ خوارزمشاهيان)، تعليق وتصحيح: حبيب الله عباس، ايرج مهركي، تهران، 1385.

_ الجويني، علاء الدين عطا ملك: تاريخ جها نكشا (تاريخ مغول)، تعليق وتصحيح: حبيب الله عباس، ايرج مهركي، تهران، 1385.

_ باراني، محمد رضا: نامه تاريخ بزوهان، شماركان، 2000.

_ بياني، شيرين: دين ودولة در إيران عهد مغول، حكومت إيلخاني، مركز نشر دانشكاهى، جاب جهارم، 1389.

_ بياني، شيرين: دين ودولة در إيران عهد مغول، مركز نشر دانشكاهي، جاب سوم 1389.

_ بياني، شيرين: مغولان وحكومت إيلخانى در إيران، سازمان، مركز تحقيق، 1379.

_ حلواني، رقية يوسفى: روابط سياسي سلاجقة روم با إيلخان، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1381.

_ رضوي، سيد أبو الفضل: شهر – سياست واقتصاد در عهد ايلخانان، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1388.

_ زبردست، سياستمداري. خونخوار، لشكركشي: جنكيزخان، ترجمة: علي إقبالي، استاد دانشكاه تهران، جاب أول، 1369.

_ ساندرز، ج.ج: تاريخ فتوحات مغول، ترجمة: أبو القاسم حالت، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، 1390.

_ كروسه، رنه: تاريخ مغول– جنكيزخان، انتشارات آزادمهر، تهران، 1383.

_ لمب، هارلد: جنكيزخان، مؤسست انتشارات أمير كبير، تهران، 1377.

_ موركان: مغولها، ترجمة: عباس مخبر، تهران، نشر مركز، جاب أول، 1371.

_ المراجع الأجنبية:

- Adel Allouche; Teguder's Ultimatum to Qalawun, International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press, Vol. 22, No. 4 (Nov., 1990).

- AHistory Of Egypt in the Middle Ages; Land Pooles, London, 1925.

- Andrew, John; The mongol world empire 1206 – 1370, London, variorum reprints.

- Angus Stewart; The Assassination of King Hetum II: The Conversion of the Ilkhans and the Armenians, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 15, No. 1 (Apr., 2005).

- Arnold, sir, t. w; the preaching of Islam. 3 rd ed. Tra. By. Regnold Nicholson. (London, 1935).

- Charles J. Halperin; The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamluks and Ayn Jalut, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 2 (2000).

- DENIS SINOR; THE MONGOLS IN THE WEST, Harrassowitz Verlag, Journal of Asian History, Vol. 33, No. 1 (1999), pp. 1-44.

- DENISE AIGLE; Eljigidei, Hülegü, and Abaqa: Mongol Overtures or Christian Ventriloquism? BRILL, Inner Asia, Vol. 7, No. 2 (2005).

- Howard Crane; THE ILKHANID SUNGUR BEY OF NIĞDE: A NOTE ON THE MONGOLS IN ANATOLIA, Mongolia Society, The Mongolia Society Bulletin, Vol. 6, No. 2 (12) (Fall, 1967), pp. 64-70.

- Howorth, sir Henry; history of mangols. part Ill (London 1988).

- Jacques Paviot; England and the Mongols (c. 1260-1330), Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 10, No. 3 (Nov., 2000), pp. 305-318.

- James D. Ryan; Christian Wives of Mongol Khans: Tartar Queens and Missionary Expectations in Asia, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol. 8, No. 3 (Nov., 1998).

- John Masson Smith: Nomads on Ponies vs. Slaves on Horses, American Oriental Society، Journal of the American Oriental Society, ،Vol. 118, No. 1 (Jan. - Mar., 1998)

- Judith Pfeiffer; Conversion Versions: Sultan Öljeytü's Conversion to Shi'ism (709/1309) in Muslim Narrative, Mongolia Society, Mongolian Studies, Vol. 22 (1999), pp. 35-67.

- Mark A. Whaley; A Rendering of Square Script Mongolian on the Îlkhân Ghâzân Maḥmûd's Coins, Mongolia Society, Mongolian Studies, Vol. 26 (2003-04), pp. 39-88.

- MICHAL BIRAN; DIPLOMACY AND CHANCELLERY PRACTICES IN THE CHAGATAID KHANATE: SOME PRELIMINARY REMARKS, Istituto per l'Oriente C. A. Nallino, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, LES RELATIONS DIPLOMATIQUES ENTRE LE MONDE MUSULMAN ET L'OCCIDENT LATIN (XIIE-XVIE SIÈCLE) (2008).

- Morgan, David; Medieval Persia 1040 – 1797, New York, long man group uk limited, first published.

- Muir, sir William: the mamluke or slave dynasty of Egypt, London 1891.

- Reuven Amitai-Preiss; An Exchange of Letters in Arabic between Abaγa Īlkhān and Sultan Baybars (A. H. 667/A. D. 1268-69), Harrassowitz Verlag, Central Asiatic Journal, Vol. 38, No. 1 (1994).

- Reuven Amitai-Preiss; Ghazan, Islam and Mongol Tradition: A View from the Mamlūk sultanate, Cambridge University Press on behalf of School of Oriental and African Studies, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 59, No. 1 (1996).

- Reuven Amitai-Preiss; S;ufis and Shamans: Some Remarks on the Islamization of the Mongols in the Ilkhanate, BRILL, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 42, No. 1 (1999).

- Saunders, J; The history of the mongol conquests, London, 1971.

- SCHÜTZ, EDMOND; THE DECISIVE MOTIVES OF TATAR FAILURE IN THE ILKHANID—MAMLUK FIGHTS IN THE HOLY LAN, Akadémiai Kiadó, Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, Vol. 45, No. 1 (1991).

- Spuler, Bertold; history of mangols, London, 1972.

- THOMAS TANASE; UNE LETTRE EN LATIN INÉDITE DE L'ILKHAN ABAQA AU PAPE NICOLAS III: CROISADE OU MISSION?, Istituto per l'Oriente C. A. Nallino, Oriente Moderno, Nuova serie, Anno 88, Nr. 2, LES RELATIONS DIPLOMATIQUES ENTRE LE MONDE MUSULMAN ET L'OCCIDENT LATIN (XIIE-XVIE SIÈCLE) (2008).

- Tton, (k. m.) a history of the crusades,2 vole, (pensylvania, 1958).

_ Glubb.j; the lost centuries ,1145-1453,London.

_ Howorth .H.H:A History of the Mongols,From The 9th Century London 1880-1888.

_ Mirce Eliade: Shamanism, Archaic Techniques of Ecstasy, Translated. R. Trask, Londom, 1951.

الملاحق

Abstract of thesis in English

The first chapter deals with the origins of the Mongols, their religious beliefs and their various tribes, from the time Genghis Khan emerged until his inheritance was divided between his four children. He received Monkukha Ann between 649-658 / 1251-1259 and sent his little brother Hulaku to Ismailia, He was entrusted with leading the military campaigns to Western Asia. He fought long and bitter wars that led to his overthrow of the Abbasid Caliphate in Baghdad and his establishment of the Mughal Persia of El-Ekhaniya and made its capital the city of Maragha in Azerbaijan.

The second chapter on the follow-up Hulaku march towards the Levant and the control of Mogul Persia, and then leave Hulaku leaving behind Ktbgp general commander of the forces of the Mongols, began the movements of the Mamluks, which was able to achieve a historic victory to stop the march of the Mongols in the Battle of Ain Jalout.

The discussion in the third and fourth chapters about the restoration of the Mamluk State of the Levant and the details of this, and the stabilization of their rule in them, especially through the system of prosecutions, between the research and their actions in this and their interest in them, which led to the growth and prosperity of the cities of Shamia and become a major source of the Mamluks in financing their military campaigns against Their enemies, especially Mughal Fares.

The fifth chapter discusses the Mamluk-Eilkhani relations during the reign of Al-Zaher Baybars (658-676 AH / 1260-1277 AD), and the developments of the internal and external events of the Mamluk and Eilkhan states and their reflection on the conflict between them. In contrast to the protection and preservation of the Levant and his measures to confront the Mongols of Persia, who allied with the

Armenians too, until things evolved into direct confrontations. The battles of Al-Bireh and Homs were the failure of the Mughal alliance with the West.

The sixth chapter deals with the Mamluk-Eilkhani relations in the reigns of Al-Mansur Qalawun and Al-Ashraf Khalil (678-693 AH / 1279-1293), which began with the departure of Prince Snar Al Ashqar in the Levant and his attempt to secede from Egypt. They attacked several areas, most notably Aleppo, and then the battle of Homs, which formed the largest military confrontation Mamluks Ilkhanip, and the victory of the Mamluks was the main reason for making it the last attempt Mughal to invade the Mamluk state. Then this chapter explains how events between the Mamluks and the state of Elkhanat Fares during the reign of Ashraf Khalil.

The seventh chapter discusses the Mamluk-Eilkhani relations during the reign of Nasser Muhammad ibn Qalawun and the reign of Ghassan (693-703 AH / 1293-1303 AD). How did Ghassan attempt to control the Levant repeatedly, and the first attempt at the battle of Al-Murooj complex was successful, The second attempt was a military operation in Aleppo to raid the Levant, but the harsh weather forced it to withdraw. The third attempt was the battle of Shaqheb, in which the Mamluks won an overwhelming victory.

The eighth chapter on the Mamluk-Eilkhani relations in the era of Nasser Muhammad ibn Qalawun after the era of Ghassan (703 AH - 741 AH / 1303 AD - 1340 AD), as the rule was received by his brother Olgito Khadabanda, and began a new phase of the Mamluk-Eilkhani relations characterized by peaceful relations, , Olgaito tried to exploit this invasion of the Levant, but this attempt did not work.

Then the era of Elkhan Abi Said, characterized by the convergence of Mamluk Eilkhani, and the parties held agreements of peace and friendship, and

exchanged gifts, and discussed the chapter gains each side of this convergence, and continued convergence in the era of the successors of Nasser Mohammed.